Princeton University Library
32101 057496984

Princeton University Library

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

الجزء الثاني

التفسير

لكتاب الله المنير

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة نفيسة من الأبحاث الفقهية والكلامية والتاريخية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية بصورة رائعة

بقلم محمد الكرمي

حقوق الطبع محفوظة

طبع في المطبعة العلمية قم

سنة ١٤٠٢ هـ

Daftar
inv. # 73/1/1012

Karami

التفسير

لكتاب الله المنير

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة نفيسة من الأبحاث الفقهية والكلامية والتاريخية والاجتماعية والأدبية والانتقادية بصورة رائعة

بقلم محمد الكرمي

حقوق الطبع محفوظة

طبع في المطبعة العلمية قم

سنة ١٤٠٢ هـ

الجزء الثاني

* (سورة آل عمـــران) *

مدنية كلها وعدد آيها مأتا آية وقد ورد في فضلها اثر كثير منه ماعن ابن عباس ان رسول الله قال من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه و ملائكته حتى تجب الشمس .

RECAP (Arab) BP130 .4 .K376 1981 juz' 2

* (بسم الله الرحمن الرحيم الم الله لا اله الاّ هو الحيّ القيّوم نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة و الأنجيل من قبل هدى للناس و انزل الفرقان ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد و الله عزيز ذو انتقام ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء). *

جاء في أسباب نزول هذه الآيات الى تمام نيّف و ثمانين آية ان وفد نجران وكانوا ستّين انسانا قدموا على رسول الله (ص) المدينة و دخلوا مسجده حين صلى العصر وقد حانت صلاتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس و قاموا فصلّوا في مسجد رسول فقالت الصحابة يارسول الله هذا في مسجدك فقال (ص) دعوهم فصلّوا الى المشرق فكلم رسول الله منهم السيد و العاقب و كانا من اجلّ شخصياتهم فقال(ص) لهما أسلما قالا قد اسلمنا قبلك قال كذبتما يمنعكما من الاسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب واكلكما لحم الخنزير قالا ان لم يكن عيسى ولد الله ولا أب له فنيما يظهر لكل احد فمن ابوه فقال لهما النبّي الستم تعلمون انه لايكون ولد الاّ ويشبه اباه قالوا بلى قال ألستم

تعلمون ان ربنا حی لا یموت و انّ عیسی یأتی علیه الفناء قالوا بلی قال ألستم تعلمون انّ ربنا قیّم علی کل شیء یحفظه و یرزقه قالوا بلی قال فهل یملك عیسی من ذلك شیئا قالوا لا قال ألستم تعلمون ان اللّه لا یخفی علیه شیء فی الأرض و لا فی السماء قالوا بلی قال فهل یعلم عیسی من ذلك الاّ ماعلّم قالوا لا قال فان ربّنا صوّر عیسی فی الرحم کیف شاء و ربّنا لا یأکل و لا یشرب و لا یحدث قالوا بلی قال ألستم تعلمون انّ عیسی حملته امّه کما تحمل المرءة ثم وضعته کما تضع المرءة ولدها ثم غذی کما یغذی الصبّی ثم کان یطعم و یشرب و یحدث قالوا بلی قال فکیف یکون هذا کما زعمتم فسکتوا .

اقول قوله (ص) لا یکون ولد الاّ و یشبه اباه یرید منه ان نتیجة المادّی تکون مادیّة مثله فالخصائص المشترکة بین المادیّات یجب ان تکون فی الفرع کما هی فی الأصل و لیس منظوره ان شبه الولد للوالد یکون علی ماهو متعارف بین الناس من أن الوالد اذا کان طویلا کان ابنه مثله و هکذا اذا کان اسمر و اسع العینین مثلا کان الولد علی طرازه فان هذه المشابهة لیست لازمة و کثیرا ما تخلّفت بین الاباء و الأبناء أما الخصائص المادیة اللازمة للمادّة بما هی فهی من اللوازم الذاتیة لا تتخلف و لا تختلف بطور محتّم .

و انما قال (ص) وان عیسی یأتی علیه الفناء و لم یقل فنی کما تعتقدون لانه (ص) یعتقد عقیدة القرآن فیه بأنه لم یصلب ولم یقتل و ان اعتقد النصاری فیه ذلك ، و لا شك فی صحة استدلال النبّی علیهم کما لا ریب فی لزوم انقطاعهم عن الجواب مع عقیدتهم فی المسیح ماانکره (ص) علیهم .

و قد تقدم الکلام علی البسملة و الحروف المقطعة (اللّه) علم

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL>

شخصی لواجب الوجود علة العلل (لااله الاّ هو) لامعبود بالحق الا هو و کل معبود سواه امّا عبد فی نفسه و امّا اخسّ من العبد وهو الحیوان و النبات و الجماد ولا یعبد ماسوی الله الاّ ساقط من جمیع حیثیاته(الحیّ) لانه معطی الحیاة لجملة من الکائنات وفاقد الشیء لا یعطیه و ان کان معنی الحیاة فیه و فیما سواه مختلفا کالاختلاف بین المادّی و المجرد (القیّوم) فان امداد الواجب اذا انقطع عن ممکناته تقلّص ظل الوجود عنها لان الامکان صفة ذاتیة للممکن وهی لا تتحقق الاّ بالواجب و قیومة الواجب معناها نظارته علی ماخلق نظارة تدبیر و امداد (نزّل علیك) یامحمد نبّی الاسلام(الکتاب) وهو القرآن (بالحق) ای بما هو ثابت فی صفحة الواقع و معنی ذلك انه لاجهل فیه ولا اشتباه حال کون هذا الکتاب (مصدقا) ومؤیدا (لما بین یدیه) ای یدی هذا الکتاب وهو ما سبقه من کتب السماء المنزلة علی رسله المرسلین لان الجمیع من الله و المحور الذی تدور علیه واحد وهو تعالیم الله لصالح البشریة و لسعادتها (و انزل التوراة و الأنجیل) تفصیل بعد اجمال و للدلالة علی عظمة هذین الکتابین بمراعاه الصیغه التی انزلها الله منهما لاهما بعد التحریف (من قبل) ان ینزل القرآن وانّما انزلهما (هدی للناس) وارشادا الی مافیه صالحهم فی النشأتین (وانزل الفرقان) وهو الکتاب نفسه و انما کرّر ذکره بلفظ آخر تنبیها علی علوّ شأنه بتعدد عناوینه (ان الذین کفروا بآیات الله) وجحدوا بحججه و بیناته تعنتا و انانیة و مماشاة للمصلحة الوقتیة و الشهوة النفسیة کجملة اولئك الذین یحتقرون المقدسین مع خضوع عقولهم لما هم علیه مماشاة للجهل الرائج و مواساة للجهلة (لهم عذاب شدید) یتکافأ مع جحودهم (و الله عزیز) لا یتجاوز علی

حماه احد (ذو انتقام) اقامة للعدالة الواقعية اللازمة الأجراء فى كلّ شئ (ان اللّه) باعتبار احاطته بكل مخلوقاته فلا بدع اذا كان (لا يخفى عليه شئ فى الأرض و لا فى السماء) لان الأرض و السماء من مخلوقاته و كل مافيهما من كائناته ·

* (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لا اله الّا هو العزيز الحكيم) *

التصوير فى كل شئ هو النقش و التخطيط و الأرحام جمع رحم هو مكان النطفة و مجال نموّها (هو) يعنى اللّه هو (الذى يصوركم) يخطّط نطفكم فتارة ذكرا و اخرى انثى و ثالثة خنثى بوسامة او دمامة بطول او قصر وما الى ذلك و هذا التصوير يكون (فى) عالم (الأرحام كيف يشاء) على ما تقتضيه الحكمه و المصلحه لا اعتباطا وتشهيا اذ لا جزاف فى فعل الحكيم ·

و لا اشكال لأحد من الذكران و الأناث على طرز خلقته ذكرا كان ام انثى بأنّها لو خلقت ذكرا لكان اولى بها او هو يقول لو كنت انثى لكان اولى بى لعواطف تعصف بالفكر فتهيج الأمانى المذكورة لان خلقة الذكر و الأنثى و ان تفاوتت من نواحى عديدة طبيعية و اخلاقية و بلغ احصائها الى الاربعين فارقا الّا ان لكل احترامه و صلاحيته لا كما يظن الرجل انه اعظم مقاما من المرئة بالذات نعم يجوز ان يكون اعظم مقاما بالعمل و تحمّل الزحمة و لا كما تظن المرئة انها ادون من الرجل مقاما بالذات فانها قد تكون خيرا منه بالعمل و مسألة تكوّن الأنثى من مثل المادة التى يتكوّن منها الذكر من اعظم رموز الخلقة انصافا ·

(لا اله الّا هو) يعنى اذا كان اللّه تعالى بالوصف المذكور

وهو انّه مصّرف للعالم كله فلا تليق العبادة بأحد سواه لان ما سواه داخل فى حوزة حكومته متصرف بتصريفه مخلوق له (العزيز) الذى لا يستطيع مخلوق ان يتفلّت عليه فى عالم التكوين (الحكيم) الذى لا يعمل عملا من دون حكمة وعلّة وان لم تتجل جملة من العلل للعيون والعقول ·

* (هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات
محكمات هنّ امّ الكتاب وأخر متشابهات
فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه
منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم
تأويله الاّ اللّه والراسخون فى العلم
يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكر
الاّ اولوا الألباب) *

المحكم فى اللغة هو القوّى المترابط الأجزاء والمتشابه هو ذو الوجوه المتعددة والزيغ هو الميل عن الحقّ والفتنة التشويش والراسخ الثابت العريق ومفاد الآية أنّ اللّه تعالى هو الذى انزل عليك الكتاب فكّل شىء فيه هو منه وقد احتوت دفّتا هذا الكتاب على الآيات المحكمة اى ذات الظاهر المكشوف الذى يلتفت اليه كل عارف باللسان معرفة متعارفة نظير قوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرأ يره وعلى آيات متشابهات نظير الحروف المقطعة (كهيعص) أما الآيات المحكمة فهى نازلة على ما يتوقع منها لانها للمكلفين قاطبة فهى تكلمهم بلسان يفقهونه وأما سبب انزال المتشابهه فمجهول لم ينكشف لنا وجهه كسائر الأمور الغامضة علينا من

اسرار الخلقة (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) ميل باطنى عن الحق ورمز يدعوهم الى الاقتناص من وراء التستر بظاهرة الحق (فيتبعون ما تشابه منه) يعنى يقولون ان الله اراد من هذه اللفظة هذا المعنى ليقبعوا به و يتسربوا الى منوياتهم الباطلة(ابتغاء الفتنة) بين الناس و تفريقالهم ليستفيدوا من طريق التفريق ما يزوونه فى انفسهم من اهداف مسمومة (وابتغاء تأويله) من انفسهم بما يتمشّى مع مقاصدهم (و ما يعلم تأويله) اى تأويل المتشابه (الاّ الله) الذى انزله (و) أما (الراسخون فى العلم) الثابتة اقدامهم من الواقع الذين لا يتكلمون جزافا و لا يقبلون الجزاف من احد (يقولون آمنّا به) اى بالمتشابه يعنى ايمانا بنزوله من الله و لكن لا طريق لنا الى تأويله لأن تأويل ما لا ظاهر له تحكّم فيه(كلّ) من المحكم و المتشابه (من عند ربّنا) هو الذى انزله (وما يذكّر) بالعظات و الدلائل البينات (الاّ اولوا الألباب) اى اصحاب العقول الراجحة التى تثبت بهم فى المزالق و لا تطوح بهم فى المداحض .

و تفيد الآية بلحنها ان عالم الخلقة و أسرار التكوين فيه ايضا محكم ومتشابه والمحكم هو الذى تجلّت حكمته مثل خلقة اجهزة الأنسان و ان هذا الجهاز فائدته كذا و الجهاز الآخر فائدته تلك و امّا المتشابه فكخلق الصحارى الجرداء و الحشرات المؤذية و احداث البراكين و الأعاصير و نظير ذلك فأما المتحيزون الى الرموز فأنك لا تراهم الا عالقين بمشكلات هذه الأسرار و طلاسم هذه المغلقات وأمّا اهل العقول الصحيحةوالضمائر الطاهرة فيقولون ان صاحب هذه الحكم الباهرة المتجلية لنا اجلّ من ان يوصم بالسفه بالنسبة الى ما لا نعرفه و لا ندركه و الجهل بالشيء لا يجوز ان يكون طريقا الى انكاره

او التشنيع به و المراد بقوله هنّ امّ الكتاب ان المحكم هو المحور الذى تدور عليه رحى اعجاز الكتاب و احكامه و آدابه و تعاليمه و امّا المتشابه فهو بالنسبة الى الحكم يسير بالنسبة الى كثير و ضمير به من قوله آمنا به يجوز ارجاعه للكتاب كما يجوز ارجاعه الى المتشابه ٠

* (ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا و هب لنا
من لدنك رحمة انّك انت الوهّاب ، ربّنا انك
جامع الناس ليوم لا ريب فيه انّ اللّه لا يخلف
الميعاد) *

هذا الدعاء من مقول قول الراسخين فى العلم المطمئنة قلوبهم بالأيمان المرتاضة عقولهم بمفاهيمه و مفاده ربّنا لا تمل بقلوبنا عن الحق بعد اذ هديتنا اليه و تناسب هذا الدعاء مع المنطق هو ان يقال انهم وجدوا انفسهم مهديّين بالفطرة التى خلقوا عليها الى الحق القديم فأرادوا من هذا المولى الرفيق بعباده ان يتوجه اليهم بلطفه فيقوّى مستدعيات فطرتهم فيهم حتى يبعدوا عن منطقة الضلال بعدا يأمنون معه عن الأنحراف الى الباطل و الميل عن الحق واستدعاء هذه المطالب من اللّه حقّ لاغضاضة فيه على الطالب و لاعلى المطلوب منه ٠

و ليس معنى الدعاء لا تمل بنا يارب عن الحق الى الباطل فأن فى ذلك من ظن السوء بالخالق و انّه يضل عبده اعتباطا و يؤيده بالايمان تشهيا مالا يخفى و المراد من طلب الرحمة هو طلب التوجه منه تعالى بنحو عام ،انّك انت الفيّاض الذى لا تمنع رفدك عن سائله اذا وجدته مستحقا له ، ربنا انك جامع الناس ، اى حاشرهم لميعاد لا ريب فيه حتى ينال كل مايستحق و حتى لا يذهب تعب المؤمن فى دنياه هدرا عليه

انّ الله لا يخلف الميعاد ، يجوز ان يكون هذا القول من تمام قول الراسخين فان من لازم الأيمان بالله تصديقه فيما يقول و من قول الله علىٰ ايدى رسله انه حاشر الناس ليوم القيامة لينال كلّ من المحسن و المسىء فى الدنيا حقّه اللازم فى الآخرة كما يجوز ان يكون من قول الله سبحانه فتكون الجملة استئنافية ٠

و خلاصة البحث ان الانسان بفطرته البعيدة عن الموهنات فاضل يحبّ الصدق ويبغض الكذب ودليل ذلك انه فى المطالب البعيدة عنه يؤيد الصدق والصادق ويفنّد الكذب والكاذب وهكذا سائر خلال الفضيلة و فى مقابل ذاك سمات الرذيلة فانه يكرهها بفطرته نعم اذا تعلقت اغراضه الشخصية بما يخالف فطرته ايّد غرضه و بعد عن ايحاآت فطرته و هذا مطلب من الضرورة بمكان و انما يعاكس فيه الماديّون لأنهم جافون لأنفسهم سيئوا الظن بخلقتهم معتقدون بها خلاف واقعها وللعقيدة اثر فعّال فى توجيه البدن ٠

* (انّ الذين كفروا لن تغنى عنهم اموالهم ولا
اولادهم من الله شيئا و أولئك هم وقود النار
،كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذّبوا
بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم و الله شديد
العقاب) *

هاتان الآيتان جئ بهما فى مقابل ماقال الراسخون و دعوا به ربّهم يقول ربّ العزّة و امّا الذين جحدوا الله او جحدوا نعمه واختصّوا بأنفسهم و مساعيها وذهنياتهم المادية و قابلياتها فوجدوا ان القوّة فى المال و الرجال و ان لا وقع لشئ ورائهما(وهذه العقيدة مالئة لأدمغة الكثيرين من الناس) فلن تغنى عنهم اموالهم و لا اولادهم من الله شيئا اذا اراد خلاف ما اراد هذا المغرور فكم ملك سقط عن عرشه فى أيّام مع اتخاذ العدد الكافية لبقائه و استمراره من مال جزيل و جيش جرار و من دون الملك اصناف من الناس و اقسام من الرجال. خانتهم اموالهم و راحت فى اكياس غيرهم دفعة واحدة ولم تغن عنهم رجالهم و لم يستفيدوا من اولادهم و خذلتهم ذهنياتهم وقعدت بهم كافة قواهم المادية و اولئك هم وقود النار وحطبها لمحادّتهم لله سبحانه و مشادّتهم فى قباله .

اذا فشأن هؤلاء مع الله معاملة و مكافئته تعالى لهم جزاء كعادة الفراعنة و اتباعهم مع الله حيث يبارزونه بالمعصية الجاهرة و يعتدّون بأنفسهم فى قباله و يأتى عليهم الدور من قبل الله سبحانه بالمؤاخذة على ماعملوا انّ الله شديد بطشه عظيم عقابه ثقيلة مؤاخذته.

و قد يرى جملة من الناس ان العدل بتمام معياره انما يتعقل

حيث تقع المجازاه بأزاء الجريمة بلا فاصلة او بفاصلة قليلة و الا فأرسال خناق المتعّنت يفعل مايشتهى اتكالا على عذاب الآخرة فهو تسييب للبشرية من لازمه عبث الظالم بالمظلوم حتى يتراجع عنه من قبل نفسه .

لكن فى هذا النظر اشتباها لانه مخالف لطرح خريطة اصل الخلقة فأن الله جعل المكلف بين نشأتين نشأة تكليف و من لازمها اعطاء الأختيار له حتى يظهر منه مايأتى و مايذر اذ المقسور على الطاعة لا يكون طائعا و لا يعرف خبثه و شّره من طهارته و نزاهته حتى يصل اليه حقّه من جزاء السيئة او الحسنة و نشأه مجازاة و من لازمها انها متمحضة للتنعم او التألم فارغة من التكليف و من اهواء النفس بالمرّة .

و بعبارة اخرى يكون الأنسان فى شؤن خلقته غدا غير نفسه اليوم فى خصائص الخلقة كما يشير الى ذلك نظير قوله تعالى و نزعنا مافى صدورهم من غلّ اخوانا على ان الله سبحانه فى هذه النشأة لم يقطع نظره من عباده من حيث المجازاة على عمل الباطل او عمل الحق كما اشعرنا بذلك فى صدر البحث .

* (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم و بئس المهاد) *

روى ان هذه الآية نزلت فى اليهود لمّا اصاب رسول الله قريشا ببدر و ذلك انه (ص) جمع اليهود عند مقدمه الى المدينة فى سوق قينقاع فقال يامعشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر واسلموا قبل ان ينزل بكم مانزل بهم و قد عرفتم انى نبّى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم فقالوا يامحمد لا يغرّنك انك لقيت قوما اغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة انّا والله لو قاتلناك لعرفت انّا نحن الناس فأنزل الله هذه الآية و مفادها قل يامحمد للكافرين سينصر الله عليكم دينه فتنغمر عزّة الكفر بعزّة الأيمان هذا فى دنياكم و امّا فى أخراكم فمآلكم الى جهنّم و جهنم بئس مهادا يمهّد لانسان حتّى عذاب مستّمر موجع لوقضى على الانسان به لا راحه و لكن المجازى قصد بذلك طول التعذيب واستمرار التنكيل فواحسرتاه منكم على انفسكم حيث لا تنفع الحسرة و لا تفيد الندامة ·

و الآية تفيد بلحنها ان الكافر بموازين السماء المستسخف لها العامل بضدّهما مغلوب لا محالة و المراد بمغلوبيته المحققة انه سيخسر حياته الصادقة و ينغمر فى سخافات و تموجات متعبة من الحياة تجعله كارها لوضعه متألما من دنياه حاسبا لها انّها من اتعس الاشياء هى وانها لدى التحقيق نقمة على صاحبها لا نعمة بخلاف مالوجرت الاوضاع الحيوية على ميزان الأيمان و تخلّق الانسان بأخلاق المؤمنين فان الحياة لا تثقل عليه و متى خف ثقلها خفتّ أذاياها قطعا بل وقلّت ايضا لأنّ دواعى الأيمان تحذف الكثير من مشكلاتها ·

* (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى
سبيل الله و أخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى
العين و الله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك
لعبرة لأولى الأبصار) *

الفئة الجماعة التى يفىء اليها الأنسان لأجل ان يتقوّى بها ورأى العين يعنى بالحسّ الشهودى و يؤيّد معناه يعطى الأيد اى القوّة و الأبصار جمع بصر فى قبال البصائر جمع بصيرة ·

و الآية تشير الى وقعة بدر التى انتصر فيها المسلمون على قلّتهم عددا وعدّة على الكافرين الذين كانوا اكثر منهم عددا وعدّة ايضا و كان عدد المسلمين فى بدر ثلاثمأة و ثلاثة عشر رجلا و عدّتهم سبعون بعيرا و فرسان و ستة ادرع و ثمانية سيوف و كانت عدّة المشركين الفا او دون الألف بقليل و كانت خيلهم مأة فرس بعدّة كافية ·

و الخطاب فى (لكم) يجوز أن يكون لعموم الناس من باب ضرب مثل للمؤمن و الكافر و أن المؤمن من حقّه أن ينتصر فى مواقفه مع الكافر لأن المؤمن يعلم انه على حقّ و ان طرفه على باطل كما يعلم أن دنياه اذا لم تتهيأ له فله آخرة واسعة و الكافر لا يرى وراء الدنيا شيئا فخوف الكافر عند ملاقاة المؤمن فى حرب اكثر من خوف المؤمن بل ولا قياس فيستظهر من هذا انّ المؤمن اذا تلكأ عن حرب الكافر او شرد عن وجهه فهو ضعيف الأيمان بالمبدأ الذى يتولاه و يدافع عنه و ضعيف كل شىء لا وزن له ·

كما يجوز ان يكون للمشركين عامة ارعابا و ارهابا لهم بأن موقف المؤمن مؤيّد فانضووا تحت راية الأيمان ايّها المشركون وقد يخصّ به

اليهود تهديدا لهم كما يجوز ان يكون للمسلمين و انّهم اذا قابلوا الكفّار مقابلة مسلمين بدر انتصروا عليهم و النتيجة من جميع الأحتمالات واحدة ٠

و قوله تعالى (يرونهم مثليهم) كناية عن الكثرة فى مقابلة القلة و ليس المنظور به انّهم واقعا مثلاهم و نظير هذه الأستعمالات كثيرة مثل ان تستغفر لهم سبعين مرة (ان فى ذلك لعبرة) اى انّ فى انتصار القليل المؤمن بمبادئه على الكثير القاصر بنظره على المادة وحدها عبرة و مقياسا لكل من يريد أن يستجلى كيف يغلب المرابط لمبدءه فاقد المبدأ ٠

* (زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين
و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة والخيل
المسوّمة و الآنعام و الحرث ذلك متاع الحياة
الدنيا و الله عنده حسن المآب)) *

الزينة المظاهر الأخاذة و الشهوة ميل النفس الى رغباتها و القناطير جمع قنطار وهو المال الكثير و المقنطرة صفة تأكيدية مشتقة من القنطار نفسه كما يقال ليل أليل و قيل سميت الخيل بهذا الاسم لخيلائها فى مشيها و طموحها و مرحها و المسوّمة قيل من السيماء و هو الحسن و قيل من السوم وهوالرعى و الهدف بذلك تركها ترعى على رسلها لا تعمل و لا تستخدم و الأنعام ينصرف اطلاقها العرفى الى الأبل و البقر و الغنم و الحرث هو الزرع ٠

و الهدف من الآية ايقاع المقارنة بين الدنيا المحضة التى لا يراعى فيها الاّ شهوات الحيونة فقط من اكل و شرب و لبس و سكن و عرس واولاد

ومال وخيل وانعام وزروع ونظائر ذلك وبين الدنيا المعتدلة التى تطفح عليها المعنويات وترافقها الفضيلة ، امّا الاندفاع نحو الشهوة محضا فذلك فيه من الخسائر على الانسان مالا يعرفه الاّ اذا توجه اليه وامّا اذا أصرّ على ماهو فيه فذاك سبيله سبيل الحيوانة المهملة ولا كلام معها فان المقاييس المنطقية انّما تساق لمن يدركها لا لمن يجفوها ·

وأمّا المشى المعتدل فيها فذلك فيه خير الدنيا المادية وخير الفضائل الانسانية هذا كلّه مع صرف النظر عن الآخرة وامّا مع النظر اليها فخسارة الانسان لاتقدّر وربح الأنسان الفاضل الذى جمع بين اطراف دنياه وآخرته لا يحصى ·

وقد جاء الأثر عن اهل الرياضات العقلية فى فتنة الرجل بالمرأة والولد الشئ الكثير ومن جملة ذلك قول النّبى (ص) ماتركت بعدى فتنة أضرّ على الرجال من النساء وقال(ص) للأشعث بن قيس هل لك من ابنة حمزة من ولد قال نعم لى منها غلام ولوددت انّ لى به جفنة من طعام اطعمها من معى من بنى جبلة فقال(ص) لئن قلت ذاك انّهم لثمرة القلوب وقرّة الأعين وانهم مع ذلك لمجبنة مبخلة محزنة وحسن المآب حسن المرجع والخاتمة وفاعل زين حبّ الشهوات للناس هو اللّه سبحانه اختبارا لعباده فان الأنسان من دون اختبار لايعلم مدى ما فى نفسه ·

* (قل أونبأكم بخير من ذلكم للذين اتقّوا عند ربّهم
جناتّ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها
و ازواج مطّهرة و رضوان من الله و الله بصير
بالعباد) *

هذه الآية كمقابل صريح للآية الآنفة الشارحة لمتع الحياة فى الدنيا جاء بها ربّ العزة لينّبه اذهان المكلفين الى انّ فى مقابل تلك المتع التى قد تحصل فى الدنيا لطالبها وقد لا تحصل متعا حاصلة بطور قاطع للمكلف المتقى و مع ذلك هى خير من متع الدنيا من عدّة نواحى ·

(١) ان الحياة الأخرويه للمتقين دائما فى رياض مطردة الانهار و فى ذلك من النزهة مالا يخفى امره ·

(٢) ان نعيم الآخرة على سلامته من المنغّصات دائم خالد ·

(٣) ان الازواج الموعود بها للمتقين ازواج مطهرة من درن الرذائل سواء كانت فى الطبيعة ام فى الأخلاق و قلّما تحصل امرءة فى عالم الدنيا تكون مطهرة من هذه الأدران ·

(٤) ان نعيم الآخرة على اوصافه تلك مقرون برضوان الله سبحانه و مرضاة الله غاية شريفة لمن يدركها ، و ختم سبحانه الآية بأنه تعالى عالم بروحيات عباده الذين يميلون الى متع الدنيا صرفا و لا يهمهم من امر الآخرة شئ و عباده الذين يلحظون آخرتهم بلحظة قوية ·

و يجوز فى قوله للذين اتقّوا ان يتعلق بقوله بخير من ذلكم فيكون ارتفاع جنات على انّها خبر لمبتدأ محذوف تقديره و الذى هو خير من ذلكم جنّات تجرى كما يجوز ان يرتفع جنّات على الابتداء والخبر هو

قوله للذين اتقّوا عند ربّهم و تكون هذه الجملة الأبتدائية تفسيرالقوله بخير من ذلكم .

و تشير الآية الى نوعين من خلاصة ما أريد بها :

(١) هى ان نعيم الآخرة كما هو متفّوق على نعيم الدنيا فى جنسه و وصفه كذلك خلقتكم فى أبدانكم فى الآخرة متفوقة على خلقتكم فى ابدانكم فى الدنيا و ذلك ان مجارى طبيعتكم فى الدنيا ينحذف منها فى الآخرة كلّما هو مستقذر كالحيض و النفاس و الطلق و المرض و تشويه الخلقة و الغرائز التى تقود الى الرذائل من التعدّى على حقوق الأغيار و الغضب و الحسد و ما الى ذلك و يقوم مكانها ماهو مكمّل للخلقه بوصف السلامة من كل عاهة كاجتماع الأشدّ وتمام الخلقة وحسنها ونضارتها و تجلّى الفضائل على كل حال .

وعن هذه الخلاصة تشير الآية الى ان النعيم المادّى فى الدنيا على نقصانه و آلامه حتى لواجده لم يكن متهيئا لكل احد اوّلاوان جملة من المؤمنين تورعوا عنه او اشغلوا انفسهم بعبادة الله فلم يكن لهم فراغاماّ فى الآخرة فأحسن النعيم بأتمّ اوصافه و لعموم المؤمنين مهيّأ جاهز و ان كل انسان عزبت نفسه عن النعيم المادّى و انصرفت الى المعنويات التى هى جلب رضا المعبود عنها فانه سينال اعلا مقياس ممّا توخاه ، و فهرست تفاوتات الآخرة و الدنيا تقرؤه فيما يلى :

(١) نعيم الدنيا لا يحصل لكل احد و نعيم الآخرة حاصل لكل موعود به .

(٢) نعيم الدنيا فانى و نعيم الآخرة خالد .

(٣) نعيم الدنيا حتى لواجده مفعم بالآلام و نعيم الآخرة فاقد لكل ألم وممّحض للتنعم اذلا ابتلاء فى الآخرة .

(٤) نعيم الدنيا حتى لواجده وحتى مع زمن خلوصه من المؤلمات ليس دائما مقرونا برياض وانهار والآخرة واجدة لذلك .

(٥) نعيم الدنيا مقرون بعاهات خلقية وانحرافات اخلاقية وانحطاط فى الطبيعة ونعيم الآخرة واجد لكل كمال .

(٦) المتنعم فى الآخرة دائما فى دور شبيبة ونشاط وفراغ بال واستكمال من ادوات الطبيعة

(٧) نعيم الآخره فاقد للتكليف وشبهاته ونعيم الدنيا مقرون بالتكليف والشبهات .

(٨) المكلف فى الدنيا قبل ان يحكم له بفوز الآخرة غير محرز لرضوان الله وبعد الحكم له بالفوز محرز لرضا الله سبحانه .

(٩) لا احتياط فى الآخرة لأحراز الواقع ولا تكلف اذ لاموضوع لهما هناك بخلاف الدنيا (النوع الثانى من النوعين المشار اليهما) ان الأدلة الواضحة دلت على ان العوالم لها مكوّن وان مكوّنها موجود ازلى ابدى حىّ قادر عالم حكيم كل ذلك باستلزام المعلولات لعللها ومن طريق هذه الحكمه يوجب العقل على الحكيم ان يكون هدف خلقته اسعاد مخلوقه والاّ فبقاؤه فى كتم العدم خير له من ايجاده بل يعتبر ايجاده كجناية يجنيها عليه واسعاد المخلوقات لا يعقل ان يكون فى هذه النشأة بهذه الصورة المليئة بالمؤلمات والمحزنات بما تلجأ احيانا الى الانتحار فلابد ان يكون فى نشأة اخرى فاقدة لهذه التموّجات العارمة وعادمة للتكليف ايضا وكما يجب اسعاد المنسجمين مع الأدب والوظيفه يجب تأديب العصاة المنحرفين كلاّ وما يستحق وهذان الوجوبان قد أبانهما سبحانه فى وعده بالمعاد الجسمانى وتوابعه وهذا هو الدليل العقلى على لزوم المعاد ونقليّه ما اشعر به الكتاب

والسنّة .

* (الذين يقولون ربّنا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) *

وفي هذه الآية شرح سبحانه ما عناه بالمتقين في الآية السابقة ليعلم ما هو المراد بهذه الكلمة فقال المنظور بالمتقين هم الذين يقرّون اقرارا موافقا لضمائرهم ليكون حجة عليهم عند الله والناس جميعا بأننا آمنا بك ياربّنا وتيقّنا انك مثيب لمن اطاعك معاقب لمن عصاك ونحن قد تبدر من عندنا بوادر لاترضاها فاغفرها لنا فان الانسان محطة الخطأ والنسيان واصرف عنا عذاب النار المعدّة للعصاة من عبادك العاجزين عن تحملها كما ان المتقين هم الصابرون على مايبتليهم به الله تعالى رضوخا لحكومته فيهم والصادقون في اقوالهم وافعالهم واوعادهم والملازمون للطاعة ـ وذلك اعرف المعاني التي يفسّر بها القنوت والمنفقون لأموالهم في سبيل الله اجابة لدعوة الله لهم بالأنفاق في سبيله والمستغفرون بالأسحار وخص السحر بالذكر دون سائر الأوقات لانه وقت خلوة ومناجاة فالأستغفار فيه حقيق بموافقته للضمير : روى عن ابي عبد الله عليه السلام انّ من استغفر الله سبعين مرّة في وقت السحر فهو من أهل هذه الآية .

* (شهد الله انه لا اله الاّ هو و الملائكة و اولوا العلم قائما بالقسط لا اله الاّ هو العزيز الحكيم) *

اصل الشهادة من الشهود وهو طفوح الشيء للبصر وهو الحاسة المثبتة للشيء باليقين المحسوس و لازم الشهادة بهذا المعنى ان المشهود به مالا ريب فيه لتحققه قطعا و معنى شهد الله انه لا اله الاّ هو ابراز علمه بحقيقة ذاته وعلم الله بكل شيء كشف وليس قول الله سبحانه فى حق نفسه دعوى مجردة بل هى مشفوعة بالحسّ الواضح وهو انّ غيره من الموجودات باطل زائل حائل آفل كما استدل بذلك ابراهيم عليه السلام .

و كذلك شهد الملائكة بواحدانية الربّ على مايقتضيه المنطق الصائب و انّما خصوا بالذكر لأنّهم من اكثر المخلوقات اطلاعا على بدائع الصنعة لنفوذهم فى عوالم السموات و الأرض و خصّ اولوا العلم من بين الناس لسداد خطواتهم بالمنطق الجزل و بعدهم عن الأوهام و الشبهات و قائما بالقسط حال من هو و انّما خصّ العدل بالسياق من بين اوصاف البارى تعالى لانه فى نفسه من اهمّ الصفات وبالنسبة الى الخالق من اعظمها ابانة عن انّ نفوذه و قهاريته ليسا فيه على حدّ غيره من النافذين القهارين فان غيره ينسى كل انصاف وعدالة عند سيطرته امّا هو تعالى فعلى عظيم نفوذه بما لا يدانيه فى ذلك احد فقد بنى صنعته و خلقته على العدل و القسط .

و جملة لا اله الاّ هو العزيز الحكيم شرحت بتكررها مفاد ما سبقها بأن الله معَ عزّته لاتساع قدرته و حقارة كل شيء بالنسبة اليه حكيم فى

افعاله و اقواله و الحكيم لا يكون الاّ عادلا لان الحكمة معناها وضع الشيء فى موضعه اللائق به ٠

و جاء فى الرواية عن غالب القطّان قال اتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت اختلف اليه فلمّا كنت ذات ليلة رأيته قائما فى الليل يتهجد فمرّ بهذه الآية شهد الله انه لا اله الاّ هو فقال و انا اشهد بما شهد الله به و استودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله و ديعة قال ذلك مرارا فقلت فى نفسى لقد سمع فيها شيئا فدنوت منه و قلت له آية سمعتك تردّدها فما بلغك فيها قال لا احدثك بها الى سنة فمضت السنة و اتيته على الموعد فقلت قد مضت السنة فقال حدثنى ابو وائل عن عبد الله (و يريد به ظاهرا ابن مسعود) قال قال رسوّل الله (ص) يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله ان لعبدى هذا عهدا عندى و انا احقّ من وفى بالعهد ادخلوا عبدى هذا الجنّة ٠

و فهرستا نقول معرفة الشيء تكون بطريق من ثلاثة طرق امّا المكاشفه او الحسّ الشهودى او العقل و المكاشفة تكون بالتجرد عن المادة و هذه الحالة انّما تحصل لأقوياء اليقين البعيدين عن المادة وعن حبّها و استيضاح هذا المعنى يكون بالتدبر للأحلام الصحيحة فأنها من مكاشفة الأرواح ، و امّا الحسّ الشهودى فمعلوم و المعرفة العقلية معناها قيام البرهان على تحقق الشيء ٠

و معرفة الله تكون لأهل اليقين بالمكاشفة القائمة على التجرد من صفات المادة و ان كان المكاشف ماديا فى ذاته و هذه لا تتحقق الاّ للأنبياء و من كان على وزانهم و امّا طريق الحسّ فهو الذى ينتقل منه لمعاينة العلل الموجدة له من باب الانتقال من المعلول الذى هو المحسوس الى العلة غير المحسوسة و معرفة غير المحسوس هذا انما

كانت من طريق العقل ٠

* (انّ الدين عند الله الأسلام و ما اختلف الذين
اوتوا الكتاب الاّ من بعد ما جائهم العلم بغيا
بينهم و من يكفر بآيات الله فان الله سريع
الحساب) *

الدين هو الخضوع للمقررات الربانّية فى السير الحيوّى تنصّ هذه الآية على ان الدين غير معقول ان يكون فيه اكثر من واحد و ذلك لان الواقع واحد لا اثنان و البارى تعالى لا يتعبّد الناس بغير الواقع وان هذا الدين الواحد هو الاسلام لله سبحانه فى كل وقت و مقررات الاسلام ايضا متحدة فى جذورها و ان اختلفت المصالح فى تغيير و تبديل فروعها على تسلسل الأجيال و تعدد الانبياء المرسلين حتى استقرّت بكاملها فى نبّوة خاتم الانبياء ٠

و لم يبق للتغيير و التبديل ذيل يسترسل اليه لتدوين وتقنين القوانين العامّة و الخاصة القائمة بجميع شؤن الحياه و ما يدعىّ من تطور الدين حسب تطورات الناس فهو تزوير على الحق فان الناس قد يتطورون الى ما هو فاسد بظاهر ضرورات العقول و الأذواق الصحيحة فكيف يتطور الدين مع هذا التطور المفروض فان واقع الاشياء واحد و ثابت على كل حال ٠

اذا فلا دين له مجال فى عرض الدين الأسلامى وقد كان اهل الكتاب من يهود و نصارى ينتظرون هذه النبّوة الخاتمة لقيام انبيائهم كل فى دوره بهذه المهمّة و لكن دواعى البغى و الحسد و الاستنكاف عن قبول الحقّ و حبّ الأنحياز هى التى اهابت بهم الى ان يتخلفوا

عنه و يشوبوا دين الله بآرائهم و انظارهم ٠

ثم هدّد سبحانه الكافرين بآياته بأنهم سوف يلقون جزائهم من دون مماطلة ولا تسويف لانه ليس بعد اتمام الحجة الاّ العقوبة ، و خلاصة الآية ان الواقع واحد لاتعدد فيه و ان الله لعدله و حكمته و رأفته بعباده لا يكلفهم الاّ بالواقع الثابت و لا يموّه عليهم فان التمويه تدليس و خيانة و الله يجلّ عن ذلك و الواقع الثابت هو الاسلام على كل حال و كما كلّف عباده بأن لا يفرقوا بين نبّى و نبّى فى تعظيمه و الانقياد له و تصديق نبوته لان الجميع يدعون الى الله كذلك كلف عباده بأن يحترموا دعواتهم و يأخذوا بها الاّ مانسخ من بعض فروعها و هذا لاغضاضة فيه كما لنسخ الذى يكون فى الشريعة الواحدة فكما ان النسخ فيها لا يضر بوحدتها كذلك نسخ بعض الدعوات لبعض فروع دعوة اخرى لا يضر بوحدتها فيظهر ان انقسام الدعوات بعد الدعاة مخلوق آراء و اهواء لاقيمة لها ٠

* (فأن حاجّوك فقل اسلمت وجهى لله و من
اتبعنى و قل للذين اوتوا الكتاب و الأمّيين
ءاسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا
فانّما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد) *

أبان الله سبحانه لنبيه اقصر طريق لخصم المنحازين عن الاسلام من اهل الكتاب و المشركين المعبّر عنهم بالأمّيين لتمحضهم فى العامية فقال له قل لمن يحاجّك فى الاسلام بأننى انا و كل مكلف يعترف لله بالعبودية اسلمت قيادى لله لانه الخالق المكلّف و كل من يكون كذلك يجب الانقياد له و الرضوخ لاوامره و نواهيه ·

و انما قال اسلمت وجهى و لم يقل قيادى لان وجه الانسان شعاره و عمدة مافيه فأسلام الوجه اسلام لكافة ما يحتوى عليه وجود المكلّف و كذلك كل من اتبعنى فى طريقتى اسلم وجهه لله و انتم هؤلاء ان كنتم تعترفون لله بالعبودية فأسلموا وجوهكم لله و انقادوا لمقرراته و اتركوا آرائكم فى قبال أمره و نهيه و ارادته ، وارادته هى هذه المقررات التى كلفنى بحملها و ابلاغها وهى بنفسها تدلّ على نفسها بالصدق اذ لا تحيّز فيها لجانب و لا دعوة فيها لشىء خاص سوى عزّ ساحته فأن اسلموا كما اسلمت و انقادوا لله كما انقدت فقد اهتدوا الى الطريق الصالح الموفى بهم الى السعادة ·

و ان تولوا عن دعوتك و بقوا على انحيازهم لأنفسهم و جنوحهم الى عصبياتهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فأنما عليك البلاغ و اقامة الحجة وقد حصل كل ذلك منك و الله بصير بعباده الذين خلقهم و انما يقيم الحجج عليهم و يواتر بالبيّنات اليهم لتتمّ عليهم الحجة من

كافة جوانبها و جميع جهاتها ٠

و الآية تشير بلحنها الى انّ ايّ مكلّف فى ايّ عصر كان و ايّ مصر اذا عقل دينه لا ينبغى له ان تهزّه الارتعاشات التى يقوم بها المرموزون و المأجورون اولئك الذين بلباقة اللسان و مساعدة اهواء العوام يثيرون الغبرة على مقدسات الفضيلة بان الصلاة ماهى فائدتها و تقديس الذوات المثالية من نبّى او وصىّ تقديس فارغ و المجال كله لتمشية الاهواء و اعطاء النفس رغباتها بل من لازمه ان كان من اهل الثقافة ابداء ثقافته فأن اتبعوها علم انهم كانوا مضلّلين مغفلّين و ان التووا عليه علم انهم مرموزون يحاولون تحصيل مطلب يسهل عليهم ارتكابه ويخفّ عنهم عابه كانصار المرأة باللون الذى هتكوا به كل عفيف وعفيفة هتكا لا يستطاع تداركه و لا يمكن تلافيه ٠

* (انّ الذين يكفرون بآيات اللّه و يقتلون النبيّين بغير حقّ و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من النـــاس فبشّرهم بعذاب أليم اولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا و الآخرة و مالهم من ناصرين) *

فصّل سبحانه فى هذه الآية جملة من مصاديق الذين يتولون عن النبّى الهادى و معنى الكفر بآيات اللّه تكذيب كونها منه و انّها من مواليد الطبيعة او الصدف كما يقول الماديون كل ذلك فى كل موجود ٠

و لا شك ان ذلك منهم انكار لواضح وقد حكمهم العلم و قطعتهم حججه و قتل الانبياء كما يصدق بسفك دمائهم يصدق بالتبليغ ضدّهم و وصف قتل الانبياء بكونه على غير حقّ تأكيد للباطل الذى يرتكبه القاتلون ٠

و فى افق قتل الانبياء قتل الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر بأراقة دمائهم او الصمود ضدّهم بالأسفاف و الاستخفاف فأن قال قائل هل يجوز للأنبياء ان يبلغوا حتى مع توقع القتل قلنا نعم فانّ معنى النبّوة هو التبليغ بكل مجهود وقد دعا انبياء اللّه حتى العتـاة المتجبرين مع توقعهم كل مكروه من طريق هذه الدعوة و النظر فى حياتهم الاجتماعية مصحر بذلك فقد واجه ابراهيم و موسى و عيسى ونبّى الاسلام كل اعنات و ترصدهم الكفرة بأنواع الأذى و بالقتل نفسه بشتّى انواعه ٠

و امّا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فيختلف حالهما مع الموارد و لا شك ان اولى الشخصيات المتزنة التى لها صوت و حيثية اجتماعية موظفون بما يسامت افق شخصيتهم كما لا شك ان سكوت المؤمن الذى

يؤدى الى دحض دينه و سحقه بالمرة لا مسوّغ له و القتل فى هذا الجهاد لا محذور فيه و يظهر من قوله تعالى اولئك الذين حبطت اعمالهم ان الأحباط كما يكون مع صريح الشرك بالله يكون مع ما هو فى افقه كقتل الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر و ان صدر من انسان يقول بالمبدأ و لا ينكره و اطلاق البشارة على العذاب تهكم واستهزاء ٠

* (الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يدعون
الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم
و هم معرضون ، ذلك بأنهم قالوا لن تمسّنا النار
الآ ايّاما معدودات وغرّهم فى دينهم ماكانوا
يفترون) *

فى هذه الآية أبان سبحانه حقيقة من حقائق العالم لها مفعول قوىّ فى النفوس و الاجتماع و هى ان هناك روحا قذرة فى جملة من افراد البشرية و تلك الارواح هى الغرور بطفيف ما يحصل للأنسان من علم او مال او جاه و الأعتزاز بالذات بأنه فوق الآخرين و مهما بدرت منه بوادر ٠

و المنظور بأيتائهم نصيبا من الكتاب حصولهم على بعض المعلومات السماوية من طريق الكتب المنزلة و ان وقوفهم على بعض هذه المعلومات ممّا ابطرهم فصاروا لا يصيخون حتى للأنبياء و تراهم ينازعون حتى الله سبحانه و معنى الم تر يراد به التعجب و الاستغراب يعنى الا تعجب ايّها العاقل من الذين افادوا بعض المعلومات من طريق الكتب السماوية فعاد عليهم هذا العلم وبالا و اخذوا ينازعون فى الحقائق الجاهرة و يتكبرون على من هو اعلا شأنا منهم و ارفع مقاما ٠

الم تر هم يدعون من طريق الأنبياء الى كتب الله سواء كان محلّ عقيدة لهم كالتوراة عند اليهودى و الأنجيل عند المسيحى ام لم يكن و لكنه فى نفسه ذو وزن بحقائقه و منطقه و دلائله القائمة الشارعة كالقرآن بالنسبة الى من لا يعتقد بنبوة الجائى به لتكون هذه الكتب حاكمة فاصله بين الداعى و المدعو فيما يختلفان فيه فترى جملة منهم بعد الحكومة عليه يتولى معرضا عن الحق مقبلا على عصبيّته مخلدا الى جهله وقد يكون من بعض السبب الذى يدعوهم الى ذلك حسن ظنّهم بأنفسهم بأنهم و مهما عصوا لا تمسّهم النار كما تمسّ غيرهم من العصاة تحكّما على من بيده امر التعذيب و التنعيم و ادعاء انهم شعب الله المختار و انّهم احبّاء الله و اعزاؤه جهلا منهم بأن الله سبحانه لايختار لنفسه شعبا عاصيا و ان عصاة خلقه ليسوا بأحبّائه و لا اعزّاء عنده ٠

و خلاصة البحث ان الآية تتعرض لغرور الجهلاء المركبين بنبذة ما يحصل عندهم من علم مخلوط بالجهل و هؤلاء اخسّ افراد المجتمع و ذلك ان الفرد اما جاهل محض فهذا فاقد للغرور العلمى لفقده تمام تجهيزاته و امّا متعمق لكثير ما باشر و عاشر المباحث العلمية وترقّى من نقص الى كمال و فهم ان دراسة الموضوع بتكررها و تشبّع الذهن بها تفيده ان الأنسان و مهما علم فأن فوقه عالما و فوق علمه علما و مثل هذا لا يغترّ ٠

نعم يغترّ القشرى الذى يحصّل شيئا على علاّته و لا ينقحّه و يكتفى به و يطمئن الى نفسه من جهته و مثل هذا فى وجوده خطر عظيم ، و الذين اوتوا نصيبا من الكتاب فصيلة من هذا الفريق المغرور و من هذا الفريق جهلة المتجددين ايضا اولئك الذين مع اعترافهم بالدين يجهلون معناه و يعرفون منه ما يعرفون من مجارى الطبيعة ومظاهرها

غافلين او جاهلين بأن الدين فيه امور تعبدية تقبل من طريق التعبد فقط ولا ربط لها بالعقل او بالطبيعة كأنكارهم ان الدعاء بالرزق يؤثر اعتمادا على ان الارزاق تابعة للكدّ والسعى وكانكارهم علىٰ الفقيه الزامه المكلفين فى الطواف ان يكون طوافهم فى مدار خاص لا يتجاوزه بأنه لو تجاوز ماذا يحدث فى العالم وكأنكار على شريعتى هذه الآية يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون ان تكون من القرآن لان العلوم الطبيعية اثبتت ان اليد والرجل واللسان الفاقد للحياة اعضاء لا تتكلم جهلا من هؤلاء جميعا ان الرزق ليس من مواليد السعى وحده بل قد يأتى من غير سعى بالمرّة ومن حيث لا يحتسب الأنسان فالدعاء قد يؤثر من حيث لا يشعر صاحبه وامّا مسألة حدود الطواف فمطلب تعبدىّ خالص يتقبله من يتقبل الدين ومخالفة الامور المحسوسة قد لا تعطى عكس عمل اصلا لكن مخالفة الدين تثمر للمخالف المعصية وامّا شهادة الاعضاء فمع الاعتراف بقدرة الله تعتبر من بسائط الأمور كتكليم الله نبيّه موسى من طريق الشجرة ٠

* (فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه و وفّيت كل
نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) *

كلمة فكيف هنا عقيب الآية السابقة تفيد التهديد و التخويف و التحذير يعنى دعهم فى هذه الحياة يتمردون على الواقع لكنك لو عرفت حالهم يوم نجمعهم للحساب فى محكمة لا ريب فى تحققها و لا شكّ فى ايفائها كلّا و ما يستحق من اصابة و اثابة كسبها لنفسه باختيار منها بلا أن يظلم المحسن و حتى فى الطرف القليل من اطاعته او المسئ فيما اختار من معصيته ، سبحان الله كل هذه التهديدات لم تنجع الاّ فى افراد محدودين قوى ايمانهم بالمهدّد فخافوه عن سويداء قلب .

هذا مضافا الى انّ تمنى الباطل و ارخاء العنان للنفس ممّا يركس الحياة على الجميع فى عالمهم الدنيوى و ماهذه التموجات العارمة فى اطراف العالم الاّ نتيجة هذا الانحراف الهائل .

* (قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء
و تنزع الملك ممّن تشاء و تعزّ من تشاء و تذلّ
من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير
، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى
الليل و تخرج الحىّ من الميّت و تخرج الميّت
من الحىّ و ترزق من تشاء بغير حساب) *

علّم الله نبيّه فى هذه الآية كما علّم بالتبع غيره من المؤمنين كيفية دعائهم فى دفع الأضرار و جلب المنافع و تأمين المقاصد ، و الملك هو كل قدرة مثمرة مؤثرة و لا شكّ أنّ صانع العالم بحذافيره هو مالكه الحقيقى و كل مالكية ترى ورائه فهى اشعاع عن مالكيته و نزع الملك تعرية من كان بيده شىء من القدرة و فصله عنها و الأعزاز اعطاء العزّة وهى المنعة عن ان ينال صاحبها مكروه او يغمط حقه او يعتدى عليه و الأذلال هو الأطاحة بالشخص بحيث لا يستطيع ان يستوفى حقه او ان يدفع عن نفسه باطلا يتوجه اليه و قدرة تتصرف فيه بغير حق .

و الخير يقال فى قبال الشرّ وهو ماكان محبوبا للنفوس بخلاف قبيله ، و انّما قال سبحانه بيدك الخير ولم يردفه بالشرّ لان كل ما يفعله الله من ايتاء الملك و نزعه و اعزاز من يشاء و اذلال من يشاء صادر على وفق المصلحة و كل ما يصدر عن مصلحة فهو خير لا منفذ للشرّ فيه .

و التعبير بأيلاج الليل فى النهار و ايلاج النهار فى الليل تعبير عن حالة ظاهرية و بمنزلة تشبيه يعنى فى زمان اضاءة الشمس لوجه الكرة المقابل لها كأن الليل ثوب مطوىّ حشى فى باطن النهار وفى زمان

عدم مقابلة ذلك الوجه من الكرة للشمس كأن النهار ثوب مطوىّ حشى به باطن الليل فهذا معنى ايلاج احدهما فى الآخر وكذلك اخراج الحىّ من الميّت والميّت من الحى تشبيه وبحسب الظاهر ايضاً كأخراج الانسان من النطفة والنطفة من الأنسان ونظير ذلك وايتاء الله الملك من يشاء ونزعه ممّن يشاء واعزازه من يشاء واذلاله من يشاء كل ذلك للمصالح المتوفرة المتركزة فى علمه لا جزافا واعتباطا وامّا مسألة ايلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل فهى حيوية مكشوفة لا شكّ فيها واخراج الحىّ من الميت والميت من الحى من اعظم دلائل الخلقة بتفاصيل ليس محلّها هذه الآية وقد سبق ويأتى شتات من هذه النماذج ، وامّا الرزق بغير حساب فليس منشأه الجهل والجزاف وانما هو الأختبار والأمتحان فيمن أعطى اكثر من قابليته اومنع حتى فى الضرورىّ من حيويّاته .

*(لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء مـــن دون المؤمنين و من يفعل ذلك فليس من الله فـــى شىء الآ ان تتقوا منهم تقاة و يحذّركم اللّـــه نفسه و الى الله المصير) *

لا شك ان الروح المؤمنة بالمبدأ و الروح الكافره بة روحان ممتازتان متقابلتان تقابل سلب و ايجاب تمقت احداهما الأخرىَ مقتا واقعيـــا لاصوريا . و لذلك لا يمكن أن يحبّ مؤمن واقعىّ كافرا واقعيا بحكم الطبيعة نعم متراخى الأيمان يتأتّى فيه ذلك و النهى الوارد فى الآية متعلقـه من اشرنا اليه و قد حكم الله على مثل هذا المؤمن بأنه ليس منه و ان ايمانه قشرىّ لا يشفّ عن واقع و استثنى تعالى من هذا النهى مـــوارد التقية حيث يخاف المؤمن على نفسه او عرضه او دينه او ماله او اخوانـه المؤمنين من الكافر ٠

و اصل جواز التقية بما هى امر عقلى لان تعريض الأنسان نفسه او عرضه او دينه او ماله او اخوانه للخطر حيث لا نتيجة بالمرّة او هنـــاك نتيجة مختصرة يعدّ من السفه و قد تحرم التقية اذا ادّت بديـــن الانسان الى التلف و ان حفظت حياته و مبحث التقية مبحث واســع لا مجال لتفاصيله فى هذا المختصر ٠

و قد حذّر الله عباده من نفسه متى اتخذوا نواهيه و اوامره العوبة لا تدعوهم الى فعل الواجبات و ترك المحرّمات ٠

(قل ان تخفوا ما فى صدوركم او تبدوه يعلمه الله و يعلم ما فى السماوات و مافى الارض والله على كل شئ قدير)

قد تكون هذه الآية فضلا عن عمومية ملاكها بالنسبة الى علم الله بكل ما يصح ان يقع معلوما فيها نوع استدراك بالنسبة الى الآية السابقة بمفاد ان المؤمن يحرم عليه ان يتولى الكافر و لا فرق على علم الله بين ابداء المؤمن حبّه و ولايته و استعانته بالكفرة و بين كتمانه ذلك و كما هو مؤاخذ على التظاهر بموالاة الكفرة مؤاخذ على موالاتهم حتى لو كانت من وراء حجاب و كما ان الله قادر على تحوير و تصريف ماهو محط القدرة ظاهرا كذلك هو قادر على تحوير و تصريف ماليس بظاهر كونه مقدورا ، و فى الآية تحذيرات للعبد فى شتى مجالاته كما هو متضح .

و تشير الآية بلحنها الى ما عليه اهل الرموز و الانتهازات من التظاهر بالدين و الدعوة اليه و العمل بضده من وراء هذا الستار ليستغلوا ظاهرة الدين سببا للقبوع من ورائه الى اعمالهم الخائنة و دسائسهم القذرة نظير كل من طلع بشعار الدين و اراد الفتك به من قدماء بشتى العناوين وجدد كذلك و لا انسى احمد كسروى و الذى بعده كيف كانا يظهران تحببهما لأهل السنة بانتقادهما للشيعة مع انهما فى عنصريهما من الشيعة و هما مع ذلك لا يدينان بدين وأيّا كان و انما فعلا تخفيفا عن انفسهما من قدح القادحين الكثيرين .

* (يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا
و ما عملت من سوء تودّ لو انّ بينها و بينه امدا
بعيدا و يحذّركم الله نفسه و اللّه رؤف
بالعباد) *

هذه الآية كنتيجة للآية السابقة وهى ان علم الله بما يبدى العبد اويخفيه نتيجته ان كلما عمله من خير يتجسم امامه و كذلك مافعله من سوء و بما ان تجسّم الخيرمما لاشكّ فى افادته الفرح لم يتعرض له وانما تعرّض لتجسّم الشّر فقال تودّ النفس الشريرة يومذاك انّ بينها و بين الشّر الذى اركسها فاصلة بعيدة فلا تعرفه و لا يعرفها و لكن لا نتيجة مع هذا التمنى كالمريض الذى يتناول بدافع شهوته و نهمته مايضّر به فبعدما تبرز آثار الضرر يتمنىّ انه لم يأكل و لم يتناول الاّ ان ذلك لا يفيده ٠

و لذلك حذّر الله سبحانه كلّ عباده من ارتكاب السوء فى دار التكليف لئلا يتصل بالعبد الضعيف ماهو نتيجة عمله غدا و اللّه رؤف بعباده و من رأفته بهم تحذيره اياهم و نصحه لهم و اشفاقه عليهم ٠

* (قل ان كنتم تحبّون الله فاتبعونى يحببكم الله
و يغفر لكم ذنوبكم و الله غفور رحيم ، قل
اطيعوا الله و الرسول فات تولّوا فأن الله
لا يحبّ الكافرين) *

مورد نزول الآية أن نصارى نجران لمّا وفدوا على رسول الله كان من جملة قولهم انّا نعظّم المسيح حبّا لله فأمر الله نبيّه ان يقول لهم ان كنتم تحبّون الله كما تدعون فاتبعونى كما اتبع اسلافكم المسيح فاننى انا بديل المسيح فى عباد الله و اذا اتبعتمونى لله يحببكم الله ويغفر لكم ماسلف من ذنوبكم فان الاسلام يجبّ ماقبله اذا كان الذنب بين العبد و بين الله و الله غفور يريد بهم اليسر رحيم بهم عطوف عليهم ·

و اذا كنتم صادقين فى دعوى محبة الله كان من لازم ذلك لزوم اطاعته و اطاعة رسوله المبلّغ عنه فان تولّوا عن هذه الاستجابة فمعنى ذلك انهم لا ايمان لهم بربهم و اذا كانوا كذلك كانوا كافرين و الله لا يحبّ الكافرين ·

و خلاصة ما تفيده الآية لزوم نبذ التعصب للعاطفة فى اىّ امر كان فى دين ام دنيا فى ايمان بنبّى جديد تشفعه المعجزات ام بمقررات شرعية و ان ملاك الطاعة لله و الرسول و المحبة لهما مايقولان به لا ما تخلقه رغبة المكلف و الحال اننا نرى فى السابقين و اللاحقين ان رغبات الافراد منهم هى المعيار فى المحبة وعدمها لا الحقيقة بما هى فاستنكاف اليهود و النصارى عن قبول نبّوة نبى الاسلام لا لقصور فى دعوته او معجزاته بل لأنه كان من عنصر و بلاد يتغايران مع عناصرهم و بلدانهم و استنكاف المشركين كان لأنّ نبّى الاسلام فرد من افرادهم

لم يكن له سابق شموخ عليهم و قس على ذلك من هذا المنطق الزائف فان الحقيقة بنت المنطق و لا ربط لها بالعنصرية و لا باللغة و لا بالمنطقة و لا بالفقر و الثروة و لا بأية سمة اخرى ٠

* (انّ الله اصطفى آدم و نوحا وآل ابراهيم و آل
عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض
و الله سميع عليم) *

مفاد الآية أنّ الله انتخب و اختار لتبليغ رسالته و هداية عباده آدم ابا البشرية ونوحا أباها الثانى وابراهيم وآله الذين توفقوا لنيل مقام النبوة و عمران و آله على الوصف او على كونهم أناسا اخيارا يهتدى بسيرتهم طالب الحقيقة و يفيء الى الحق رائده و هذا الانتخاب فيما سوى آدم و المسيح نتيجة للاختبارات المتواصلة وهو فيهما تفضل محض لهداية البشرية ٠

و كون بعض هذه الذرية من بعض يأتى على و جهين (الأول)هو التوليد و الانتاج (والثانى) وهو الأهم كون بعضهم من بعض فى السيرة و الطريقة والتناصر على نصرة الحقيقة و اقوال هؤلاء وافعالهم فى تأييد الحق و تعريف الله لعباده مسموعة لله منظورة له معلومة لديه و سيعطيهم ربّهم تجاه ذلك ما يرضيهم ٠

اذا فالداعى المهم لبعثة الرسل مطلبان (الاول) صحة علوم الانبياء و انطباقها على الواقع و اصرارهم على التعليم و عدم اكتراثهم بالحوادث تقف امامهم (و الثانى) مثاليّتهم الأخّاذة لكل ملتفت الجالبة لكل نظر المطمئن اليها لبعدها عن الشوائب و النفوس كما تتأثر بالعلم عقليا تتأثر بالعمل جوارحيا فتعود تؤمن بالشيء عن

عقيدة جازمة و تعمل به لازدياد عقيدتها به و الذرية بالمعنى الثاني فضلا عن كونها اهمّ من وجهة الاعتبار الصادق مؤيدة بمنطق القرآن حيث يقول الله لنبيه نوح فى حق ولده انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح ٠

* (اذ قالت امرأة عمران ربّ انى نذرت لك ما فى
بطنى محرّرا فتقبل منّى انك انت السميع العليم
، فلمّا وضعتها قالت ربى انّى وضعتها انثى
و الله اعلم بما وضعت و ليس الذكر كالأنثى
و انّى سمّيتها مريم و انّى اعيذها بك وذرّيتها
من الشيطان الرجيم) *

قد يكون لذكر اذ هنا جهة تعليل لما سبق من قوله و آل عمران على العالمين وان مفاد الآية كشارح لجهة اصطفاء الله سبحانه آل عمران فى جملة من اصطفى ، و تحرير الولد تخصيصه لخدمه المعبد لا يبرح حتى يبلغ فاذا بلغ كان الخيار فى المكث و الذهاب اليه ،ونذر فعل الغيرُ يصح فيجب التوصل الى تحصيله و لكن لا يجب على ذلك الغير الأجابة اليه ٠

جاء فى الرواية عن ابى عبد الله عليه السلام قال اوحى اللّه تعالى الى عمران انّى واهب لك ذكرا مباركا يبرء الأكمه و الأبرص و يحيى الموتى بأذن الله و جاعله رسولا الى بنى اسرائيل فحدّث امرئته حنّة بذلك وهى امّ مريم فلمّا حملت بها قالت ربّى انى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبّل منّى هذا بالنذر العبادى انك انت السميع لأقوالى العليم بدفائن ضميرى ٠

فلمّا وضعتها قالت ربى انى وضعتها انثى و هذا اخبار تحـــزّن لافائدة فيه سوى ذلك و الله اعلم بما وضعت قبل أن تضع، وقول ـ وليس الذكر كالأنثى ـ يجوز ان يكون من قول امرءة عمران بمعنى ان الصلاحية فى مورد نذرى انما هى للذكور دون الأناث او ان ما نرجوه من الذكر لا تقوم به الانثى لضعفها عن مقاومة مايقوم به الرجل كما يجوز ان يكون من قول الله سبحانه اخبارا عن تفاوت طبيعة الذكران و الاناث كما هو الواقـــع ٠

قيل فى اسم مريم انه بلغة الأسرائيليين بمعنى المرءة العابدة وقد جاء فى الأثر ان رسول الله قال حسبك من نساء العالمين اربع مريـــم بنت عمران و آسية بنت مزاحم امرءة فرعون و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمّد (ص) ، و السرّ فى ذلك قد يكون واضحا فان مريم بنت عمران بتحملها المشاق فى الحمل بعيسى مصدر نبوة عامة و آسية بحفظهـــا لموسى كذلك و هكذا خديجة لمواساتها التامة لنبّى الاسلام و امّـــا فاطمة فاعتراف الجميع بجلالة قدرها فى العلم و العبادة و اصابـــة الحجة و انّها كانت مصدرا لتكوّن اسرة عظيمة مملوءة بالخيرات والمبرّات و لها من الفرق فى نظر الجميع على اخواتها مالا يخفى امره ٠

ثم ان هذه الأم عوذّتها فرختها و مايقسم لها من ذرية بالله حتـــى لا يمسّها الشيطان بما يشين ٠

* (فتقبلّها ربّها بقبول حسن و انبتها نباتا حسنا
و كفلّها زكريّا كلمّا دخل عليها زكريا المحراب
وجد عند ها رزقا قال يامريم انّى لك هــــذا .
قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشــاء
بغير حساب) *

الاستمداد من الربّ مع طهارة الضمير واخلاص النيّة له اثـــره الفعّال فلما نذرت امرءة عمران مافى بطنها محررا فى سبيل الله تقربـا اليه و تحصينا لمن ينتج عنها عوّذته بالله بعد ان وضعته و سألتـه ان يطرد عنه رجس كل شيطان و كيد كل كائد خبيث و تقبل الله ذلـــك منها بأحسن قبول و معنى ذلك انه وجّه من الطافه اليها مزيدا علــى ما يوجهه الى سائر عباده و معنى انباتها النبات الحسن تسد يــد خطاها و سدّ ابواب الفساد فى وجهها لطفا بها حتى ورد فى الأثـر انّها لمّا بلغت تسع سنين صامت النهار وقامت الليل و تبتلت حتى غلبـت الأحبار و اضاف سبحانه الى الطافه هذه أن جعلها تحت كفالة زكريّـا زوج خالتها و كان زكرّيا رأس الأحبار و زينتهم و الطليعة منهم فلمـا ضّم زكرّيا مريم الى نفسه و بلغت مبلغ النساء بنى لها محرابا فى المسجد و كان يأتيها بضرورات معيشتها كل يوم .

و ألفت نظر زكريّا انه كلمّا دخل عليها المحراب و جد عند ها رزقـا اثار استغرابه لما كان يجد فيه من فاكهة الشتاء فى الصيف و فاكهـــة الصيف فى الشتاء فقال لها يامريم من اين لك هذا قالت هو من عنــد الله اى كرامة منهم الكرامات تجوز على الأولياء و الأصفياء ان الله يـرزق تفضلا تارة و اختبارا اخرى و تكرمة ثالثة بغير حساب اى لا علــى

ميزان القابليات فقط ٠

و خلاصة المطلب ان كل امرءة تحفظ كيانها و ترتاض على الفضيلة و تشارك فى بناء المدينة الفاضلة هى السيدة لا التى تنزو فى الشوارع و تغزو الرجال بتهاديها و بذل محاسنها و تغرى الجهّال و تغيّر مجارى الحياة على اهلها بشتى الوانها كما هى شيمة مرءة اليوم ويعتبر جدد هذا العصر ان الدين هضم حق المرءة حيث منعها عن التبرّج و التخطى الى سوح الشوارع و السينماآت و التآترات و المسارح بادية عارية متحلية متزينة متجردة متنزية وهم فى واقعهم يعلمون بغلطهم المفتضح هذا و لكنهم يغالطونه لينالوا بغيتهم من هاته النواقص مجانا فى الأكثر و بلا عوض فى الأغلب و هو من اوضح الواضحات ٠

* (هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لى من لدنك ذرّية طيبّة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلّى فى المحراب ان اللّه يبشّرك بيحيى مصدقا بكلمة من اللّه و سيّدا و حصورا و نبّيا من الصالحين) *

جاء فى الأثر أن حنّة أيست ولم تلد فبينا هى تحت شجرة اذ رأت طائرا يزقّ فرخا فتحركت نفسها للولد فدعت اللّه أن يرزقها ولدا فحملت بمريم و كان من امر مريم فى الكرامة ما سبق فى الآية السالفة فهذه المجارى استفزّت زكريّا و كان مثل عمران ابا مريم لم يولد له فدعا زكريّا ربّه و قال ربّ هب لى من لدنك ذرّية طيّبة طاهرة لا دنس فيها فأن دنس الأبناء يتصل بالآباء و ان كانوا بعيدين عن كل لوث انك تسمع دعاء النزيهين المخلصين الذين لا يدعون الاّ لصالح لا مغمز فيه

و لا تحيّز فاستجاب له ربّه و اوفد اليه ملائكته مبشرين له بما اراد فنادته الملائكة وهو قائم يصلّى فى المحراب انّ الله يبشّرك و البشارة هى الأخبار بما يسرّ بولد ذكره سمّاه هو تعالى باسم يحيى اعلاما بما يكون عنه من حياة روحه بالعلم و بدنه بالعبادة و بما ينتج عنه من ثقافة فاضلة و تبليغ مشفوع بالتأثير و جعله اوّل مؤيد لنبّى عظيم يبعثه الى الناس كافة وهو عيسى بن مريم المعبّر عنه بكلمة الله و روح الله لأنّه انما توّلد بأمر من الله من دون أب و كما سماه تعالى بذلك الاسم الجليل جعله من سادة الناس علما و عملا و حصره بمزاولة الفضيلة و ابعده عن مظانّ الشهوة و انتخبه نبّيا و نظمه فى سلك عباده الصالحين القلائل فى اعداد البشرية .

و لا منافاة بين وصف يحيى عليه السلام بالحصورية و كون بقيّة الانبياء الذين فى جملتهم من هو اعظم منه بدرجات لا حصر فيهم بل كانت قواهم الشهوية على رسلها الطبيعى بل اتم من ذلك فان الشهوات اذا لم توبق الانسان فى المحرمات و لم تصرف بصاحبها عن العبادات و سائر المثاليات لا حزازة فيها اصلا و ناهيك بالانبياء مثالية و حسن سلوك حتى انّ العباد الذين استنوا على طريقتهم انقطعوا عن مجاراتهم فى تحمل المشاق الحيوية بأنواعها .

و تفيد الآية ان اللوافت التى تلفت نظر الأنسان الى شىء ان كانت لوافت خير نظير ما الفت نظر زكريّا عندما تكفل مريم و وجدها من الفضل بمكان عظيم قد اعارها الله نظر لطفه و عطفه و كرامته حتى جاءت من طريق استخنامها للفضيلة عنوانا لها و مشارا اليها بالبنان فأراد حينذاك الولد من هذا الطراز بعد ما كان متناسيا عنه كان من لازمه احكاما لأنسانيته المشى وراء ذاك الفضل بشتّى صوره و ان كانت لوافت

شرّ وجب عليه ان يحتفظ بنفسه عن التلوث بها و بأمثالها لا أن يسننّ عليها بل ان كان عازبا عنها لعدم ما يلفت نظره فبعد أن تتطلع لعينيه يجب عليه ان يسدّ على نفسه جميع المنافذ حتى لا يقع في هوّتها .

* (قال ربّ انّى يكون لى غلام و قد بلغنى الكبر و امرئتي عاقر قال كذلك اللّه يفعل ما يشاء) *

قد يقال ان زكريّا على جليل معرفته باللّه و بما سلف له من قصة عمران ابى مريم و مريم نفسها كيف قال متعجبا انّى يكون لى غلام . فالجواب انّه قد يكون ساق مقاله بهذا السياق ليلفت انظار الناس حتى اذا أوتى سؤله طفح اعجاز القضيةّ لهم و ثبت ان المجارى الطبيعيةّ لها مصرّف يقوم بها و ليست المجارى من الطبيعة ذاتها و الشيخ الكبير تضعف خلايا منيّه فلا تثمر و المرءه العاقر حالها معلوم ، فأوضح الناطق لزكريّا ان الأمر الذى انتما عليه سيبدّ له اللّه بمشيئته الى حالة مساعدة للتلقيح و الحمل و الولادة بأتمّ صورة قد لا تحصل للشبّان .

* (قال ربّ اجعل لى آية قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة ايام الأرمزا و اذكر ربّك كثيرا و سبّح بالعشىّ و الأبكار) *

و بعد أن تحقّق زكريّا من وعد اللّه له سأله شبيه مستحّث عن علامة وقت ذلك و انّه متى يتخلق منه و من امرءته غلام فأجيب بأن علامة ذلك احتباسك قهرا عن مكالمة الناس ثلاثة ايّام بحيث تريد النطق فلا تستطيعه الأرمزا بتحريك الشفاه فقط و مع ذلك تجد نفسك منطلق اللسان فى تسبيح اللّه و تهليله بالعشىّ وهى ظلمة الليل و الأبكار وهو الصبح من اوله و انّما خصّ هذان الوقتان بالذكر لانّهما مظنة خلوة للعبد مع معبوده و اقرب الى الخلوص و ابعد عن الرياء ٠

و هذه الآية التى أوتيها زكريّا قد تضمّنت اعجازا فى اعجاز كما يلوح منها فضل الصمت حيث تفقد الدواعى المعقولة المشروعة للنطق ٠

* (و اذ قالت الملائكة يامريم انّ الله اصطفاك و
طهرّك على نساء العالمين ، يامريم اقنتى
لربك و اسجدى و اركعى مع الراكعين) *

يعنى انّ الله اختارك لأن تكونى مصدر نبوّة عامة و منبع فيض عظيم و طهرّك من السفاح و الأقذار و الأخلاق الذميمة ليكون جملك فى منبت طاهر و مزرع طيب كما انّه اختارك على نساء العالمين لخلوّك من كافة الموهنات و تحليك بشرائف الصفات و لا تكون امرءة على هذه الصفة الاّ اذا كانت من اهل العصمة فيا مريم جزاء لهذا الأصطفاء و شكرا على هذه النعمة اديمى طاعة ربّك واكثرى من السجود والخضوع له وكونى فى زمرة الراكعين له تقديسا و تعظيما .

وكل انسان خلقه الله فيه من روح هذا الملاك فانه تعالى لمّا خلقه جعله سالما عاقلا ذا فطرة صافية و باستطاعته ان يمشى بسلامته وعقله و فطرته مشيا متعاليا فيكون من النجباء و يحقّ عليه ان يقنت لربّه دائما و يسجد له و يركع مع الراكعين .

* (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك و ماكنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايّهم يكفل مريم و ما كنت لديهم اذ يختصمون) *

ذلك اشارة الى ما تقدّم سوقه من حديث عمران و امرئته و زكريّا و يحيى و مريم من اخبار ماغاب عنك زمانه و علمه و بعد عنك محيطه و لا صلة لك به الاّ من طريق هذا الوحى الذى نوحيه اليك .

و ذكر سبحانه فى هذه الآية كيفية تكفيله زكريّا لمريم الذى سبقت الأشارة اليه فى آية سالفة بقوله و كفّلها زكريّا وقد جاء فى الآثار انّ حنّة ام مريم اتت بها بعد أن ولدتها ملفوفة فى خرقة الى المسجد وقالت دونكم النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت امامهم فقال لهم زكريّا انا احقّ بها لان خالتها عندى فأبوا عليه و قالوا ان يكن احد احقّ بها فأمّها و لكننا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه فانطلقوا وهم تسعة وعشرون رجلا الى نهر جار فألقوا اقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراه فى الماء فثبت قلم زكريا قائما على وجه الماء قد غرز فى طين و جرت اقلامهم فذهب بها الماء فقرعهم زكريا و يظهر من قوله تعالى ـ اذ يختصمون ـ انّهم تشاحّوا فى كفالة مريم حتى وصل بهم التشاح الى مرحلة المشادّة تنافسا فى اقتناء هذه الجوهرة الغالية .

و هذه الآية تلوّح الى ان الخيرات يجب الأستباق اليها وموجبات المغفرة و محققات الجنة يلزم التنافس عليها و لازم ذلك البعد عن الشّر بالمرّة حتى ينعدم من الجوامع و القرب من الخير حتى لا تكون لغيره حاكمية و حتى يسعد الجميع .

* (اذ قالت الملائكه يامريم انّ اللّه يبشرك بكلمة منه
اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا
و الآخرة و من المقرّبين و يكلم الناس فى المهد
و كهلا و من الصالحين) *

بعد ان تمّ تقديم مريم لأن تكون مصدر نبوّة عامّة و منبع فيض عظيم لقوله تعالى فيما سبق فتقبلها ربّها بقبول حسن و انبتها نباتا حسنا و كفلها زكريا و لقوله يامريم انّ اللّه اصطفاك و طهرك و اصطفاك على نساء العالمين اعربت الملائكة عن ارادة اللّه بمريم فقالت يامريم ان اللّه يسوق اليك خبرا سارّا بأن يتلقح رحمك ببذرة وليد ذكر و لكن لا بسبب طبيعى بل بكلمة يقولها وهى (كن) و كلمة كن تعبير لفظى عن الأرادة و اللّه سبحانه فى خلق الاشياء فى غنى عنها و انّما الخلاق للأشياء ارادته الجدّية لها لان ارادته عين قدرته فبمجرد تحقق الأرادة يتحقق المراد بخلاف الارادة فى الكائنات فانّها لا تتحقق فى الخارج الاّ بأعمال القدرة امّا بوسيلة اللفظ كقول الآمر لغلامه افعل وامّا بوسيلة تحريك الجوارح نحو الشئ .

و عيسى علم شخصى على هذا الوليد و المسيح لقب له وقد فسّر بمعان لا يأباها الذوق منها انه مسح باليمن و البركة و منها انّه مسح من الذنوب و الأدناس و منها انه كان يمسح رؤس اليتامى لطفا بهم وعطفا عليهم او انه كان يمسح عين الأعمى فيبصر و ذا العاهة فيبرأ .

و انما قال عيسى ابن مريم لينفى نسبته الى اللّه فليس هو ابن اللّه حال كونه وجيها بمعنى انه اينما مشى بوجهه اثر وجهه لحسن سيمائه و جلاله و وقاره و صلاحه الطافح على وجهه ، فى الدنيا عند الناس وفى

الآخرة عند الله و من المقربين لدى الباری جلت عظمته ،ويكلم الناس وهو رضيع فی المهد ليبرأ ساحة امه و ان حملها به كان عن طهارة و بأمر خاص من الله و ليثبت لنفسه كيانا نبويا كما يكلمهم وهو كهل لأبلاغ الرسالة و القيام بواجبات الهداية و من الصالحين الذين لهم وزن و شأن عند العبد و المعبود ۰

* (قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر
قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امرا
فأنما يقول له كن فيكون) *

فكان من جواب مريم عند ما ادلت الملائكة لها بالقول الآنف انها خاطبت ربها استغرابا و استعظاما منشؤه ملاحظة الحالات الطبيعية الجارية بين الناس فی عوالم اللقاح و الحمل و الولادة يارب من اين يكون لى ولد و انا امرءة عذراء لم يمسسنى بشر فأجيبت لامانع على القدرة الربانية أن تحملى من غير لقاح بشر فان الله يخلق تارة من سبب اوجده فی الطبيعة كالتوالد المعمول بين الناس و اخرى بطريقة ابداع محض و ارادة صرفه فاذا قدر امرا فی علمه كفى فی وجوده قوله كن فيكون بمجرد تعلق الارادة به ۰

و خلاصة المطلب ان الخلق على الخالق المختار العام القدرة يكون على نحوين (النحوالأول) الأبداع الخالص وهو خلق الشیء من غير سبب طبيعی كخلقة اول بذرة فی الأكوان فانه ابداع محض(والنحو الثانی) وهو خلق الشیء باستخدام للطبيعة بنحو من الأنحاء كخلقة آدم فانه استخدم فيه الماء و التراب فهما سابقاه فی الوجود و كخلقة عيسى فانه استخدم فيه رحم امه و كخلقة الباقين من الناس فانه

استخدم فيهم الأب و الأم و الماء المختلط من الذكر و الأنثى و قس على ذلك و المألوف بين الناس هو القسم الأخير و لذلك يستغربون ما سواه و ما قالته العذراء يجاري ما عليه المألوف طردا لتبعة ما ليس بمألوف لديهم وهو ماصنعه الله بها من تكوين عيسى فى رحمها بدون أب .

* (و يعلمه الكتاب و الحكمة و التوراة و الأنجيل
و رسولا الى بنى اسرائيل ،انّى قد جئتكم بآية
من ربّكم انى اخلق لكم من الطين كهيأة الطير
فأنفخ فيه فيكون طيرا بأذن الله و أبرأ الأكمه
و الأبرص و أحى الموتى بأذن الله و انبأكم بما
تأكلون و ما تدّخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية
لكم ان كنتم مؤمنين) *

بعد أن أبان الله لمريم قدرته الخارقة في وليدها و ان تكوينه يكون بنحو من الأبداع اخذ يوالى فى اوصاف هذا الوليد وقد سبق منها انّه وجيه فى الدنيا و الآخرة و من المقربين و انّه يكلم الناس فى المهد و كهلا وانه من الصالحين فأتمّها الآن بقوله و يعلمه الكتاب بمعنى جميع ما احتوت عليه الكتب السماوية التى يريد تقرير مضامينها فعلا دون مقرراتها التى كانت مؤقتة فى حينها و نسختها المصالح كما قررتها المصالح .

و الحكمة : يعنى الموازين الأصولية فى كلّ شىء،والتوراة والانجيل من باب ذكر الخاص بعد العام ، احتراما لهما اكثر من غيرهما من الكتب السابقة نزولا عليهما و يجعله رسولا الى بنى اسرائيل ،فلمّا

تمّت فی عیسی هذه المقدمات و استکملت هذه الصفات و أرسل نبّيا الى بنى اسرائيل قال لهم بعد ادعاء الرسالة انى قد جئتكم بعلامة تدّل على صدقى من ربّكم وهو انّه تعالى اقدرنى على أن اخلق لكم من الطين اى اصنع من هذه المادة جسما كهيأة الطير و هذا المعنى ليس فيه زائد مؤنة و انّما الأعجاز فى قوله فأنفخ فيه فيكون طيرا ولذلك عقّبه بقوله بأذن الله ٠

و كذلك من آيات صدقى اننى ابرئ الأعمى و أصحّ الأبرص و أحى الموتى كلّ ذلك بأذن الله و اقدار منه و كذلك من آيات صدقى اخبارى عن الغيب فيما تأكلون و تدخّرون فى بيوتكم و هذا كالسابق بأقدار و اذن من الخالق القادر ٠

و لا شكّ انّ فى تلك المظاهر و التشعشعات لآية وعلامة لكم يابنى اسرائيل على صدق مدعاى و لكن بشرط ان يكون لكم ايمان بالمبدأ و امّا منكر المبدأ فقد يتعلل فى صحة ماصدر ورأته عيناه و يحسب له حسابا مرموزا كما هو شأن التواء النفس عن الشىء و اعراضها تماما عنه ٠

و قد جاء فى الأثر ان الذى كان يخلقه من الطين كهيأة الطير هو الخفّاش قيل انّما خصّ عيسى بهذه المعجزات لأن الغالب فى زمانه كان هو الطّب فساق الله الى معاصريه ما يعرفونه حتى يكون وعيهم له معينا على التصديق به لان الجاهل بالشىء لا يعيره التفاتا٠

كما ان الغالب فى زمان موسى كان هو السحر فأوتى موسى من المعجزات ما يجانس ذلك و كان الغالب فى زمان نبّى الاسلام هو المباهات بالفصاحة و البلاغة فآتى الله نبيّه مجانس ذلك وهو القرآن من جوانب اساليبه و تراكيبه ٠

* (و مصدقا لما بين يدّ ى من التوراة و لأحل لكم
بعض الذ ى حرّم عليكم و جئتكم بآية من ربكم
فاتقوا الله و اطيعون ، ان الله ربى و ربّكم
فاعبد وه هذا صراط مستقيم) *

قوله و مصدقا مقول قول عيسى حيث سبق منه ان قال أنّى قد جئتكم بآية فيكون توزين الكلام بهذا اللون انّى قد جئتكم بآية من ربكم وجئتكم مصدقا لما بين يدّ ى من التوراة و معنى ذلك اننى لّست مناقضا لموسى كما ان كلّ نبى لاحق لا يناقض نبيا سابقا لاشتراك الجميع فى الدعوة الى الله سبحانه ،وان تحذف فى الرسالة اللاحقة اشيئ من الرسالة السابقة فليس ذلك بنقض وعداء و رقابة فيا جماعة اليهود لا تظنّوا برسالتى الظنون و تعتبرونى كمتغلب جديد ورد على حكومة يريد نقضها من أساسها بل انا مؤيد ممّد للشريعة السابقة غايته ان هنالك اشياء كانت محرمة عليكم فكلفنى الله فى جملة ما كلّف بحلّ قيود الحرمة عنها لمصالح اقتضت حلّها فى هذا الوقت و لم تكن مقتضية فى السابق الآ حرمتها ٠

و دليل صدقى فى ادعائى الرسالة و اننّى نبى مرسل من الله ما جئتكم به من الآيات التى اشير اليها آنفا فخافوا الله فىّ و اطيعونى تكونوا مطيعين للّه سبحانه لان طاعتى طريق لطاعته ،و اللّه الذى ادعوكم اليه هو ربّى و ربكم جميعا لا اله فى العوالم غيره فاعبدوه و هذا الصراط الذ ى ادعوكم اليه كما دعاكم غيرى اليه صراط مستقيم لا زيغ فيه فلا تتحيّز بكم العصبيات و تذهب بكم الانانيّات بعيدا فتهلكوا ٠

* (فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريّون نحن انصار الله آمنا بالله و اشهد بأنا مسلمون ، ربّنا آمنا بما انزلت و اتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، و مكروا و مكر الله و الله خير الماكرين) *

معنى قوله أحسّ عيسى منهم الكفر انّه تجلّى له خبثهم الباطنى و ظلمة ضمائرهم بعد أن كانوا فى بادء الأمر مجاملين لا يدنون منه دنوّ المخلص ولا يشردون منه شراد العدوّ المعلن فلمّا احسّ منهم روح الطغيان و تأكّد من عدائهم العريق و العداء الجذرى يسوق الى كل بليّة و ارتكاب كل خطيئة و يحمل بصاحبه الى ان يركض فى اوساط جهنّم و لا يهاب اراد أن يعرف الصفوة من اصحابه و الخلّص من اتباعه فقال بين جموعهم من انصارى فى طريقى الى الله فان هذا الطريق يقل انصاره لكثرة متاعبه و قلة عوائده الظاهرية .

قال الحواريون : و الحواريّ هو المخلص فى اتصاله الصادق فى صحبته ، نحن انصارك ، فى التطرق ، الى الله ، و نشر دينه و تثبيت طريقته آمنّا بالله ايمانا و اقعيا و اشهد يانبى الله علينا بأنناقد اسلمنا لك و له قيادنا اسلام معترف باذل ، ثم توجهوا الى الله نفسه فقالوا يا ربّنا آمنّا بما انزلت من دساتير و مقررات و اتبعنا الرسول فيما دعا اليه فاكتبنا فى سجّل الذين يشهدون لك و يعترفون بك و بما انزلت و بمن ارسلت .

و اخذ كفرة بنى اسرائيل يحوكون له الغوائل و تواطئوا على الفتك به فهذا هو مكرهم به و أما مقابلة الله لمكرهم فأنه القى شبه عيسى على

صاحبهم الذى اراد قتله فقتل القوم صاحبهم و رفع الله عيسى الى السماء و المكر انّما يطلق على المخادعة و الله يجلّ عنها لانه قادر لا يفوته شيء و انّما اطلق المكر على اعمال قدرته تعالى لايقاع التقابل اللفظى مثل و جزاء سيئة سيئة مثلها ولأن المكر يستدعى وجوه التصرف فى الشيء وهو نوع من التحسس القوّى ولا ريب ان الله اقوى من كل احد فى ذلك لنفوذ علمه فى كل شيء .

* (اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك و رافعك الىّ
و مطهّرك من الذين كفروا و جاعل الذين
اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم
الىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) *

ظرفية اذ باعتبار مكر الكفرة بعيسى و التوفى بمعنى الاستيفاء و الأخذ فمعنى توفاه اليه اخذه لنفسه و استوفاه و صيّره فى حوزته و ليس الله فى جهة علو دون سفل حتى يصدق الرفع الى الله لكن جهة العلو لمّا كانت اشرف باعتبار بعدها عن الموهنات و جلال الله دائما نزيه فمن هنا صحّ نسبة العلو اليه و قد يكون معنى ذلك الترفع لا الرفع من ادنى الى اعلا و هذا المعنى لا يقتضى جهة من الجهات.

و تطهيره من الذين كفروا بسبب رفعه اليه معناه ان الكائن بين الأرجاس و الأدناس و مهما كان فى نفسه نزيها لا يعدم اثر المجاورة فيه و حد الأقل من ذلك انه ينغمر ذكره و يعفى اثره فان الصالح فى مجامع الطالحين فضلا عن انه لا يؤثر اىّ اثر لا يعود لاسمه تشعشع بينهم .

و فوقية اتباعه على الذين كفروا تصّح فى المرحلتين الظاهرية

المادية فان اتباع عيسى غلبوا مناوئيهم من اليهود الذين نصبوا العداء الأكيد للمسيح و اصحابه و سادوا عليهم و للأن اثر ذلك موجود في الفريقين و المعنوية الصرفة فان المؤمن فوق الكافر عند الله و اهل الضمائر ولا شك ان مآل الجميع الموحد والملحد المطيع و العاصي الى الله وهو الذي يحكم بينهم فيما كانوا يختلفون فيه و يختصمون عليه من حط مقام عيسى و رفعه و اتهامه بالباطل و تنزيهه عنه ٠

و اصولا انما تكون المماراة في عالم الدنيا حيث يفقد الناقد المسيطرفان الانتهازي تراه يماطل من الاعتراف بالحق لأنه خلاف مصلحته الوقتية و انّما يسّلم له اذا حصل ناقد يميّز غثّه من سمينه و به قدرة على لطمه على وجهه اذا ابى الانقياد له ٠

* (فاما الذين كفروا فأعذّبهم عذابا شديدا في الدنيا و الآخرة و مالهم من ناصرين و امّا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم و الله لا يحبّ الظالمين ، ذلك نتلوه عليك من الآيات و الذكر الحكيم) *

تقدم في الآية السابقة ان حكم الله على نفسه جعل اتباع الحق فوق الكافرين و هذه الآية تفصيل لذلك المجمل فقد حكم الله على نفسه ان يعذب الكافرين عذابا شديدا امّا في الدنيا فبطور قضية مهملة للوجدان بأن الكافر على عمومه لم ينفذ فيه هذا الوعد في الدنيا بل الكثيرون منهم عاشوا فيها عيشة عادية كما يعيشها الباقون و لو ان كل كافر يعذب في الدنيا على كفره عذابا شديدا لعدم الكفر بالمرة من عالم البشرية او لكان اقلّ ٠

هذا مشيا مع الظاهرة الحيوية الناقصة المنهارة فان المشى البشرى منذ بدئه لمّا اخذ البشر فيه طريق الأنحراف الذى هو بملاكه طريق الكفر بالمبادء الصحيحة عاش عيشة ساقطة يكثر فيها الظالم و المظلوم و الغابن و المغبون و تطّرد فيها المفاسد من استبداد الحاكم بالمحكوم واثارة الفتن من مظلمى الضمائر والحروب من محبّى الغارات و النهب و السلب من هواة القلاقل و الأضطرابات هذا ما كان عليه البشر القديم .

و زاد الجديد على ذلك الوانا اخرى من التهتك و الخلاعة و الأستهتار الانتقاض على كل عادة و خلق و ادب اجتماعى و مثل هذه الحياة اذا تدبرها العاقل وجدها عذابا و اىّ عذاب فدنيا المنحرفين مع التوجه اليها دنيا محكوم عليها بالعذاب كما نطقت الآية الكريمة الاّ ان الناس لمّا أنسوا بالحياة على هذه العادة لم يعودوا يستغربونها بل حسبوها حياة عاديه و رأوا غير المعتاد منها مالوعمّ الكون تضارب حربى عام او طاعون جارف او فيضان واسع النطاق مدهش و نظير ذلك .

هذا كله فى حكم الله بالعذاب على الكافر فى الدنيا و امّا فى الآخرة فذلك مما لا شك فيه لان الآخرة دار الجزاء ،وقد حكم تعالى نفسه ان يوفى المؤمنين اجور ايمانهم و اعمالهم الأيمانية تماما بلابخس فان الله لا يحب الظالم الباخس .

ذلك ،اشارة الى ماأشعر الله نبيّه به من بعض اخبار عمران وامرءته و زكريا و طلبته و عيسى و مريم نتلوه عليك و نعلمك به اذلا علم لك بشئ من ذلك قبل تعليمنا من الآيات الدالة على صدق نبوّتك لانك اخبرت عمّا لاسابقة لك به و انّما جائك علمه من طريق القرآن الذى هو سنادك

فى دعوى النبّوة و من الذكر الحكيم الذى اخذ على نفسه ان يوقف الناس على الحقيقة ،و تركيب الآية يكون بهذا الترتيب ذلك حال كونه متلوا عليك من الآيات و الذكر الحكيم فكلمة ذلك مبتدأ و نتلوه عليك حال و من الآيات و الذكر الحكيم خبر ٠

* (انّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ،الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين ،فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم و نساءنا و نسائكم و انفسنا و انفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) *

جهة الشبهه بين عيسى و آدم ان كلاّ منهما كان عن غير أب لكنّ عيسى اندفع عن رحم و آدم لم يتكون فى رحم انثى و لكنّه صوّر من طين و نفخ فى مجسمته فكان حيا سويّا و ما اخبرناك به عن عيسى و انه لغير أب و آدم و انه مخلوق من طين و انّك نبّى يجب اتباعك هو الحق الثابت فى الواقع فلا يتخالجك شك فى شىء من ذلك و كل من خاصمك فى هذا الحق وهو انك نبىّ مرسل من ناحية الله و ان كل مامعك من العلم فأنما هو وحى من الربّ فباهله فأنّك على حق وهو على باطل و انت منتصر وهو منكسر و الذين تباهل بهم هم ابناؤك و ليس لرسول الله (ص) ابناء غير الحسن و الحسين فهما ابناه حقيقة كما جاءت بذلك آثار متواترة ٠

وكونهما حينذاك قاصرين فى السنّ لا اهمية له بعد اصطفاء الله لهما كما اصطفى عيسى و انطقه وهو فى المهد ،و البلوغ ان يكن شرطا

ففى ترتب التكاليف الشرعية على عاتق الانسان وليس هو شرط كمال .

ونساؤه هى فاطمة ابنته لأطباق اهل الأثر ان الانثى التى اخرجها معه للمباهلة هى بنته فاطمة ليس غير و كفى بذلك فضلا و علو شأن وقد صّح فيها عن ابيها آثار لها اهميتها و من بعض ذلك انها سيدة النساء و ان الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها ، و أنفسه هو على فقط للأجماع على انه لم يكن معه من الرجال غير علىّ ابن ابى طالب وليس من المعقول ان يراد بالأنفس فى الآية نفس رسول الله فان نفس الانسان القائمة بين جوانحه لا تقع مدعوة له و لعلىّ من الفضل ما لا يحصيه قلم كاتب ، و اطلاق النفس عليه من لسان الرسول جاءت به طوائف من الآثار ذكرنا جملة منها فى كتابنا نتائج الفكر فى ضمن فصول عديدة .

و هذه الآية من الآيات الواضحة الموجزة لفضل آل محمّد على غيرهم كفضل محمد (ص) على من سواه فأن ناسها المذكورين فيها ابناء محمّد و نساء محمد و نفس محمد وانهم الصخرة الناطحة لأوعال الكفر و الركن المهيب الذى قلع قلوب سادة النصارى فلم يقدموا على مباهلة نبّى الاسلام من اجل هؤلاء .

كما انّ هذه الآية اثبتت الحق الواضح للنبّى بامتناع سادة خصومه عن مباهلته واقرارهم بالخزى و دفع الجزية له و لو كان الأمر على خلاف ذلك لباهلوه و احرزوا كيانهم و سلطانهم بين اتباعهم خاصة و الناس عامّة .

كما ان فيها برهانا ساطعا على تيقن النبّى من نفسه و توثقه من صدقه و جلاء الأمر له بنزول العذاب على مناوئيه و سلامته هو و ذويه و الاّ لما عرّض بنفسه و بأعزّ الناس عليه وهو من الوضوح بمكان .

وجاء فى الآثار ان وفد نجران وفيه السيد و العاقب قالوا لرسول

الله هل رأيت ولداً من غير ذكر فأنزل الله ان مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم الى تمام الآيات السالفة فقرءها رسول الله عليهم و دعاهم الى المباهلة فاستنظروه الى صبيحة غد فلمّا رجعوا الى رحالهم قال لهم الأسقف انظروا محمدا فى غد فأن جائكم بولده و اهله فاحذروا مباهلته و ان جائكم بأصحابه فباهلوه فأنه على غير شئ فلمّا كان الغد جاء النبّى آخذا بيد على و الحسن و الحسين يمشيان بين يديه و فاطمة تمشى خلفه و خرج النصارى يقدمهم اسقفهم فلمّا رأى النبّى قد اقبل بمن معه سأل عنهم فأجيب بنسبتهم منه و تقدم رسول الله فجثا على ركبتيه فقال الأسقف جثا و الله كما يجثو الأنبياء للمباهلة فكعّ و لم يقدم على المباهلة فقال له السيد لم لاتقدم الى مباهلته قال انى لأرى رجلا جريئا على مباهلتنا و أخاف ان يكون صادقا ولئن كان كذلك لم يحل علينا الحول و فى الدنيا نصرانى يطعم الماء فقال الأسقف يا ابا القاسم انّا لا نباهلك و لكن نصالحك على ما نقدر عليه فصالحهم رسول الله و كتب بذلك كتابا .

* (انّ هذا لهو القصص الحقّ و مامن اله الاّ الله
و ان الله لهو العزيز الحكيم فأن تولّوا فان الله
عليم بالمفسد ين) *

القصص هو القصّة وهو الأتيان بالحد يث على وجهه بدون زيادة او نقيصة ومنه اخذ القصاص ،اى ان ما تقدّم من حالات آل عمران و آل زكريّا هوالحقّ الثابت و انّ ما يسوقه الأسرائيليون فجلّه خرافات وانحرافات وخلاف واقع و مافى العوالم من اله الاّ الله وحده فليس عيسى بآله و لا الأحبار بآلهة و ليس لهؤلاء فى عالم التكوين والتشريع شيء و ان الله لهو العزيز الذى لا يغالبه احد و تعدد الآلهة يقتضى المغالبة ،الحكيم الذى يوقع الأشياء فى مواقعها على وفق واقعها فان تولىّ اهل الكتاب عن رسم هذه الحقيقة فأنهم مفسدون متحيزّون يحاولون اهدافا اخرى وراء الدين الحق و الله بهم عليم ·

* (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا
و بينكم الاّ نعبد الاّ الله و لانشرك به شيئا
و لا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله
فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) *

تعرّضت الآية لطرح آخر فى قبال المباهلة لكيفية المخاصمة و المحاجّة ابانه ربّ العزّة لنبّى الاسلام حتى يقطع به اهل الكتاب و سياقه بهذا الترتيب و هو انكم يا اهل الكتاب بطبيعة عنوانكم تدعون عبادة الله و اتباع الرسل المبعوثين من لدنه ولا شك ان رسلكم انما دعوا لله وحده و لم يدعوا لأنفسهم و لا لموجودات أخر و الاّ فليسوا بأنبياء و هذا الهدف مشترك بيننا و بينكم فنحن لا نقول الاّ بالله وحده و لا ندعوا الى احد سواه و لا يجوز لنا ان يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فعلام نراكم تألهون عبيد الله مثل المسيح وعلام تشركون معه غيره فتعتبرون احباركم مشرّعين يحلّون و يحرّمون لكم و عليكم من أكياسهم ·

فان وحدّتم الله تعالى و اعتبرتم عيسى و العزير وغيرهما عبادا له و نزهتموه ممّا لا يليق بقدس صانع العالم علة كل العلل و اقتصرتم فى التكاليف على ما شرّعه هو لعباده فنحن و انتم على ملة واحدة وان اعرضتم عن هذه الخطط المستقيمة و استمررتم على انحرافاتكم وعقائدكم الفاسدة فى الله و رسله و تشريعاته فاشهدوا بأنّا مسلمون لله وحده آخذون تكاليفنا عنه وحده ولا نعتقد فى انبيائنا الاّ كونهم عبيدا لله و رسلا من عنده مع كمال تنزيهنا لهم عن الموهنات ·

فان قيل اذا استجاب اهل الكتاب لنبى الاسلام فلم يعبدوا الاّ

الله و لم يشركوا به شيئا ولم يتخذ بعضهم بعضا اربابا من دون اللّـه فهل يكتفى نبى الاسلام منهم بذلك قطعا لا يكتفى منهم الاّ بأن يكونوا مسلمين مثل جماعته الذين آمنوا به و تعبّدوا بتشريعات القرآن و تشريعاته غير ماعندهم من شريعة قلنا ما عندهم من شريعة فعلية ليس هو من الشرع الواقعىّ لان الأديان فى امهّات الفروع الفقهية لا تختلف قطعا فالزنا و اللواط و شرب المسكرات و اكل الربا و الغيبة و النميمة لا يعقل ان تكون مباحة فى دين من اديان السماء نعم الاختلافات التى يمكن تحققها فى الأديان ما كانت على هوامش التكاليف و مثل هذه لا تقف حجر عثرة امام عاطفة المتدّين بدين سابق اذا دعى الى اعتناق دين لاحق تعضده المعجزات ٠

* (يااهل الكتاب لم تحاجّون فى ابراهيم وما انزلت التوراة و الأنجيل الاّ من بعده افلا تعقلون ، ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم و اللّـه يعلم و انتم لا تعلمون) *

هذه الآية نزلت ردّا على اليهود الذين ينسبون اليهودية لأبراهيم و النصارى الذين ينسبون النصرانية له و كلّ مادة اطلاع اليهود عن ابراهيم هى التوراة و مادة اطلاع النصارى عنه هى الاناجيل و كلا الكتابين انما تعرضا لاسمه و لم يتعرضا لما كان عليه من شريعة ٠

و لما كان هذا الذى ذكرناه رصيد القضية فلجهم الله تعالى بقوله يا أهل الكتاب من يهود و نصارى لم تحاجّون فى ابراهيم فيقول

اليهود ان دينه اليهودية و يقول النصارى ان دينه النصرانية وما انزلت التوراة على موسى و الأنجيل على عيسى الآ من بعد وفاة ابراهيم بقرون و ليس فيها ما يتعرض لطريقته افلا تعقلون ان المحاجّة انما تكون بعد المعرفة لمادة الدليل و كيفية صوغه)ها انتم هؤلاء يا اهل الكتاب حاججتم فيما لكم به علم وهو معرفتكم بشخص ابراهيم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم وهو شرعه و دينه و الله يعلم مجارى الحق و انتم لا تعلمون ذلك و لأجل جهلكم هذا تغرقون فى الضلال .

فأن قيل ما المنظور باليهودية و النصرانية اللتين ينسبانهما اليهود و النصارى لأبراهيم ويبرّءه الله منها قلنا لا شك ان المنظور بهما ماهو دارج عندهما من اليهودية المدلسة و النصرانية المحرّفة لا الدين الذى كلّف موسى بتبليغه و الملة التى أمر عيسى بنشرها فان جميع ذلك حق نعم فى هذا الدين اضافات و منسوخات شرّعها الله لمصالح مؤقتة و ارتفعت لما انتهى امدها فأمثال هذه التشريعات لا يجوز التعبد بها خارج وقتها و بعد نسخها .

* (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا و لكن كان حنيفا مسلما و ما كان من المشركين ، انّ اولى الناس بابراهيم للذّين اتبعّوه و هذا النبّى والذين آمنوا و الله ولىّ المؤمنين) *

هذه الآية شارحة للآية السابقة جاهرة بأن ابراهيم لم يكن على هذه اليهودية التى تجسّم الله و تجعل العزير ابنا له و تنسب النسب الباطلة اليه و الى انبيائه و لا روحه متشبعة بما تشبعت به الروح النصرانية من بوائق هى بعيدة عن السماء و ربّ السماء و لكن كان ابراهيم مائلا عن الباطل الى الحق مسلما قياده لربّه و للأدلة الساطعة القائمة على الحقائق و ما كان مشركا بالله كما اشرك اليهود والنصارى به .

ثم ابان سبحانه لليهود و النصارى انه لا قربى بينكم و بين ابراهيم كما لا محبة بينكم و بينه لان قريب الانسان من كان على شاكلته حاملا لروحيته ما شيا على طريقته و انتم بما تدينون به اعداء له فقربى ابراهيم و ناصروه اولئك الذين اتبعوه فى زمانه و شيّدوه و ايّدوه ، و قريبه ايضا هذا النبّى الذى يدعو الى ما كان يدعو اليه ابراهيم من التوحيد والحنيفية و هكذا الذين آمنوا ايمانا واقعيا بالله كما ان الله هو صديق المؤمنين و وليّهم و ناصرهم و هم ايضا قرباه واولياؤه فان القرابة قرابة الارواح المؤمنة و العقائد الصادقة و المشارب النزيهة .

* (و دّت طائفة من اهل الكتاب لو يضلّونكم و ما يضلّون الاّ انفسهم و ما يشعرون) *

و المراد بالطائفة من اهل الكتاب اولئك المعاندون منهم العريقون فى الخبث المتأصلون فى الغواية الذين لا يهمّهم الاّ اثارة الغبرة و هيجان الفتنة و معنى اضلالكم صرفكم عن دينكم الذى انتم عليه وهو الأسلام ليضعفوا شوكة النبىّ وهؤلاء فى محاولتهم هذه لا يريدون الاّ اركاس انفسهم فى الضلالة و اغراقهم لها فى الموبقات و ما يشعرون بذلك الشعور الواقعى و ان طفح لأنفسهم انّهم اقوياء الشعور من ناحية تكديرهم الوضع و تعويجهم الافراد البسطاء ٠

و ملاك الآية ان المتسفلين الذين يقدّمون نهمتهم و شهوتهم و خبث ضمائرهم على عقولهم ومشاعرهم دائما يكونون حريصين على تكثير امثالهم لتخفّ ويلاتهم فى انظار الناس و القبيح فى نفسه اذا كثر خفّ قبحه لكن امثال هؤلاء يكونون مجرمين من ناحيتين حدّ الاقل جرم ارتكاب الخطيئة فى نفسها و جرم اشاعتها و تكثيرها بين الناس والجرم الثانى اعظم بكثير من الجرم الأول فالضال فى نفسه المغوى المضّل لغيره مرتكس فى الضلال مكررا و ان حسب لنفسه حساب اهل الذهنيات القوية و لكنها فى الشيطنة لا فى جلب الخير و هذا هو أخسّ افراد الشّر ٠

* (يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و انتم
تشهدون ، يا اهل الكتاب لم تلبسون الحقّ
بالباطل و تكتمون الحقّ و انتم تعلمون) *

جاءت هذه الآية تأنيبا لهؤلاء العتاة و جلبا لهم الى الصلاح و ردعا لهم عن ملازمة الباطل و ارادة للأقلاع منه و كلمّا جاء فيها من استفهام فهو انكارى شديد اللهجة و لا شكّ ان العاقل يستكثر عليه الجحود لما تتحقق منه حواسه الظاهرة و الباطنة و يستكثر عليه الغشّ و التدليس بداعى الخبث المجرد و العصبية الملعونة و يستكثر عليه كذلك كتمان الحق ارضاء لشهوة عصبية لا يفهم داعيها المعقول .

و لم يكفر اهل الكتاب بآيات الله مع معاينتهم لها ولم يلبسوا الحقّ على اهله و طالبيه كما انهم لم يكتموا الحقّ لان فى ذلك ضررا عليهم بل كل الداعى الذى كان يدعوهم هو نخوة التعصب لا اكثر و هذه الروح جاهلة فاسدة لا توزن بميزان اصلا .

و الآية الأولى فيها تأنيب شديد لأولئك الذين لم يتركوا الأيمان بالله و مع ذلك اعرضوا عن مقرراته و اطاحوا بكرامة واجباته و محرماته و خلعوا انفسهم من ربقه تكاليفه ومشوا مع ظاهرة الألحاد فى الاعمال الحيوية كما هو شيمة المؤمنين بالله فى هذه القرون الأخيرة اولئك الذين تركوا الصلاة و الصوم و الحجاب و كرعوا فى المسكرات و تبادلوا فيما بينهم الرشوة و الخدمة بنفع الملاحدة و زوّجوا الكفرة و تزوجوا منهم و انغمسوا مع كل شئ من اشيائهم وعدّوا الألتحاق بركبهم من موجبات الحظوة و السعادة .

و تفيد الآية الثانية التنديد باؤلئك المدلسين فى العقائد الذين

يتظاهرون بالأيمان حتى لا يستوحش منهم المؤمنون ثم يتسربون من هذا النفق المظلم الى دسّ السمّ فى العسل و تحطيم مبانى الايمان بالتهريج و تشويش الأذهان ليلفتوا المؤمنين عن دينهم بالغمز فيه والدسّ فى مبانيه ·

* (و قالت طائفه من اهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار و اكفروا آخره لعلّهم يرجعون ، و لا تؤمنوا الاّ لمن تبع دينكم قل انّ الهدى هدى الله أن يؤتى احد مثل ما أوتيتم او يحاجّوكم عند ربكم قل انّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء و الله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء و الله ذو الفضل العظيم) *

هذه الآيات فى ترتيب سياقها خفاء وقد اضطربت اقوال المفسّرين فيها و الذى يلوح ان ترتيب سياقها يكون بهذا اللون و قالت طائفة من اليهود وهم المعنيّون هنا من كلمة اهل الكتاب لان المناوئين القريبين من معارضة المسلمين و التبييت لهم هم اليهود لكثرتهم حول مركز الدعوة الأسلامية بخلاف النصارى فأنهم بعيدون فى المراكز عنهم و المراد بهذه الطائفة هم الخبّث المرموزون الذين همّهم اثارة الفتنة بشتّى انواعها اطاحة بكيان المسلمين و المنظور بقالت طائفة قال بعضهم لبعض مهما أستطعتم فنافقوا و اظهروا الايمان بما يدعو اليه محمد (ص) اوّل النهار و اكفروا بما آمنتم به آخره ليكون ايمانكم بذلك و كفركم به مدعاة لتزلزل ضعفاء العقائد و البسطاء بأنّ هؤلاء لم يكفروا حتى وجدوا فى هذا الدين ما يريبهم به و لذلك انكفأوا عنه ·

ثم توّجه الله للمؤمنين محذّرا لهم من كل احد الاّ من المؤمن الموثوق بأيمانه فان الهدى الذى هدى به المؤمنون بمحمد هو هدى الله و الاغيار المدعون للهدى خارج الدين الاسلامى فانما يدعون أمرا بعيدا عن الواقع و ناهيا لهم أن يصدّقوا أن يؤتى احد مثل ما اوتوا من الدين القويم البعيد عن الموهنات و الانحرافات او ان يؤمنوا بأن اليهود سوف يحاجّوهم غدا بين يدى الله و يحكموهم باتباعهم محمدا و انتباذهم عن اليهودية فقد جاء فى الأثر ان اليهود قالوا انّا نحاجّ عند ربّنا من خالفنا فى ديننا فان اليهود انّما يطيّرون هذه الرموز لأيجاد التخاذل بين المؤمنين فقل فى قبال ذلك يامحمّد ان الفضل الذى هو النبّوة التى أوتيتها و الدين القويم الذى أرسلت به بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده امّا استحقاقا اذا كانوا مخلصين له طالبين منه ما يسعدهم و امّا تلطفا بعباده بتهيأة كل ما يضمن لهم السعادة و بناء آخرة و الذى يضمن سعادتهم هو اخراجهم من ضلال الانحرافات الى نور التوجيهات الصحيحة وهى توجيهات الاسلام بعد غوايات اليهودية و ضلالات النصرانية و الله و اسع فى عطاياه عليم بمنويات مخلوقاته الخبيث منهم و النزيه يختصّ برحمته من يشاء من عباده لا اعتباطا صرفا و لكن لدواعى موزونة اسلفنا بعضا منها فى شتات بحوثنا حول امثال هذه الكلمات و الله ذو الفضل العظيم على كل احد .

و على هذا الترتيب الذى اسلفناه يكون محلّ أن يؤتى مفعولا به لفعل محذوف تقديره ولا تصدّقوا معطوفا على قوله و لاتؤمنوا ومتصيدا منه و يكون اويحاجّوكم معطوفا على أن يؤتى منصوبا بالفعل الذى نصب أن يؤتى

و تفيد الآية أنّ الأنسان يجب عليه ان يتثّبت من الشىء حتى يقبل

عليه كما يجب عليه ان يتثبّت ايضا حتى يتجافى عنه و ان الاقبال من غير تثبّت نتيجته عدم الاستمرار فى العقيدة و سرعة الأنهيار لأدنى تشكيك يحصل و هكذا الأدبار عن الشىء يكون حراما اذا لم يكن عن رصيد قطعي كما تفيد الآية انه لا يجوز للأنسان المؤمن بمبدأ ان يستنصح من ليس على مبدءه و دينه فان الانسان المجانب فى العقيدة اذا لم يكن عدوّا لا يكون صديقا اصلا فموالاة المؤمنين بالله المصدقين بنبى الاسلام للكفرة و الملاحدة و المنحرفين موالاة تجرّ الى ندم و فتح طريق للعدوّ يتسرب منه الى افساد دين هذا المؤمن الذى اعتقد به و رآه اخا صادقا و فيّا ٠

* (و من اهل الكتاب ان تأمنه بقنطار يؤده اليك و منهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الاّ ما دمت عليه قائما ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا فى الأميّين سبيل و يقولون على الله الكذب و هم يعلمون ، بلى من اوفى بعهده و اتقىّ فأن الله يحبّ المتقين) *

لاخصوصية فى اهل الكتاب بأن بعضهم يؤتمن على قنطار و بعضا منهم ليس محّلا لأمانة دينار فأن هذا المعنى موجود فى البشرية كلّها و انما خصّ الله اهل الكتاب بالذكر فى منطقة هذا المعنى لهذه النكتة وهو انّهم كانوا يقولون ليس علينا من الله سبيل فى غير اليهود فكل من لم يكن يهوديا فأمواله حلال لنا بأى نحو استوفيناها بأمانة ام بغيرها و يرون ان ذلك من احكام دينهم فردّ الله عليهم بأنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون انهم كاذبون فى هذه النسبة ٠

و هذا الأعتزاز بالذات الذى منى به اليهود منى بـه اغلب المتعنونين بأنسابهم و مكاناتهم الاجتماعية فأنّهم يرون ارتكاب الجريمة شبيه مغفور لهم فيها وغير مستكثر عليهم امّا اغترارا بحديث النفس و امّا اغراقا فى الجهل ·

و الأتيان ببلى الجوابية اشعار بنفى السابق عليها بمعنى ان الله لم يجز الخيانة و لم يأمر بها و لا يحبّها من كل احد كائنا من كان، بلى من اوفى بعهده و لم يغدر و ادّى امانته و لم يخن و اتقىّ ربّه فى ذلك و لم يتهجم فان الله يحبّ المتقين وهم الأوفياء لا الخونة ، و القنطار: هو المال الكثير و يقابله الدينار مقابلة القليل للكثير و المراد بالأميّين هنا غير اهل الكتاب المعهودين و جاء فى الأثار عن رسول الله(ص) انه قال ثلاث من كنّ فيه فهو منافق و ان صلّى و ان صام و زعم انه مؤمن من اذا حدّث كذب و اذا وعد اخلف و اذا ائتمن خان ·

* (انّ الذين يشترون بعهد الله و ايمانهم ثمنا
قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم
الله و لا ينظر اليهم يوم القيامة و لا يزكّيهم
و لهم عذاب أليم) *

المراد بعهد الله كلمّا عهد به الى المكلفين من تكاليف و آداب لازمة و هدف الآية ان كل مكلّف يتاجر بدينه فيقدّم المادة اذا تعارضت هى و الدين بأن يحلّ الحرام او يحرّم الحلال او يخون او يحلف كاذبا تحصيلا للمادّة كان بحاجتها ام لم يكن فهو لا نصيب له فى الآخرة و لا يكلمه الله يوم القيامة اهانة له و استهانة به و لا ينظر اليه بعطفه و رحمته و لا يغمض عن ذنوبه فيزكّيه و مع ذلك كله له عذاب مؤلم

يتكافأ هو و جرائمه ٠

* (و ان منهم لفريقا يلون السنتهم بالكتـــاب
لتحسبوه من الكتاب و ماهو من الكتاب و يقولون .
هو من عند الله و ماهو من عند الله و يقولـون
على الله الكذب و هم يعلمون) *

الضمير فى منهم يرجع لأهل الكتاب يعنى انّ فى اهل الكتاب اناسا مرموزين كفرة فى البواطن يتاجرون فى العقيدة فيحذفون من الكتاب ما هو جزء من حقائقه و يضيفون اليه ماهو اجنبى عنه ليمشّوا بذلـك مقاصدهم الفاسدة و منوياتهم الزائفة و ينسبون كل ماهو من تزويرهم الى الكتاب السماوى و ماهو منه و الى الله و ماهو من عند الله ويتقولون على الله سبحانه ماليس بقائله وهم يعلمون انّهم مزوّرون كذبة دجالون مردة و لىّ اللسان تقليبه و طيّه و فتله ٠

* (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب و الحكم و
النبّوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون
الله و لكن كونوا ربانيّين بما كنتم تعلمّون الكتاب
و بما كنتم تدرسون ، و لا يأمركم ان تتخذوا
الملائكة و النبيين اربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ
انتم مسلمون) *

طبيعيا غير معقول أن ينتخب الله من عباده نبّيا و وسيطا بينه و بين خلقه فى كافة امور دينهم و دنياهم ثم ينقلب هذا النّبى داعيا لعبادة نفسه مكذبا امر ربّه ذلك لا لأنّ البشر لا يتأتّى منه الضرر بل لأنّ الله لا ينتخب للرّسالة الاّ من يعلمه مخلصا له أتمّ اخلاص مقرّا بعبوديته ابلغ اقرار مفنيا لنفسه فى سبيله و بعد أن يكون فى ذاته كذلك يعصمه حتى لا تختلج فيه ايّة نفس و لا يحتمل فى حقّه ادنى احتمال انحرافى .

فمعنى ما كان لبشر انه يستحيل فيه ذلك وهو جمع النقيضين من كونه نبيا مرسلا منتجبا و كونه داعيا للناس الى عبادة نفسه دون اللّه نعم من لازم هذا المنتجب و من ضرورة و ظيفته ان يأمر الناس بتصيير انفسهم ربانيّين اى منسوبين للربّ فى أخلاقهم بأن يتخلقّوا بأخلاق الله و يترسموا خطواته فيما دعا اليه من ملازمة الفضيلة و مجانبة الرذيلة

و هذا المجمل هو مفاد ماعرفه المتشرع من تعلّمه كتاب الله وتعليمه ايّاه لمن يجهله و مفاد مادرسه على العلماء الراسخين و كذلك من لازم النبّوة ان لا يجيز لعباد الله أن يتخذوا الملائكة و الأنبياء أربابا مع الله و لا اربابا من دونه واذا أجاز ذلك لهم فقد اجازلهم الكفر

بخالقهم فان اتخاذ غير الله معه او من دونه كفر صريح وعباد الله مسلمون بالفطرة و بدعوة الانبياء لهم الى الاسلام ·

و هذا الآية فيها ردّ واضح فاضح لليهود و النصارى و كل من كان على منوالهم من تابعى شرائع السماء بالأنتساب اليها فان اليهود الذين يقولون عزير ابن الله لا يخلو قولهم هذا من لزوم نسبة شائنة امّا الى العزير مع اعترافهم بنبّوته وامّا الى انفسهم ·

و العزير النّبى تتناقض دعواه البنوّة لله و ادعاؤه النبوّة عن الله المبرّأ عن الجسمية و لوازمها و المادة و لواحقها فهو مع ادعائه النبوّة الصادقة يستحيل عليه ان يدعى البنوّة من الله و مع ادعائه البنوّة لله فهو ليس بنبّى بل دجّال متحيز يريد من هذه النسبة ان يستغوى جملة من عباد الله ليعيش على اكتافهم اذا فادعاء بنوّة العزير من الله خرجت من اكياسهم فقط و لا شك انها توجب كفرهم و كذلك القول فى النصارى و ادعائهم ان المسيح ابن الله ·

قيل فى مورد نزول الآية وجوه منها انّ رجلا قال يارسول الله نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال لا ينبغى ان يسجد لأحد من دون الله و لكن اكرموا نبيّكم و اعرفوا الحقّ لأهله ·

* (و اذ أخذ اللّه ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب و حكمة ثم جائكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به و لتنصرنّه قال ، أقررتم و اخذتم على ذلك اصرى قالوا اقررنا قال فاشهدوا و انا معكم من الشاهدين : فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) *

احسن ترتيب اتصوره لهذه الآية بهذا اللون و اذ اخذ اللّه ميثاق النبيين للذى آتيتكموه من كتاب و حكمة يجب عليكم ابلاغه و ايفاؤه للناس ليسعدوا و تتمّ الحجة عليهم و كذلك اخذ اللّه ميثاق النبيّين متى جائكم رسول مصّدق لما معكم لتؤمننّ به و لتنصرنّه فما الموصولة المسبوقة بلام الابتداء من قوله لما آتيتكم من كتاب مبتدأ خبره ماقدرناه من قولنا يجب عليكم ابلاغه و ايفاؤه للناس و هذه الجملة الخبرية بيان للميثاق المأخوذ من النبيين و كذلك قوله ثم جائكم رسول بيان للميثاق ايضا فيكون عطفا على الجملة الخبرية المذكورة .

و عليه فمفاد الآية يكون هكذا اخذ اللّه سبحانه من كل نبيّ اختاره للوساطة بينه و بين خلقه ميثاق ابلاغ الرسالة و ايفاء النبّوة و تعليم الخلق بما يريده اللّه منهم لصالحهم كما اخذ ميثاقه من كل نبّى أن يبشّر قومه و الجيل الذى هو فيه بتصديق كل نبّى يأتى بعده فيؤمن به الشاهد متى صادف زمان بعثته و يوصى به اهله و من يسمع منه ان لم يصادفه .

و لا شك ان كل نبّى لاحق مصدق لكل نبّى سابق و لجميع ما جاء به و ان طرأ على بعض ما جاء به نسخ فان المنسوخ فى ظرفه حكم اللّه

يجب التصديق بكونه من الله و ان تعقبه النسخ فأيمان الرسول السابق برسالة الرسول اللاحق تصديق بما وعد الله به و هكذا الآمة السابقة وجودا على رسالة الرسول اللاحق زمانا معنى ايمانها تصديقها التقديرى به و الفعلى بوعده تعالى .

و نصرة النبى للنبى تثبيت واقعيته فى القلوب سابقا كان ام لاحقا و هكذا نصرة المؤمنين ، و الأصر هو العهد و قالوا اقررنا اى كافة الأنبياء اقروا الله بالمواثيق المأخوذة منهم قال فاشهدوا على انفسكم و انا معكم شاهد عليكم فمن تولى و حاشا الأنبياء ان يتولوا عن ذلك و انما الشرطية لبقية المكلفين ،فأولئك هم المنحرفون عن عهود الله و مواثيقه و الفسق هنا قد استعمل بمعناه اللغوى وهو الميل والأنحراف لان الفسق بمعناه الآنف يوجب كفرا .

هذا وقد تكون الآية تبشيرا بنبوة نبى الاسلام عليه السلام على الخصوص او انها و ان كانت من مصاديق الكلية الأان لمصداقيتها ظهورا و بروزا و يستدل على ذلك بأن الألف و اللام فى النبيين تفيد العموم لدخولها على الجمع و بعبارة اخرى الجمع المحلى بأل يفيد العموم و ليس بعد محمد نبى فيكون هو الرسول الجائى المصدق لما معهم فبقية الانبياء هم المقرون على انفسهم بالأيمان به و نصرته و هم الشاهدون على انفسهم بذلك و المشهود على شهادتهم بشهادة الله و ان كل من يتولى عن قبول رسالة رسول الاسلام فهو فاسق عن دين الله كافر به و بأنبيائه .

و تفيد الآية ان الله يريد بسلاسل البشرية كلها ان تكون بمنزلة حلقة مفرغة لا يعرف اين طرفاها لمزيد التشابه الأخلاقى الأيمانى بين عامة افرادها سواء منهم الأبيض و الأسود و العربى والعجمى والشرقى

و الغربى و القديم زمانه و الجديد حتى كأنك لا ترى فجوة بين فرد وفرد و مهما باعدت بينهما الاعتبارات فى العنصر و اللسان و البلاد والزمان وحتى ترى الفرد يعترف بأخوّة من لم يأت الى الوجود بعد اعترافا تقديريا مشفوعا بكمال الاخلاص و الصداقة و الذى اتى و سبقه بأجيال و اجيال النبّى بالنبّى و الأمة بالأمة و بالأنبياء و لا يعقل فى مقام تصوير الوئام و الوحدة و المؤاخاة معنى اعلا من هذا المعنى و لهذا يجب ان يعتبر الدين اعلا مقياس فى النزاهة وعدم التحيّز .

* (أفغير دين الله يبغون و له اسلم من فى السموات و الأرض طوعا و كرها و اليه يرجعون : قل آمنّا بالله و ما انزل علينا و ماانزل على ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب والأسباط و ما اوتى موسى وعيسى و النبيّون من ربهم لا نفرّق بين احد منهم و نحن له مسلمون : و من يبتغ غير الأسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) *

قوله تعالى افغير دين الله يبغون اخبار عن كل من يدين بغير دين الاسلام كتابيا كان ام غير كتابى بصورة استفهام انكارى دعا الى المجىء به انجراف الناس مع الاهواء بعنوان انها نظام حياة لهم فى حال ان اكثرها مضلّة و مغواة و تمايل الى الشهوات العمياء و ميول النفس الرعناء و ينطبق هذا المعنى انطباقا ظاهرا فيما عليه هذه العصور التى استبدلت بالتمايلات عن كل ما ينسب للسماء من رسالات سواء فى ذلك غثّها و سمينها و لئن تعلل القوم بأنّ ما يلوح لنا من

فعل المنسوبين للدين تكثر فيه الخرافات والمجازفات فقد كان من لازمهم تحرّى الحقائق فيه فان فيها بلغة للعاقل .

وفى الخلاصة تعنى الآية ان دين الله واحد لا متعدد اذ لا معنى لتعدد الأديان مع كون الهدف ترسم مافى متن الواقع الذى يخبر عنه الله لانه علاّم الغيوب واذا كان دين الله واحدا فكيف يبغون غيره وهنا كأن قائلا يقول ماهو رصيد الدين حتى نتعبد بما يقرره لنا ويخططه من نظام لحياتنا فقال تعالى ان رصيد الدين ذلك المبدأ الذى انقاد له كل مافى الكون من هامد ومتحرك طائعا كان ام متمردا لأنّ حصاة معلوليته تلجأه الى علة تقوم بكيانه ولولا العلة المقوّمة لما كان وقام فكينونته وقيامه بذاته دليل على وجود العلة التى قامت به .

وكما انّه هو المبدأ كذلك المعاد لان المادة ومهما طال عمرها تتلاشى صورها وتتبدل غرائزها وانما يلبسها صورا اخرى مقترنة بالحياة ام بدونها فاعلها الأوّل اذ كل فاعل سواه مفعول له ومعلول فأذا ثبت الرصيد وقام البرهان على ثبوته ووجوده فقل يامحمد لكافة من يعقل آمنّا بالله الذى هو الرصيد المتحدث عنه وآمنا بما أنزل علينا من كتاب وهو القرآن وكذلك بما انزل قبلنا على ابراهيم واسماعيل واسحاق بن ابراهيم ويعقوب بن اسحاق وأسباط يعقوب وما أوتى موسى بن عمران من التوراة وعيسى بن مريم من الأنجيل وما أوتى النبيّون بالأسر من نظم ودساتير سماوية لانفرق بين احد منهم لأنّ هدف الجميع واحد وهو الدعوة الى الله ونحن مسلمون منقادون لله .

ودين الله الواحد الذى أشرنا فى صدر البحث اليه هو الأسلام لجامعيته لأشرف نظام وابلغ دستور واعلا ادب وبعده عن كل موهن فمن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه لأنه مبتدع ولا قيمة لمبتدع فى

قبال الله سبحانه وهو فى الدنيا و الآخرة من الخاسرين ، امّاخسرانه فى الدنيا فكما نراه فى كل متحيّز عن الاسلام و دنياه التى يعتبرها دنيا مؤفه ليست بسالمة و امّا خسارنه فى الآخرة فلأنه مخالف للّه و الآخرة ملك خاص لله لا يشركه و حتى بحسب الظاهر فيه احد ومخالف الله لا يلقى عنده وجها .

و بالأخرة غير مبتغى الاسلام اما مبتغى واحد من سائر الأديان فان فى مبتغاه من الخرافات الشىء الكثير على مقولة التشكيك فما من نزعة دينية قديمة او حديثة الاّ و تعتورها الخرافات بطور مدهش و امّا مبتغى الاديان القائمة على الاحزاب و الآراء الشخصية فتلك تتموج بحسب السوانح ولاقرار لها على نوع خاص .

امّا دساتير الاسلام و آدابه فهى بمقتضى العقول السليمة من ارقى مايمكن التعرّف عليه و العمل به و مباعدة الأجيال الحاضرة له منشؤها انها التصقت بطوارئ التجدد فعادت تستغربه وتعدّ اللحوق بموكبه مبعدا لها عن قافلة الأحياء فى هذه الدنيا .

قيل فى مورد نزول الآية ان اهل الكتاب اختصموا الى رسول الله فيما اختلفوا فيه من دين ابراهيم عليه السلام فغضبوا و قالوا و اللّه ما نرضى بقضائك و لا نأخذ بدينك فأنزل الله أفغير دين الله يبغون .

* (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا
ان الرسول حق و جاءهم البينات والله لايهدى
القوم الظالمين : اولئك جزاؤهم انّ عليهم لعنة
الله و الملائكة و الناس اجمعين : خالدين
فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون
: الاّ الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فأنّ
الله غفور رحيم) *

كيف هنا استفهام استبعادى على حسب الطرق الطبيعية المسلوكة فان هداية الله للأنسان هو ان يتوفق للأيمان الصحيح فاذا ارتدّ عنه فأيّة هداية تكون له و ماذا بعد الحقّ الاّ الضلال .

و القوم الظالمون الذين لا يهديهم الله هم الذين ظلموا انفسهم بصرفهم لها عن الله و ابعادهم اياها عنه فالذين يكفرون بعد ايمانهم بالرسول و شهادتهم انه رسول واقعى قد شفعت دعواه النبّوة آيات بينّات كالقرآن بالنسبة الى نبّى الاسلام اولئك جزاؤهم ابعاد الله لهم عن ساحة رحمته و دعاء الملائكة و الناس عليهم بالطرد و الأبعاد خالدين فى هذه اللعنة لا يخفف عنهم عذابهم الذى استحقوه بمرور الزمن و لا يمهلون عن اقتران العذاب بهم اذلا داعى للأمهال الاّ الذين تابوا الى الايمان بعد الكفر و تابوا الى الله بعد الرجوع عنه و اصلحوا عقائدهم و اعمالهم فانّ الله غفور لذنوبهم وان كانت كبيرة رحيم بعباده و ان لم يثبتوا لرحمته .

قيل ان الآية نزلت فى اهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون بالنبّى (ص) قبل مبعثه و ينوهون به و بدينه ثم كفروا به بعد بعثته حسدا وبغيا

و ذكر فى وجه نزولها غير ذلك .

و يقال فى خلاصة مفاد الآية لم لا يهدى الله عباده الكافرين حتى يلازموا الايمان و لم لا يهدى تعالى الفسقة من عباده حتى يلازموا الطاعة فان فى ذلك لطفا بهم و اللطف على الله بالنسبة الى عباده واجب فأجاب القرآن بما مفاده ان الهداية الواجبة على الله من باب اللطف بعباده حصلت منذ اصل الخلقة من طريق الفطرة فانه ما من مولود يولد الاّ على الفطرة الداعية الى ملازمة الحق و مجانبة الباطل كما حصلت من طريق الأنبياء المرسلين و الأوصياء المنتجبين و العلماء الصالحين و الكتب المنزلة و سرد العبر و المواعظ فيها بكثرة .

لكن انحرافه انما يتأتىّ اذا تضاربت فيه الشهوات فتدعوه نزوات النفس حتى الى الخطأ الواضح و مع ذلك فباب هداية الله له بعد مفتوح بأقبال العبد على ربّه و تنصله من ذنبه فانّ الله حينذاك يتوب عليه و يتقدم بألطافه اليه امّا اذا اصّر مدبرا عن ربّه و لازم مواقع ذنبه و نسى كل شئ غير نفسه حتى ان الله لا يأتى له على بال ولا يطرق له على لسان فأى توقع من الله أن يهديه الاّ بالقسر و الألجاء و القسر و الألجاء يضادّان التكليف و اختيار الانسان لنفسه ما يصلحها حتى يؤجر و يثاب .

* (انّ الذين كفروا بعد ايمانهم ثمّ ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم و اولئك هم الضالّون) *

هذه الآية يرتبط مضمونها بمضمون ما سبق و معنى كفرهم بعد ايمانهم - كما اسلفنا - هو وقوفهم فى وجه نبّى الاسلام و قوف مخاصم معاند بعد أن كانوا مبشرين بظهوره منوهين بدينه و امّا زيادة كفرهم فهو تخذيلهم للناس عن الايمان به و تشويشهم الوضع و خلقهم المشكلات امام دعوته و ليس وراء امثال هؤلاء ضالّ عن الجادّة يشار اليه بل منتهى الضلال ماهم عليه و امّا ان توبتهم لا تقبل فبشرط الموافاة على تلك الحال بدليل ان الآية السابقة صرّحت بقبول توبة الكافر بعد ايمانه اذا تاب من بعد ذلك و اصلح ٠

و ينطبق مضمون الآية على من كان فى طفولته مماشيا لفطرته فاذا بلغ اشدّه و انحشر بشهواته و انجرف معها تجاهل بفطرته و اخذ كلّما يكبر يزداد معصيةً و طغيانا حتى يوافيه الموت وهو مجموعة ضلالات كثيرة فى التنوّع مديدة فى الزمان مضافا الى ما يحصل فيه من اضلال و اغواء للباقين بأقواله و افعاله كما هو مشاهد محسوس ٠

* (انّ الذين كفروا و ماتوا وهم كفّار فلن يقبل من
احدهم ملءالارض ذهبا و لو افتدى به
اولئك لهم عذاب اليم و مالهم من ناصرين) *

لا شك ان الموافاة على الكفر لا علاج معها لان دار العمل تنقطع بموافاة الأجل و مسألة الأفتداء بملء الأرض ذهبا فرضية لأعلا و أغلا مايمكن تقديره و الأفتداء به اذ ليس فى عالم الآخرة من هذا المذكور شىء قال بعض المفسرين يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا لكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له لقد سئلت ايسر من ذلك فلم تفعل .

* (لن تنالوا البرّحتى تنفقوا ممّا تحبّون و ما
تنفقوا من شىء فأن الله به عليم) *

هذه الآية واحدة من عشرات الآيات الحاثّة للفرد الأنسانى المؤمن على الأنفاق فى سبيل الله حيث يقول سبحانه لن تنالوا برّ الله بكم و توجهه اليكم و عطفه عليكم حتى تنفقوا ممّا هو عزيز عليكم محبوب لديكم و ان كان ماتنفقونه من قليل و ذليل ثابتافى علم الله و لكنّ الصيد كل الصيد فى جوف الفرا و روى أن عليا اشترى ثوبا فأعجبه فتصدق به وان ابا طلحة الأنصارى قسّم حائطا فى قومه عند نزول هذه الآية و كان احبّ امواله اليه فقال له رسول الله بخ بخ هذا مال رابح و اضاف ابو ذر رجلا فقال له انى مشغول وان لى ابلافاخرج و ائتنى بخيرها فذهب الرجل و جاء بناقة مهزولة فقال له ابوذر خنتنى بهذه فقال و جدت خير الأبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم اليه فقال ابو

ذران يوم حاجتى اليه ليوم اوضع فى حفرتى مع ان الله يقول لـن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون .

و فى خلاصة ذلك ان العالم بأسره خلق على نظام خاص لايتعداه لانه اذا خرج عن النظام انهار بلا ريب مثلا هذه المجموعة الشمسية لولا حفظ التوازن فى ابعاد بعضها عن بعض لحصل تشويش عام فى الحياة يؤدى الى بطلانها و من جملة ذلك المجموعة البشريه فأنها اذا لم تمش على نظام تترابط فيه الأفراد كلّها اصابها من الارتباك ماتعود الحياة معه و بالا كماترى ذلك واضحا فى حياة المتوحشين والمتمدنين و من جملة النظم التى تسير بالأجتماع الحيوىّ سيراً صحيحا التعاون على الحياة بين المقتدر و المعوز و القوى و الضعيف و هلم دو اليك فأذا لم يحبب الانسان اخاه النوعى كما يحب نفسه ولم يهتمّ بأمره كما يهتم بأمر نفسه عادت الحياة خطرا و هذا التلاعب فى الدنيا قد يمها وحديثها نتيجة عدم اهتمام احد بأحد وذلك ممّا يورث عقدا نفسية فى المظلوم و المهضوم و المحروم تراه لأجلها يتحيّن الفرص لأيجاد انقلاب او ثورة و هذا المعنى هو الذى اشارت الآية الى طرف منه .

* (كلّ الطعام كان حلاّ لبنى اسرائيل الآ ما حرّم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين : فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) *

الطعام هو مايطعمه الأنسان اى مامن شأنه ان يكون مطعوما له بحسب ذوقه البشرى و يجد له طعما فى ذوقه مطلوبا له لا مايمكن أن يؤكل وعلى هذا لا يتناول الطعام كل مايمكن أن يأكله الأنسان بل انما يتناول ماهو مأكول عند النوع اختيارا بحسب السليقة البشرية ·

فالخبائث فى ذاتها ليست مطعومات و هكذا كل ماهو ناب عن الذائقة الفطرية بعنوانه طعاما و الشرع ان حرّم ذلك فهو ارشاد منه الى ماتدعوا اليه الطبيعة البشرية بحسب فطرتها فعلى هذا كل مطعوم بالأصل حلال ·

وعلى هذا الكلية جاء قوله تعالى كل الطعام كان حلاّ لبنى اسرائيل و معنى الاستثناء فى قوله الأماحرّم اسرائيل على نفسه ان يعقوب بن اسحاق هو من نفسه حرّم على نفسه بعض المطعومات لا ابتداعا و اختراعا و نسبة منه الى الله فان ذلك تزوير وافتراء لا يجوز على اقلّ المكلفين فضلا عن الانبياء بل انّما حرّم ذلك على نفسه زهادة منه دون ان يدين بحرمته عليه شرعا و ذلك لامحذور فيه لان الانسان يجوز ان يزهد فى الحياة المادية حتى يربّى نفسه على الفضيلة و يقف امام ضراوتها وغلمتها فان الضراوة و الغلمة تقودان الى مالا تحمد عقباه ·

و اختلف المفسّرون فى الذى حرّمه اسرائيل على نفسه فقيل انه لحم الأبل و كان احبّ الطعام اليه و قيل غير ذلك ممّا هو قريب الأفق منه كما ان مورد نزول الآية هو انكار اليهود تحليل النبى (ص) لحوم الأبل فقال (ص) لهم كل ذلك كان حلالا لأبراهيم فقال اليهود كل شىء نحرّمه فانه محرّم على نوح و ابراهيم و من بعدهما فأنكر الله عليهم ذلك و أبان ان لحم الأبل انّما حرّمه اسرائيل على نفسه من نفسه لا بافتراض شرعى و تحريمه هذا سابق على نزول التوراة لا انّه مستمد منها على ان التوراة فاقدة لهذا التحريم فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين و هذا من النبى (ص) تعجيز لليهود و معجزة له باعتبار انه أخبر عمّا فى التوراة وهو لم يرها و لم يدرسها ولم يسمع هذا المطلب ممّن سوى الله تعالى لان اليهود كانوا مطبقين على تحريم لحوم الأبل قولا و فعلا فمن اين جاءه علم ذلك .

ثم هدّد و ندّد سبحانه بكل من يزوّر عليه ما ليس بصادر عنه واعتبره ظالما لنفسه و لعقيدته بالمبدأ : وقوله من بعد ذلك اى من بعد علمه واطلاعه انه ليس من الله و ينسبه اليه فهذا هو الذى يقال له مزوّر لا ماينسبه الأنسان عن سماعه من غوغاء الناس فان ذلك ليس بتزوير اذا كان هو من جملة غوغائهم ايضا .

* (قل صدق الله فاتبّعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين).*

الخطاب لنبّى الاسلام فى ان يقول لليهود لا شك ان الحق مع الله لا معكم حيث تنسبون له انه تعالى حرّم على نوح و ابراهيم و من بعدهما لحوم الأبل و انه ذكر ذلك فيما انزل من التوراة على موسى و انّ هذا ابراهيم الذى هو معزّز المكانة عندكم مقبول لديكم كما تدعون فاتبعّوا ملته و دينه الذى جاء به و شرّعه لأمته و انّما امرهم باتباع ملة ابراهيم مع ان ملّة موسى جاءت بعده وقد يكون فيها ماهو ناسخ لبعض ماكان فى ملة ابراهيم و المتشرع بملة موسى لا يجوز له شرعا ان يحيد عنها رغبة بالملة التى كانت قبلها ـ انّما فعل ذلك ـ ليبيّن لهم خطأهم حتى مع ملّة موسى التى يلتزمون بالتعبد بها مع انها ليست وظيفة لهم بالفعل بعد ماجاء عيسى عقب موسى و بعد ماجاء محمّد(ص) عقب الجميع و انّهم لم يعملوا حتّى بالطريقة الموسوية .

فان طرائق الانبياء كما اسلفنا من حيث جوهر الشريعة واحدة و انّما تختلف فى قوانين جزئية كانت فنسخت فى الملّة اللاحقة اولم تكن بالمرّة ثم حدثت و دين محمّد كدين ابراهيم و موسى و عيسى من حيث اصل الجوهر وان حدثت فى الديانة الاسلامية طبقا لما أريد بها من مماشاة الأجيال كلها اشياء لم تكن آنفا او نسخ فيها بعض اشياء شرّعت فى وقتها لمصالح دعت اليها

و ليس ابراهيم وحده من بين الأنبياء كان حنيفا مائلا عن الباطل منسجما مع الحق ولم يكن من المشركين بل كل انبياء الله كانوا كذلك و لكن الله ساق ذلك تنديدا و تعريضا بأهل الكتاب الذين ينسبون

لأنبيائهم نسبا يجلّون عنها من شرك وباطل وانحراف غافلين عن ان ذلك لا ينسجم مع عنوان النبوّة و ايّا كان هو النبّى .

* (انّ اوّل بيت وضع للناس للّذى ببكّة مباركا و هدى للعالمين : فيه آيات بيّنات مقام ابراهيم و من دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا و من كفر فأن الله غنّى عن العالمين) *

قيل ان البكّ بالباء هو التزاحم فيقال تباكّ الناس اذا ازدحموا و سميت مكّة بذلك لازدحام الناس فيها على بيت الله و بقية المشاعر فيها و حولها ، و أما مكة بالميم فقد قيل ان معناها هو ذلك و ان الميم ابدلت من الباء كما يقال ضربة لازب وضربة لازم فتكون الكلمتان بمعنى واحد وقال قائل هما اثنتان و ان المكّ بالميم هو المصّ الشديد فيقال امتكّ الفصيل اذا مصّ الضرع مصا شديدا وعلى هذا (تكون الكلمة الفارسية ـ مكيدن) مأخوذة من هذه اللفظة ، و يكون معنى مكة حينئذ انها لخلوها من منابع الماء تمص الماء من بطونها مصا شديدا لتؤمّن بلغتها و بلغة قاطنيها و المبارك هو الثابت خيره .

و مفاد الآية ان اول بيت وضع كمشعر و منسك للناس لهو البيت الذى عيّن و اسس بمكة حال كونه ثابت الخير بارادة من الله سبحانه و هاديا للعالمين الى مرضاة ربهم باقامة العبادة فيه وقد جعل الله فى هذا البيت علامات واضحات لدرك مرضاته واجره وثوابه وتلك العلائم و المشاعر كمقام ابراهيم وحجر اسماعيل و الحطيم الذى هو بين الحجر الاسود و باب الكعبة وبئر زمزم فان لاقامة الشعائر فيها اثرا واضحا فى

الشرائع السماوية وقد ندب الاسلام الى ذلك و اجزل عليه من الفضل و الثواب ٠

و من دخل هذا البيت كان آمنا حتى يخرج منه فقد ورد فى الفقه الأسلامى انّ من يلتجأ اليه لا يجوز ازعاجه منه الآ ان يكون مرتكب جريمة توجب حدّا فيضيّق عليه فى المطعم و المشرب حتى يخرج منه ثم يقام عليه حدّ الله خارجه و خارجه خارج الحرم لا البيت وحده ٠

و قد اوجب الله سبحانه حجّ هذا البيت وقصده على كلّ مكلف وجوبا فوريّا بشرط استطاعة الذهاب اليه و القيام بأعماله و اعتبر الكافر بهذا الواجب بعيدا عن الله و انّه فى جانب شاسع عنه و ان الله غنىّ عنه و عن غيره من المعرضين و انّه انما اوجب هذه الواجبات و قرّر هذه الوظائف لصالح البشرية حتى تنال سعادتها و ليس لله فى ذلك غاية سوى ما أشعرنا به ٠

* (قل يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و الله
شهيد على ماتعملون : قل يا أهل الكتاب
لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها
عوجا و انتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون) *

الخطاب لنبي الاسلام ليقول لليهود و النصارى - وانما لم يخاطبهم الله سبحانه مباشرة هنا اشعارا باستنقاصهم وانهم ليسوا اهلا لأن يكونوا طرف خطاب له الا بواسطة -

كما انه تعالى لم يكلف نبيه ان يقول لهم مناديا بسماتهم الخاصة وهى اليهودية و النصرانية بل كلفه ان يناديهم منسوبين للكتاب اشعارا بزيادة تضليلهم و تجهيلهم بأنهم مع ادعائهم النسبة الى كتب السماء الآمرة بالايمان الناهية عن الكفر المرشدة الى الفضيلة المبعدة عن الرذيلة كانوا ابعد مايكونون عنها .

قل لهم يانبي الاسلام ان كنتم آمنتم بموسى و بالتوراة للآيات البينات التى اقامها الله تدليلا على صدق من جاء بها فلم تكفرون بنظير تلك الآيات التى جاء بها نبي الاسلام فأنها آيات تدل من نفسها على نفسها انها من رب السماء أقامها تأييدا و تشييدا لنبوة محمد بن عبد الله .

فهذا الاستفهام استنكار من الله و توبيخ لليهود و النصارى : وقوله و الله شهيد على ماتعملون تهديد لهم بأن مايصدر منهم ويكون عنهم منظور لله مشهود له و قل يانبي الاسلام لهم ايضا ان كان التعنت عن قبول الاسلام حملكم على التجافى عنه وعدم الايمان به فلم تقفون حجر عثرة و سدا امام من يريد الايمان به ثم يترقى بكم التمرد الى ان

تحوكوا للمؤمنين به شبها تحاولون من طريقها صرفهم عمّا آمنوا هـذا كلّه و انتم فى واقعكم شهداء على اعمالكم الخبيثة و منوياتكم الفاسدة و انفسكم المتنزّية على الحق و الحقيقة .

و لا تحسبوا ان ما تأتون به من وراء شتار غائب عن الله غير ملحوظ له فان الله ليس بغافل عمّا تعملون .

* (يا ايّها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردّوكم بعد ايمانكم كافرين : و كيف تكفرون و انتم تتلى عليكم آيات الله و فيكم رسوله و من يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم) *

الخطاب فى هذه الآية للمسلمين جئ به ايقاظا لهم و تحذيرا من دسائس اليهود الذين لم يألوا جهدا فى التهريج على نبىّ الاسلام و تشويش الوضع عليه من كافة جنباته ، و مفاد الآية انكم مع فرض إنجرافكم ــ لا سمح الله ــ مع مكائد اهل الكتاب تكونون من اتعس الخاسرين باعطائكم الايمان المنقود من ايديكم و تلبسكم بالكفر المزّور عليكم .

ثم اظهر سبحانه الأستبعاد من انحرافهم مشيا على الطريقة الكلامية لا لعدم علم له بذلك بأنهم كيف يكفرون ومن اىّ طريق يؤخذون و آيات الله المعجزة الدالة على صدق الدعوة الاسلامية تتواتر عليهم فى الآنات و رسول الدعوة قائم حىّ بين ظهرانيهم يظهر لهم اروع الكمالات و افضلها و يقيم لهم حجة و يدفع عنهم شبهة ، ثم اعطاهم كلية ذات اهمية و هى ان الأعتصام بالله و التوثق به والتمسك

بألطافه ممّا ينير لهم الطريق المظلم و يرفع عنهم وحشة الشكوك ويسير بهم فى اقوم طريق ٠

و هذه الآية بملاكها العام تعطى مفادا عاما و قيل نزلت فى الأوس و الخزرج خاصة لما تدّخل اليهود بينهم بالفتنة و اخذوا يثيرون لهم دفائن السوابق من الحروب التى كانت تشنّ بينهم على حساب الجهل و التعصب المقيت ولا شك ان اثارة الفتن تلوى بالأنسان الى ورائه بعد ماكان متوجها الى امامه مستقبلا لأشياء أخر وهى هنا التوجه لتعاليم الاسلام و التخلق بأخلاقه ٠

وتنطبق هذه الآية بملاكها على الجوامع البشرية فى هذا العصر الذى عاش اهله قبل طغيان هذا التمدن الكاذب مؤمنين بمارسمته لهم الأديان الصادقة و ثقفوه من اهل الفضيلة المعاصرين لكنّ صياح الجهلة و تهريجهم عليهم ممّا خف بهم الى الالتحاق بحزبهم والتنصل و النزوع عمّا كانوا عليه بلا علم افادوه ضدّ ماكانوا عليه من مبدأ ولا ثقافة صحيحة الزمتهم بلحوق مواكب الزمن بل كانت القضايا معهم على العكس فان ماطرأ عليهم من تفلّت و انخلاع عن النظام و المقررات الصحيحة واخلاد الى اللا ابالية الصرفة فى كل الأشياء اوضح لهم بدقة قوة ماكانوا عليه لأنّ الأضداد تظهر اضدادها ٠

فالمؤمن فى عالم اليوم معه كل الدلائل التى تؤيد ايمانه الصحيح على رغم انتشار هذه الكمالات الماديّة فى الحياة لكن بشرط ان يوّجه ذهنه الى المحاكمة بين المنطق الذى كان عليه و منطق هؤلاء الجدد فأن هؤلاء الجدد ضمن تحبيبهم له ماهم عليه من انفلات و انخلاع يقولون له عشتم على العقيدة زمانا بلا اسالة ماء و لا انارة كهرباء ولامذياع و لا حاكى و لا مبردة و لامدفئة و يكثرون عليه تعداد ما انتجته الحضارة

الفعلية اذا فالعقيدة لم تفدكم شيئا ٠

و نحن لمّا طلّقناها بتاتا و نزعنا رقابنا منها تماما يسّرنا لأنفسنا الحياة المرفّهة كما نهوى و كما ترون ،فالمؤمنون اذا وجّهوا اذهانهم للمحاكمة كما اشرنا علموا انّ ماقاله هؤلاء سفسطة مفتضحة اذ لاربط لما ذكروه بعالم العقيدة فان العقائد تعاليم قرّرت لتنظيم حياة البشر و كيفية استفادتهم منها احسن الاستفادة من حيث الراحة و الطمأنينة ولاصلة لذلك بعالم الاختراعات،و الاختراعات انما لم تكن فى سابقها لاعراض الناس عن التوجه اليها و الفكر فيها ، و الجدد انعموا كلّ بالهم فى هذا المجال فأفادوا كماليات يسّرت لهم العيش مادّيا وان اركستهم فى بلايا اخلاقيّة لا منزعنها الاّ بمراعاة تعاليم العقيدة الصحيحة كما هو واضح مكشوف،ولو ان اهل الاختراع ادّبوا انفسهم بأدب الدين الصحيح لكانت دنياهم من اروع مايمكن تصوره فى الحياة للانسان ٠

* (يا ايها الذين آمنوا اتّقوا اللّه حقّ تقاته ولا تموتن الاّ و انتم مسلمون : واعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرقوا و اذكروا نعمة اللّه عليكم اذ كنتم اعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن اللّه لكم آياته لعلكم تهتدون) *

صيغة تقاة تأتى جمعا لتقى فيقال هم تقاة ومصدرا كالأتقاء والتقوى و المراد بها هنا هو المعنى الثانى (المصدرى) بمفاد خافوا اللّه فى جميع مجاريكم الحيوية و راقبوا ماتوعد به المنحرف عن نظامه و ماقرّره من دين .

و حقّ التقوى هو مراعاتها على كل حال ، ولا داعى لأن يقال انّ هذا المفاد ينافى التقية و يناقضها لان مراعاة تقوى اللّه على كلّ حال نقيض صريح للتقية التى هى تغطية للتكليف وستر له ـ ذلك ـ لأن الزام التكاليف الأولية يرتفع فى موارد الاضطرار و التقيه من موارده ومع ارتفاع التكليف الأوّلى يكون التكليف بالحكم الثانوى .

و النهى فى قوله ولا تموتنّ الاّ و انتم مسلمون وان ورد فى ظاهر التكليف على الموت الذى هو خارج عن قدرتهم لكنه فى المعنى وارد على الانحراف عن الدين و مفاده لزوم مراقبتهم لانفسهم من غوائل الشبه و التشكيكات حتى لا تذهب اعمالهم السابقة على وفق الدين هدرا عليهم بالموافاة على الكفر به ـ نعوذ باللّه ـ و ذلك هو الأحباط ..

و الاعتصام هو قوّة التمسك و حبل اللّه هو الأمر الرابط بينه و بين مخلوقه و ذلك هو الدين فالمتدين بدين اللّه متمسك بحبله موصول

برحمته قريب من لطفه و المنفصل عنه بعيد منه محجوب عن توجهاته ٠

و انما نهى سبحانه عن التفرّق لأنّ افتراق واحد عن واحد لا يكون الاّ عن دواعى تنشمر بالأفراد بعضا عن بعض و هذه الدواعى ممّا تقود الى العداء خفيفا كان ام شديدا ٠

و العدوّ وان كان بظاهر الحال متباعدا عن عدوّه الاّ انه فى الواقع مشغول به لاّن حرص النفس فى الجاهل يدعوه الى ملاحظة ما حرص عليه و الألتفاف حوله و هذا المعنى يوجب انصرافه عن تحرّى ما يوجب له السعادة كما يتحرّاه المجرّد عن حزازات العداوات ٠

و من هنا يستبين انّ نسيان العداء و تذويبه من النفس نعمة كبيرة تدعو الى ائتلاف القلوب و الأخوّة و حدّ الاقل حصول راحة القلب له ٠

و شفا الشئ طرفه و جرفه ولا شك ان المتعادين بين الذاكرين لعدائهما على شفير جهنّم الدنيا بالانفجار الذى يترقبه الواحد من الآخر و على شفير جهنم الآخرة ايضا فان ادخال الضرر على العدوّ لأجل العداوة فقط ضلال لا يرضى به اللّه و المعصية تقود الى النار ٠

و انقاذهم منها ابطال دواعى العداوة القائمة بين طوائف سكّان الجزيرة قبل الاسلام بورودهم فى الاسلام الجامع الوحيد لهم على كلمة سواء بينهم ، كذلك اى كالبيان السالف يبيّن اللّه لكم دلائله على لزوم التحابّ و التصادق و الابتعاد عن العداء و التباغض لعلّكم تهتدون بهديه و تستنيرون بنور تعاليمه ٠

قيل فى مورد نزول الآية إن رجلين من الأوس و الخزرج تفاخرا جريا على ماكان معهودا عندهم من التباهى الجارّ الى المشادّة و المعارضة و بالأخير الى الحرب و الضرب فقال الأوسىّ منّا خزيمة بن

ثابت ذو الشهادتين و حنظلة غسيل الملائكة وعاصم بن ثابت و سعد ابن معاذ وقال الخزرجى منّا ابىّ بن كعب و معاذ بن جبل و زيد بن ثابت و سعد بن عبادة و دار الحديث بينهما حول ذلك حتى ابعد الفجوة عليهما فغضبا و ناديا بقبائلهما فجاء الأوس و الخزرج و معهما السلاح فبلغ ذلك رسول الله فركب و أتاهم و قرأ عليهم هذه الآيات ألتى نزلت بهذه المناسبة فاصطلحوا ·

و فى خلاصة الآية يقال انها وان نادت بالذين آمنوا عن اختيار منهم لكنّها فى لبّ الواقع تشعر بلزوم الأنسان للغيب و الايمان به ـ ذلك ـ لأن الانسان بالنسبة الى مجارى هذا الكون كلّما ازداد تعمقا فيها ازداد جهلا بها و من المستحيل ان يقف الأنسان من طريق العلوم على هوّية كلّما حصل و ماهو حاصل لأن فى ذلك من الرموز و الطلاسم الشىء الكثير ولا يستطيع الطبّ ولاغيره ان يعلّل بروز الأمراض و طول الأعمار و قصرها مثلا ابناء محيط واحد بل ابناء اسرة واحدة تعيش عيشة شبه متشاكلة او متساوية و نرى فيها من التفاوت فى الصحة و المرض و قصر الاعمار وطولها مايثير العجب و ليس باستطاعة اهمّ طبيب اختصاصى ان يبين السّر فى ذلك بل يقف امامه واجما سببا وعلاجا فهذا وامثاله ممّا يدع الأنسان متحيّرا غير واثق بالطبيعة و لا بمجاريها و لاشك ان كل ذلك ممّا له اسباب و لا يكون جزافا ·

و مع كل التمرّد على الغيب فلا اقلّ من احتماله واذا كان الأمر كذلك فلابّد من الأحتياط بمتابعة خطى الشرع حتى يحرز الأنسان نفسه ولا يستطيع ان يحرزها الاّ بالدين وان كان فى تحمّله ثقل على العاطفة فان الأنسان يتحمل لدفع الأذى عن نفسه كل مشقّة حتى انه ليحمل الاحمال الثقيلة على رأسه او ظهره لأعاشة نفسه بالقوت المنزور

فكيف بموجبات السعادة الآبدية و الشقاء الأبدىّ .

* (و لتكن منكم أمّة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون : ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ماجائهم البيّنات واولئك لهم عذاب عظيم) *

كاف الخطاب فى قوله منكم للمؤمنين لأن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لا يكونان الاّ فى اطار الايمان و التوجه اليه لانّ غير المؤمن لا يعرف من ذلك شيئا و لا يشعر به و لا يعيره نظرا لانشماره وغفلته و اعراضه عن المحاسن و مثل هذا حكمه حكم الميّت .

و كلمة من فى ـ منكم ـ للتبعيض اذ غير معقول ان الأمة بأسرها تكون آمرة بالمعروف و ناهية عن المنكر لان الامر و النهى المزبورين يتوقفان على معرفة المعروف و المنكر فى انفسهما و هذه المعرفة علم جليل و من المستحيل عادة ان يكون الناس بأسرهم علماء من هذا الطراز و حتى بهذا المقدار بل الأكثرون يجهلون مواقع اقدامهم فهم ليسوا من هذه الصلاحية فى شيء و المعروف هو كلّ ماحسنّه العقل او الشرع و المنكر هو كلّ ماقبّحه العقل او الشرع و وجوب الأمر و النهى المذكورين المستفاد من لام الأمر عقلىّ شرعىّ لأنّ نظام البشرية لا يستقيم بدون الموعظة و النصيحة تكونان عن العالمين العاملين .

فمقام الوعظ و الأرشاد من اهلهما مقام نبوّة و امامة و من هنا جاء فى الأثر عن النبىّ (ص) انه قال من امر بالمعروف و نهى عن المنكر فهو خليفة اللّه فى ارضه وخليفة رسول اللّه و خليفة كتابه ،ولا شك ان

ترك الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ممّا يوّلد يأسا و قنوطا و اشاعة للفحشاء و تسلطا للظلمة و انحطاطا بمقام المتقين واماتة للدين و المتدينين كما هو جاهر مكشوف ·

كما لا شكّ ان الفلاح فى النشأتين منوط بذلك ، وكما أمر سبحانه المؤمنين ان يوّلدوا من بينهم وعظة و مرشدين نهاهم عن التخاذل و التفرق و انتباذ بعض عن بعض بأىّ داع كان فان دواعى التفرق كلّها مرموزة باطلة بعيدة عن الحق ومهما بسط لها من شروح اقناعية ولا فرق فى موجب التفرق بين ان يكون ناشئا عن الأختلاف فى المبانى العلمية او لترهّات الدنيا ·

و اكثر انشعاب الفرق الاسلامية قائم على الاختلاف فى المسائل العلمية فى حال ان الأختلاف فى الاراء و الأفكار لا يسيغ شرعا وعقلا التباغض و التحايد و الأنحياز وأقام سبحانه لنا العبرة فى هذا الموضوع بتفرق اهل الكتاب و انشعاثهم من بعد ماجائتهم البيّنات السمعية من لدن الربّ ولا اختلاف فيما جاء عن الربّ و انما الاختلاف مخلوق للانتهاز حيث يريد المنتهز أن يعيش على اكتاف الناس من تحيّزه برأيه فى الدين و العقيدة و المشرب العلمى وقد حكم الله على امثال هؤلاء بأنّ لهم عنده عذابا عظيما يفدون عليه جزاء ماشتّتوا عباده و وزّعوهم فرقا و طوائف ·

و فى خلاصة مفاد الآية يقال ان المجموعة المتصامدة آمنة من داخلها فارغة لمقارعة غيرها ففيها أمل الانتصار على كل حادث امّا المجموعة المتحللة فلما كانت قواها مصروفة فى داخلها ففيها فضلا عن الأنهيار الداخلى استعداد للمغلوبية امام اقلّ الحوادث فان الحادثة كمالا تجد جمعا بل ترى اوزاعا لا تجد فى هؤلاء الأوزاع قوّة

لتذوبها فى المناورات الداخلية ·

و اهل الكتاب الذين أشير اليهم فى الآية انّهم تفرقوا واختلفوا لم ينتصروا فى يومهم هذا من طريق دينهم وانما انتصروا لنبذهم فروق دينهم وراء ظهرهم وتوجهوا نحو مصالح دنياهم توجها واحدا بلافرق بين اليهود و النصارى امّا المسلمون فانهم نبذوا دينهم وراء اظهرهم ولم يتوجهوا لهدف يجتمعون عليه حتى يرّقيهم لذلك انهاروا انهيارا تامّا كما هو محسوس ·

ثم ليعلم ان الدعاية من الأسلحة المهمّة التى تؤثر مفعولها حتى فى قلوب الشياطين لأنّها متكأة على الأصرار بشعوذة و الأصرار لايعدم اثره قطعا وهى من الموارد التى يستغلّها حتى الحاكم المستبّد لأنها تقوم له مقام الجيوش الجرارّة وهى فى الزمان الحديث اكثر جريانا منها فى القديم لأنّ الوسيلة التبليغية فى القديم كانت منحصرة باللسان غير المسلّح و بالقلم المحدود ·

امّا اليوم فوسائل الدعاية عظيمة و منتشرة و يستطيع الداعية ان يعلم العالم كلّه بكلمة يلقبها من وراء مذياع : و الدعاية تنقسم من حيث الحكم الشرعى بانقسام متعلقها فان كان واجبا كانت واجبة و ان كان حراما كانت حراما ولقد استفاد العصر الحديث من الدعاية لأجل ترويج الضلال اهمّ الأستفادات و اعظمها و من نتائجه انحراف كافة المنسوبين للديانات عن دياناتهم الاّ من عصم اللّه و من هنا كان الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فى هذه الأزمان واجبا محتما لامحيص عنه و ان كان فى القديم كذلك الاّ انه فى هذه الادوار يلزم ان يكون اقوى و اشدّ ·

* (يوم تبيضّ وجوه و تسودّ وجوه فأمّا الذين اسوّدت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون : و امّا الذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) *

كلمة يوم هنا ظرف لما سبق فى قوله واولئك لهم عذاب عظيم يعنى ان ظرف هذا العذاب يكون فى يوم تبيضّ فيه وجوه و تسودّ وجوه و كل فرح مسرور يسفر لونه و ينبسط وجهه وتحلوا ساريره و كل حزين كئيب ينقبض وجهه و يكدر لونه و تتعجر اساريره ولا شكّ ان يوم القيامة هو يوم ملاقاة الأفراح الواقعية و الأتراح الحقيقية ·

فأمّا الذين تكدر وجوههم و تنقبض فيقال لهم أكفرتم بعد ايمانكم سواء كان هو الأيمان القائم بفطرة كل انسان و ان عاش طول عمره كافرا او هو الارتداد عنه بعد التلبس به زمانا ولا شك ان المترصد من الانسان هو ترقيه من الجهل الى الفضل لا تسفله من الكمال الى الضلال فمن هنا يسخر من هذا الضال و يقال له ذق العذاب فأنّ الذائقة انّما اعدّت لتواجه ماهو حلو الطعم لذيذه لا مرّه وكريهه ·

و امّا الذين تبيضّ و جوههم و تسفر للأيادى البيضاء التى أسلفوها لأنفسهم فهؤلاء غارقون فى رحمة الله مكتنفون بها من عامة جوانبهم و كلمة فيها تأكيد لقوله ففى رحمة الله فانّ الحروف اذا اكّدت أعيدت هى و متعلقها و ذيل هذه الآية من شواهد هذا الباب ·

* (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين : و لله مافى السموات و مافى الأرض و الى الله ترجع الأمور) *

تلك اشارة الى ماسبق ذكره من الدلائل و الحجج التى اقامها ربّ العزّة فى تفنيد الكفرة و التنديد بالمنحرفين و تشييد المؤمنين نتلوها عليك يا نبىّ الأسلام بالاصالة و على المؤمنين بك بالتبع تلاوة حكمة و صواب لتتجه بها و تعرف النقض و الأبرام و تطرد عن ساحتك شبه المشككين و ضلالات المغوين و لتقف انت و كافة المكلفين على ما يراد منكم من انجاز تكليف و امتثال وظيفة حتى تكونوا عالمين بما يوجب لكم الثواب و يدفع عنكم العقاب فهذا التعريف و الأرشاد كله ارصاد لما تستحقونه غدا من ثواب على عمل خير و عقاب على فعل شر وحتى لا تسموا الله سبحانه بأنه ظلمكم حقوقكم او عاقبكم و انتم جاهلون بمورد العقوبة و حاشا الله من الظلم فان الظالم امّا جاهل بموارد عمله و امّا طامع و كلا صفتى الجهل و الطمع بعيدتان عن قدسه لان العلم بكل شىء حقيقة ذاته و استغنائه عن كل شىء وافتقار كل شىء اليه من اصول صفاته و لذلك صحّت مالكيته لجميع مافى السموات و الأرض لأنّه مبدؤها الأول وعلة كافة العلل فمنه كافة الاشياء و اليه تنتهى و ترجع عامة الأمور .

* (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله و لو آمن
اهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون
و اكثرهم الفاسقون) *

فى معنى كان هنا وجوه (احدها) دلالتها على الزمان الماضى بمقتضى صيغتها بمعنى انكم كنتم فى علم الله خير أمّة (ثانيها) دلالتها على التمام بمعنى الوجود و الحصول اى وجدتم فيما بين الأمم خير أمّة (ثالثها) زيادتها و انما جئ بها للتأكيد بمعنى انتم خير أمّة .

و تاء الخطاب فى كنتم ليست للمسلمين قاطبة بقهر الطبيعة لأنهم لم يكونوا بالأسر آمرين بالمعروف و ناهين عن المنكر لعدم تأتى ذلك من كل مسلم كما اسلفنا فأن الآمرية بالمعروف و الرادعية عن المنكر لا تأتيان من كلّ احد لاحتياجهما الى علم و ثقافة و دين متين سمين و هذه الصفات ليست ممّا تتسنّى لكل مسلم اذا فالخطاب مصروف الى خيار المسلمين و ابرارهم و كانوا كثيرين فى صدر الاسلام خلافا لسائر الأدوار الأسلاميّة .

فان الروح الانقلابيّة بالحق و بنفع الحقّ المتربعة فى احناء الصحابة الأخيار هى التى شعشعت الاسلام بعد النبىّ طيلة ثلاثين سنة على كافة الموهنات التى احتفّت بها بعد موت نبىّ الاسلام ثم لما مات الاماثل قتلا و حتف انف فى هذه الفواصل و حكم الناس من لا يعرف للأسلام حرمة كما لم يذق منه طعما اخذ الاسلام يتذّوب حتى اسودّت اكثر القلوب و الوجوه الصادق عليها قوله تعالى و تسوّد وجوه

فأمّا الذين اسوّدت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون كما صدق على اولئك الأفاضل المناضلون قوله يوم تبيضّ وجـوه و امّا الذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون فأمّـا بياض وجوههم فانتصارهم و نيلهم للعزّة و الكرامة و امّا انغماسهم فى رحمة الله فلا نعدام كل شنشنة فى داخلهم بخلاف تلك الأدوار السود التى انقسم اهلها على انفسهم فذابوا من الوجود على كثرتهم و ذاقوا الأمرّين من داخلهم و خارجهم ٠

و لو آمن اهل الكتاب بنبىّ الأسلام كما نعتته كتبهم و انبياؤهـم لكان خيرا فى دنياهم بمسيرهم على الجادّة القويمة و النظام الأتمّ وفى أخراهم ايضا لقيامهم بوظيفة الربّ التى حوّلها على عاتق كافّة المكلفين و من اهل الكتاب من آمن و لكنّ الاكثرين فسقوا عن دين الله و لم يصيبوا الهدف الذى اريد منهم فى عالم العقيدة ٠

* (لن يضرّوكم الاّ اذى و ان يقاتلوكم يوّلوكم الأدبار
ثم لا ينصرون : ضربت عليهم الذلة اين ماثقفـوا
الاّ بحبل من الله و حبل من الناس و بـــاؤا
بغضب من الله و ضربت عليهم المسكنه ذلـــك
بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون الأنبياء
بغير حقّ ذلك بما عصوا و كانوا يعتدون) *

يرجع ضمير الغيبة فى قوله ــ لن يضّروكم ــ لأهل الكتاب و ضميـــر الخطاب للمسلمين بمعنى انهم ليس بمقدورهم ايراد الضرر عليكم الا بنحو لاقيمة له ولا اهميّة وهو السبّ و الطعن و التهريج غير المؤثّر وان يصفوّا لكم فى ميدان لا يثبتوا لأنهم لا ايمان لهم حتى بعقائدهـــم و لأنكم مؤمنون بعقيدتكم اشدّ ايمان و اتّمه

و قد انعكس الأمر باليهود و المسلمين فى هذه العهود التـــى اعطى المسلم فيها عقيدته من يده و عاد كافرا بمبدئه بعد ايمـــان اسلافه به و لذلك انخذل امام كل من بارزه و انكسر فى قبال كل مـــن اراده بسوء .

ثم لا ينصرون اى انهم ليسوا من اولئك الأحرار الذين قد يفـرّون فى حرب و لكنهم يكّرون الرجعة فيمحون اثر الفرّه، ضربت على اليهـــود من ايدى المؤمنين الذلة اينما وجدوا و كانوا وعلى كل حـــال الاّ اذا عقدوا ذماما بينهم و بين المؤمنين وهو المراد بقوله الاّ بحبل من اللّـــه و حبل من الناس و رجعوا بعد تلوّيهم على اوامر الله مغضوبا عليهـــم من الله و احاطت بهم المسكنة احاطة القبّة بساكنها حصل لهم كل ذلك بسبب انّهم كانوا حتى أزمان انبيائهم يكفرون بآيات الله بمعنى انّهالم

تكن تؤثّر فيهم اثرا عمليّا بل كانت اعمالهم على نقيضها و كانوا يقتلون انبياء اللّه لشدّة خبثهم وظلمة بواطنهم و تنمّرهم على الحق و الحقيقة و بسبب عصيانهم لأوامر ربّهم و اعتدائهم على حقوق غيرهم و تجاوزهم عن النظام المقرّر لهم .

* (ليسوا سواء من اهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات اللّه آناء الليل وهم يسجدون : يؤمنون باللّه و اليوم الآخر و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يسارعون فى الخيرات واولئك من الصالحين) *

تقدم آنفا قوله تعالى ولو آمن اهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون و اكثرهم الفاسقون فرأى جملة من المفسرون اعادة ضمير ليسوا الى افراد هذين الفريقين بمعنى ان المؤمنين و الفاسقين منهم ليسوا سواء عند اللّه وهو واضح .

و عليه يكون قوله من اهل الكتاب امّة ابتداء كلام و استئناف و لكن يلوح عليه اثر الأقتضاب و التفكّك و يجوز ان يكون وا و الجمع فى ليسوا علامة جمع فقط وامّة اسم ليس وساء خبرها و معادل الأمة القائمة محذوف لوضوحه بهذا التقدير ليس امة قائمة و امّة متقاعسة منحطة من اهل الكتاب سواء و المراد بقائمة هنا النشيطة لتلاوة آيات اللّه فى اطراف الليل البعيد عن التدليس الواجد لفراغ البال المكتنف بالأخلاص الخاضعة للّه بسجودها له سواء كان سجودها ضمن الصلاة ام خارجها المؤمنة باللّه ايمانا صادقا لا كأيمان المشركين المجسّمين له الناسبين كل رذيلة و منقصة الى مقام قدسه المنزّه و بالمعاد عليه

للحساب على الصغيرة و الكبيرة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر المسارعة في الخيرات التى يندبها اليها و هذا الفريق بالصفات المذكورة هو الصالح الفالح ·

أمّا السافل المنحط الذى يقضي اوقاته فى شهواته البعيد عن آيات الله و تلاوتها غير الخاضع لله و لا المؤمن به ايمانا نزيها و لا بالمعاد عليه و الوقوف بين يديه ولا يأمر بمعروف و لا ينهى عن منكر لانه غارق فى المنكرات البطىء عن الخيرات فذلك هو البعيد عن الجادة القائمة و الطريقة الهادية الهالك بلا شبهة ·

* (و مايفعلوا من خير فلن يكفروه و الله عليم بالمتقين) *

اسلفنا ان الكفر هو الجحد و هذه الآية جاءت كمؤكد للآية السابقة بأن فاعل الخير لا يجده مجحودا عليه من ناحية الله سبحانه وان تغافل كثير من الناس عن احسان من يحسن اليهم و انّما خصّ علمه هنا بالمتقين مع انه عالم بما يفعله الصالح و الطالح لان سياق الكلام مع المتقى فخصّ ذكره لان السياق معه ·

* (انّ الذين كفروا لن تغنى عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون : مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرّ اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فأهلكته وماظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون) *

وكما أبان الله اوصاف المؤمن وجزائه فى الآية السابقة أبان الآن اوصاف قبيله وما يستحق من جزاء فقال ان الذين كفروا بالله وانكروا وجوده او اعترفوا به اعترافا لا يليق بقدسه من تجسيمه واتخاذ الشركاء له وصمه بنسب يجلّ عنها قدس صانع العالم مبدأ كل المبادئ لا تدفع مؤاخذة الله عنهم اموالهم وان كان المال من اهمّ وسائل دفع المكروه وطرد الشرّ ولا اولادهم وان استحكمت بناهم وتعددت افرادهم — ذلك — لان كفاح القدرة الهائلة غير متيسر بهذه الوسائل وهؤلاء محكوم عليهم بنار جهنم والخلود فيها .

ثم اوضح سبحانه ان كل اعمال البرّ اذا لم تكن عن رصيد ايمان فلا قيمة لها اصلا وضرب لذلك مثلا فقال مثل ماينفق هؤلاء فى هذه الحياة لأجل استجلاب وتأمين حاجة فرد او مجتمع كمثل ريح فيها برد شديد او سموم قاتل تعصف بحرث قوم قد زها بخضرته ونباته فتهلكه امّا ببردها الشديد او بحرّها الماحق انتقاما من اهلها الظالمين لأنفسهم ونكالا بهم وتاديبا لهم ولم يظلمهم الله بأهلاك حرثهم ولا بقطع عمل اولئك من الثواب ولكن انفسهم يظلمون بكفر الأولين بالله المنعم عليهم بكل شئ ومن جملته المال الذى انفقوه وظلم الآخرين

لأنفسهم التى هى ودائع عندهم يلزمهم احترامها بتسييرها فيما يجلب لها الخير و يدفع عنها الشر فلم يحسنوا حفظ الأمانة بل اضاعوها شرّ اضاعة .

* (يا ايّها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم
لا يألونكم خبالا ودوّا ماعنتّم قد بدت البغضاء
من افواههم و ماتخفى صدورهم اكبر قد بيّنا
لكم الآيات ان كنتم تعقلون) *

البطانة الوجه الداخلى للقباء و الظهارة وجهه الظاهرى والخبال فساد الشىء وحصول الخلل فيه و العنت المشقّة و البغضاء العداوة : فى هذه الآية حذّر الله المؤمنين من مصادقة غيرهم من اهل الملل و النحل و اتخاذهم خاصة لهم و مداخلتهم ايّاهم فى بواطن الأمور موضحا لهم ان هؤلاء فى واقعهم اعداء الداء لا يحبسون وسعا فى حطّكم و ايراد الأضرار بكم و عليكم و يرغبون فى مشقتكم و تعبكم و وقوعكم فى المكاره و من شديد مايضمرون لكم من عداوة لا يستطيعون ان يملكوا اعضائهم فى كبت بغضائهم بل بين حين و آخر تظهر من افواههم وعلى طيّات السنتهم كلمات العداء و المشادّة و الذى تكنّه صدورهم ابلغ واهمّ ممّا يلوح لكم من افواههم و هذا المعنى الذى حذّر الله منه وراء المجاملة وحفظ الظاهر فان اتخاذ الانسان بطانة معناه اتخاذه اقرب كل شىء منه كقرب البطانة من بدن اللابس و ليست كذلك المجاملة فأنها ظاهر مصنوع تطلىّ به ظواهر المجتمع حذرا من التأزّم فيه :

و معنى من دونكم من غيركم اى كلّ انسان غير مسلم لا يجوز لكم ان تخالطوه مخالطة الصديق الحميم و المحب الصميم لان من لا يكون على

دينك لا يكون مصافيا لك بحسب العادة الجارية بين عموم الناس .

لا يألونكم خبالا معناه لا يقصرون فى افسادكم و ادخال المضارّ عليكم ، ودّوا ماعنتّم : معناه يحبون من صميم قلوبهم و قوعكم فى المشاق و المكاره : قد بينّا لكم الآيات يعنى الدلائل الواضحة على كشف هذا المطلب و شرحه .

* (ها انتم أولاء تحبّونهم و لا يحبّونكم و تؤمنون
بالكتاب كلّه و اذا لقوكم قالوا آمنّا و اذا خلوا
عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم
ان الله عليم بذات الصدور) *

ها للتنبيه يؤتى بها جلبا لتوجه الطرف واولاء اسم اشارة للجمع و العضّ هو تقريب الأسنان بعضا من بعض على مايتوسط بينهما و الانامل اطراف الأصابع و هذه الآية شارحة اتمّ شرح لسابقتها ومبرهنة على مضمونها بأنكم يا هؤلاء المؤمنون لصفاء بواطنكم تحبّون اولاء الخارجين عن دينكم امّا لسابقة صداقة او جوار او حلف او قرابة و لا تعتنون بمخالفة المذهب و الطريقة مادمتم ترون انفسكم غير متأثرة بما يقولون لكنّ هؤلاء المحبوبين لا يبادلونكم الصفاء و المودة و الأخلاص بل هم فى قرارة قلوبهم يبغضونكم و فارق آخر بينكم وبينهم انكم كما تؤمنون بنبىّ الاسلام و ما جاء به من كتاب تؤمنون بكل نبىّ سبقه و كل كتاب انزل قبله و هم لا يؤمنون بنبيّكم و لا بكتابه و فارق ثالث ان هؤلاء منافقون فاذا لقوكم قالوا لكم نحن مثلكم مؤمنون بدين الاسلام واذا خلوا لأنفسهم وصفا الجوّ لهم اظهروا التحرّق عليكم غيظا من تقدمكم فى دينكم و تأخرهم و توالى الأنتصارات لكم دونهم ثم توجه سبحانه الى نبىّ

الاسلام و أمره ان يقول لهم مستهينا بهم موتوا بغيظكم حسدا وكمدا ما دام المؤمنون جادّين فى ايمانهم ناصرين لدينهم ، ان الله عليم بذات صدوركم انتم و بذات صدور اولئك عالم بصفائكم و بغضائهم ٠

* ان تمسسكم حسنة تسؤهم و ان تصبكم سيئة
يفرحوا بها و ان تصبروا و تتقّوا لا يضرّكم كيدهم
شيئا انّ الله بما تعملون محيط) *

وفى هذه الآية أبان لهم فارقا آخر واوصاهم بوصيّة هى بيت القصيد فى انتصار المسلمين و انكسارهم امّا الفارق فهو ان هؤلاء بالقياس اليكم اعداء الداء فكما تبدر من افواههم كلمات العداء تظهر على سحنات وجوههم المسرّة متى تصابوا بسوء اىّ سوء كان و تظهر عليها المسائة متى تمسسكم حسنة و ايّة كانت و الأهمّ من كل ما سلف ايصاؤه لهم بأنكم اذا اردتم فلاحكم و نجاحكم و تقدّمكم رابطتم مواقفكم و صمدتم لمقاصدكم و اتقيتم ربّكم فأحللتم حلاله و حرّمتم حرامه و تقدمتم متى اراد منكم التقدم و تأخرتم متى طلب منكم التأخر فأنكم اذا فعلتم ذلك لايعود يضرّكم كيد اعدائكم ولا يهمّكم مكرهم بكم ان الله بما تعملون من خير وشرّ محيط لا يشذّ عن علمه قليل و لا كثير ٠

* (واذ غدوت من اهلك تبوّء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم : اذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) *

غدا اى مشى غدوة و بوّأه جعل له مباءة و مرجعا و مثالا و الهمّ هو التصميم و الفشل الانخذال و الخسران ، تشير هذه الآية الى وقعة احد و تاء الخطاب فى غدوت للنبىّ (ص) و المراد باهلك هنا البيت اى من منزلك و تبوّأ المؤمنين مقاعد للقتال اى تهيّأ و تعدّ لهم مواضعهم و تخطط لهم مخطّط حربك مع هذا العدوّ الداهم وهم قريش و الله يسمع ما تقوله لأصحابك عليم بدفائن ضمائرهم اذ عزمت طائفتان من الانصار او طائفة من المهاجرين و طائفة من الانصار على متابعة ابن ابى سلول المنافق المعروف فى الرجوع الى المدينة بترك القتال لكنهما لم تفعلا ماهمّتا به بل جددّتا التصميم على وفق اخوانهم و كأن الله سبحانه لم ير فى همّهما عابا عليهما و كأنه كان همّا غير مبعوث عن خبث نيّة و نفاق و لذلك قال و الله وليّهما ثم ختم الآية بما يلزم المؤمن ان يفعله فى اقداماته المشروعة وهو التوكل على الله لترتفع وحشته و اضطرابه ٠

و خلاصة ماجاء عن غزوة احد وان فصلّنا القول عنها فى كتابنا نتائج الفكر تفصيلا يليق بكاتب السيرة ان قريشا لما رجعت مفلولة من بدر الى مكة قال ابو سفيان يامعشر قريش لا تدعوا نسائكم يبكين على قتلاكم فان الدمعة اذا خرجت اذهبت الحزن فلما غزوا رسول الله (ص) يوم احد اذنوا لنسائهم فى البكاء و النياحة وخرجوا من مكة فى ثلاثة

آلاف فارس و ألفى راجل و اخرجوا معهم نسائهم فلمّا بلغ رسول اللّه ذلك جمع اصحابه و حثّهم على الجهاد ٠

فقال ابن ابى سلول يارسول اللّه لانخرج من المدينة بل نقاتل فى ازقّتها حتى يكون الرجل الضعيف و المرأة و الطفل رد ٔ وعونا و ما خرجنا الى عدوّ الاّ كان له الظفر علينا : اقول : وفى ذلك فرية واضحة فاضحة فانهم خرجوا قبل وقعة احد الى بدر فانتصروا انتصارا باهرا و مابدر بعيدة عن احد ٠

فقام سعد بن معاذ و غيره من الأوس فقالوا يارسول اللّه ماطمع فينا احد من العرب و نحن مشركون فكيف يطمعون فينا و انت بين ظهرانينا فنحن نخرج اليهم فنقاتلهم فمن قتل منّا كان شهيدا و من نجا منّا كان قد جاهد فى سبيل اللّه ٠

اقول و هذه الكلمة هى الكلمة المحنكة لافى هذه القضيه الخاصه بل فى عموم مجارى الحياة فان الأنسان اذا اتخذ التدبير اللازم بحيث لا يقال فى حقه انه اهوج كان من وظيفته التقدم فأن احرز منظوره فذاك و الاّ فهو معذور قطعا ٠

فقبل رسول اللّه رأيه فوافت قريش و رسول اللّه مع سبعماءة من اصحابه الى احد و وضع (ص) عبد اللّه بن جبير فى خمسين من الرماة على باب الشعب و أشفق ان يأتيهم الكمين من ذلك المكان و اكّد على عبد اللّه ابن جبير و اصحابه ان لا يبارحوا امكنتهم حتى لو بلغهم النصر النهائى على قريش و وضع ابو سفيان خالد بن الوليد فى مأتى فارس كمينا وقال لهم اذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب ٠

و دفع رسول اللّه الراية الى امير المؤمنين و حمل المسلمون على

مشركى قريش فانهزموا هزيمة قبيحة و انحطّ خالد بن الوليد في اصحابه على عبد الله بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجع، نظر اصحاب بن جبير اصحاب رسول الله ينتهبون سواد القوم فقالوا لصاحبهم قد غنم اصحابنا و نبقى نحن بلا غنيمة فقال لهم عبد الله اتقوا الله فان رسول الله قد تقدم الينا ان لا نبرح فلم يقبلوا منه واقبلوا يتسللون رجلا فرجلا حتى أخلوا مراكزهم و بقى عبد الله بن جبير في اثنى عشر رجلا فانحط عليهم خالد بن الوليد فقتلهم ثم اتى المسلمين من ادبارهم و نظرت قريش فى هزيمتها الى الراية قد رفعت فلاذوا بها و انهزم اصحاب رسول الله ٠

و تشعرنا هذه الحادثة فى اطار الآية المترجم عنها بنكات :

(١) ان الهمّ همّان همّ عن داعى خبث و سوء فذلك غير معفوّ عنه كهمّ ابن ابى سلول المنافق و همّ عن بساطة و صفاء و ذلك مغفور كهمّ الطائفتين المشار اليهما فى الآية ٠

(٢) ان رأى العاقل على الأخص المثالى المحنّك الناصح لا بدّ من اتباعه بعد عرضه مبرهنا نظير ما اشار به النبىّ على اصحاب ابن جبير ٠

(٣) ان مخالفة امثال الرأى المزبور نتيجته خسارات لا خسارة واحدة فان القوم بعد ان خالفوا قول نبيّهم خسروا فتحهم لأعدائهم وخسروا الغنيمة التى حاولوا. وخسروا انفسهم بالمرّة وهذه خسارات عظيمة جدّا فليعتبر اولوا الألباب بذلك ٠

* (و لقد نصركم الله ببدر و انتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون : اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين : بلى ان تصبروا و تتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الاف من الملائكة مسومين : و ما جعله الله الا بشرى لكم و لتطمئن قلوبكم به و ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) *

بدر اما اسم موضع خاص بين مكة و المدينة و اما اسم ماء هناك سمى باسم صاحبه و الأمداد هو المساعدة و الفور هو السرعه الناتجة عن قوة الداعى كفوران القدر الناتج عن قوة النار و المسوم هو الذى عليه السمة اى العلامة و البشرى هى البشارة و المراد بقوله وانتم اذلة اى قليلون من ناحية مغمورون من ناحية ثانية اذ لم يكن لهم قبل يوم بدر اسم و لا رسم سوى مجرد التسمية بالأسلام نظير هذه الادوار الخاملة : و الذلة من حيث القلة لا تنافيها العزة من حيث الروح فاتقوا الله لتكون تقواه ذخيرة لكم و نصرا وعزة و موجبة للشكر اذ تقول يامحمد للمؤمنين أليس بواف كاف لنصرتكم ان يمدكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من السماء الى الأرض ـ بلى ـ يعنى ان ذلك كاف لكم و حاصل من الله بشرط ان ترابطوا موقفكم و تخافوا الله فى التولى و الأدبار و ان يأتكم العدو بشدة و حدة و سرعة حاسمة ليأخذكم بها يمددكم لأجل تثبيتكم فى مواضعكم بخمسة آلاف اى اكثر من ثلاثة آلاف مسومين اى عليهم علائم تشعر بعظمتهم ٠

و ماجعل الله هذا الأمداد الا بشارة لكم اى خبرا سارا يطمنكم

من مستقبلكم ويشدّ من قلوبكم والآية تشعر بأن الأمداد بالملائكة كان إعدادا لا إمدادا فعليّا بحيث حصلت منه مقاتلة ومجالدة ثم اعلموا انّكم حتى مع الصبر والأمداد لا تنصرون الّا بالله والتوكل عليه والأحتماء بعزّته وتفويض الأمر الى حكمته فقد تدعو الحكمة الى النصرة وقد تدعو الى عدمها ٠

وخلاصة وقعة بدر ان رسول الله (ص) سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة وفيها ثلاثون رجلا او اربعون فندب المسلمين اليهم وقال هذه عير قريش فيها اموالهم فاخرجوا اليها لعلّ الله ينفلكموها (وانما ابيح مال الكافر لان دمه هدر فما قيمة ماله بعد اهدار دمه وامّا اهدار دمه فلأنّه معّقم لمجرى الحياة الصحيحة وكل من كان كذلك فقلعه عن عرصة الوجود شىء لازم) فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعض لأنهم لم يظنّوا ان رسول الله يلقى حربا او لأن حبّ الحياة ولو على مضض من شيمة النفوس المنحطّة ٠

وأفاد ابو سفيان خبرا من بعض الركبان ان محمّدا قد استنفر اصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر من بعثه الى مكة ليأتى الى قريش فيستنفرهم واجمعت قريش المسير وخرج رسول الله فى ليالى مضت من شهر رمضان وكان اصحابه ثلاثمأة وبضعة عشر رجلا وكان المشركون الف مقاتل او يقلّون قليلا ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض وقد امر رسول الله اصحابه الّا يحملوا حتى يأمرهم وقال ان اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل وبعد أن قتل اثنان من المسلمين حرّض رسول الله اصحابه وقال والذى نفس محمّد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الّا ادخله الله الجنّة واخذ رسول الله حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها ثم قال شاهت الوجوه

ثم نفحهم بها وامر اصحابه فقال شدّوا فكانت الهزيمة فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من اشرافهم ٠

ثم اقبل رسول الله قافلا الى المدينة ومعه الأسارى من المشركين فلمّا خرج من مضيق الصفراء قسّم هنالك النفل الذى افاء الله على المسلمين على السواء قال ابن ابى الحديد فجميع من قتل ببدر فى رواية الواقدى من المشركين فى الحرب وصبرا اثنان وخمسون رجلا قتل على منهم مع الذين شرك فى قتلهم اربعة وعشرين رجلا وقد كثرت الرواية ان المقتولين ببدر كانوا سبعين ٠

والخلاصة ان نصر الله لعبده هو ارادته الخير له دائما وابدا ولكن مقرونة بأرادة العبد لنفسه هذا الخير وجدّه فى سبيل ذلك فليست ارادة الله هنا ارادة تكوين بل ارادة حبّ وشفقة فمتى شفعت بأرادة العبد وصرامته فى تحقيق ارادته حصل من بين ذلك شىء قطعا قلّ ام كثر والأمر بتقوى الله معناه الأنقياد مع ارادة الله فان الانقياد معها محقّق الثمرة المتوخاة بقلة او بكثرة كما اشعرنا فاذا تحققت الثمرة كان المجال للشكر عليها متسعا ٠

* (ليقطع طرفا من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا
خائبين : ليس لك من الأمر شيء او يتوب عليهم
او يعذّبهم فانهم ظالمون) *

القطع هو الأبطال هنا يقال قطعه عن العمل اذا صيّره باطلا من هذه الناحية لا يستفاد منه والكبت هو الخزى والبوار : والخيبة هى اليأس : وارتباط هذه الآية لأجل تصحيح تركيبها وصحة معناها هكذا يكون ، وما النصر لأىّ احد كان الّا من عند اللّه القادر على نصر من يريد الحكيم فى كافة تصرفاته ونصره تارة يكون لأجل ان يهلك طرفا وجماعة من الذين كفروا ليخفّ ميدان الكافرين من غوغائهم واخرى يكون بخزيهم وخذلهم أمام المؤمنين حتى ينقلبوا خائبين من مغالبتهم وثالثة يوفقهم للتوبة اليه فى هذه الدنيا فيعودون مؤمنين بعد أن كانوا كافرين مدعوّا عليهم بالفناء والهلاك ورابعة يرخى لهم فى دنياهم ويعذّبون فى أخراهم لاستمرارهم ظالمين لأنفسهم .

فأنت يانبىّ الاسلام ليس لك من امر هذه المطالب شيء لا الذى نقطعه وانت قد لا تريد قطعه او نكبته وانت لا تكتفى بخزيه فقط او نوفقه فيما بعد للتوبة وانت تريد القضاء عليه فعلا او نبقى عليه ونرخى له وانت تجد من وجوده مزاحمة وانّما امر ذلك الى اللّه سبحانه الحكيم فى كافة تصرفاته فيكون قوله ليس لك من الأمر شيء اعتراض بين ماقبله وما بعده .

وخلاصه الآية ان اللّه سبحانه لعلمه بالبواطن وماتكنّه الضمائر له مع عباده المنحرفين تارات اربعة بحسب علمه وتوزينه لدخائلهم :

(١) اهلاك فريق منهم لان فى وجوده مضايقة تامّة للحق مع اليأس

عن نزوعه من ذنبه واصلاح شأنه ولو فيما بعد ·

(٢) كبت فريق آخر واخزاؤه وابقاؤه حيّا وهذا يتصور على قسميـــن قسم منه انه يرجى له منقلب صحيح وكبته بالفعل ايقاف لأذاياه وقسم منه انه تشديد للتنكيل به فان اتلافه مرة واحدة اراحة له ·

(٣) سكوته عن بعض الكافرين لان كفرهم كان عن تضليل من الغواة لا عن خبث نفس وهؤلاء قد يلتفتون الى الهداة فيهدونهم وتحصـــل منهم التوبة ·

(٤) الأرخاء لهم بدون تعذيب ليزدادوا اثما وتعذيبا فى الآخرة ·

وهذه المقاصد قد تضيع على غير الله سبحانه فلذلك يرى فى نفسه غير مايراه الله تعالى ·

* (ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمـــن يشاء ويعذّب من يشاء والله غفور رحيم) *

هذه الآية كعلة وملاك لتفاصيل الآية السابقة التى كان مفادها انه يهلك تارة ويخزى فى الدنيا تارة اخرى ويتوب ثالثة ويعذّب رابعة كـل ذلك على وفق الحكمة ولأنّ له مافى السموات ومافى الأرض بطور ملـــك خالص يجوز له ان يتصرف به كيف يشاء ولذلك قال يغفر لمن يشـــاء ويعذّب من يشاء لكنه لحكمته لا يغفر لمن لا يستحق المغفرة ولا يعـــذّب من نزع يده من الذنب وأناب اذن فلايشاء الّا ماتقتضيه الحكمة ، وسئل بعض العارفين ان الله كيف يعذّب عباده بالذنوب مع انه واسع الرحمة فأجاب ان رحمته لاتغلب حكمته ·

* (يا ايّها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا
مضاعفة واتّقوا الله لعلّكم تفلحون :واتقّوا النار
التى أعدّت للكافرين :واطيعوا الله والرسول
لعلكم ترحمون) *

سبق تحريم الربا فى سورة البقرة وأكّد الآن بهذه الآية وكونه اضعافا مضاعفة معناه ان الربا بوروده على اصل المال اوّلا وعليه وعلى ما تحمّل الأصل من زيادة بعد تجاوز وقته ثانيا وهلمّ جرّا يكون اضعافا متكررة بالنسبة الى اصل المال الذى سلّمه المرابى للمقترض ٠

وخافوا الله فى امثال هذه المحرّمات بالأنتهاء عنها لعلّكم تفلحون فى الدارين وخافوا الله ايضا للنار التى اعدّها للكافرين به وحكم المنحرفين عن نظمه بما حكم الكافرين من دخولها وان اختلف الفريقان فى الخلود وعدمه واطيعوا الله فى اوامره والرسول فيما يأمركم به لعلّكم من طريق هذه الطاعات تكونون مشمولين لرحمته وفضله ٠

* (وسارعوا الى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها
السموات والأرض أعدّت للمتّقين : الذين ينفقون
فى السرّاء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين
عن الناس والله يحبّ المحسنين) *

المسارعة هى المبادرة والمسابقة واقتناص الفرص والتعجّل الى الشيء متى تسنّى الوصول اليه والمنظور بذلك التيقظ الى ما يوجب رحمة الله ولطفه ويحرز رضاه ويجلب توجهه هذا من ناحية معنوية وامّا من وجهة ماديّة فالجنّة هى مجمع النعم ومنبعث الخيرات والرغبات النفسية الطاهرة وكون سعتها كعرض السموات والأرض كناية عن عظمتها ورخائها وليس المنظور بمثل هذه التعبيرات مطابقة عين اللفظ لأن ذلك غير مراد قطعا وقد اشبعنا هذا الموضوع بحثا فى رسالة مستقلة نشرناها ضمن البحوث والآراء من شرح نهج البلاغة ·

وامّا اعدادها فهو تقديرى ان اريد بها الجنّة التى هى مباءة الناس يوم المعاد ذلك لان الله افادنا فى آيات مفصّلات كثيرات ان قيامة القيامة معناها تغيير هذا العالم بشراشره وعليه فلا معنى لخلق الجنّة فعلا وتغييرها بقيام الساعة وابداعها من جديد لان خلقها الأوّل يكون لغوا ·

والمتقون لله من بعض سماتهم انهم ينفقون على الخدمات الفرديّة والأجتماعية التى ندب الله والوجدان اليها ما يمكنهم انفاقه فى يسر وعسر فى فرح وحزن والذين لا يماشون عواطفهم فى الغيظ والرضا بل يتحرون المتانة والرزانة مهما استطاعوا اليها سبيلا والذين تتفوّق روحيّاتهم العالية على تسويلات نفوسهم فيعفون عمّن يقدرون على انزال

العذاب به تشفيا وترضيا لنفوسهم وكل هؤلاء محسنون والله يحب المحسنين .

* (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم
ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر
الذنوب الّا الله ولم يصرّوا على مافعلوا وهم
يعلمون : اولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربّهم وجنات
تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم
أجر العاملين) *

هاتان الآيتان عطف على ماسلف من بيان حال المتقين فقال تعالى ومن المتقين ايضا اولئك الذين تختلهم نفوسهم من عقولهم فالعين من جانب والأذن من جانب واللسان من جانب وشهوة البطن والفرج من جانب والنزوات الحمقاء من جانب فيواقعون الفاحشة ويلابسونها والمراد بالفاحشة المعاصى التى تلفت النظر او يظلمون انفسهم وهذا من عطف العام على الخاص لأنّ ظلم النفس يكون بكلّ معصيةٍ جليّة تكون للأنظار فى تسفلّها ام لا وقد يكون المراد بالفاحشة مايكون مع الغير كالزنا واللواط والقذف والسباب وما الى ذلك وبظلم النفس مايخصّ نفس الأنسان بلا تعدّ الى الغير كأبقائها جاهلة متسفلة ، ثم بعد ذلك ينتبهون من غفلتهم ويلومون انفسهم ويتحرقون على ماصدر منهم ويطلبون المغفرة من ربّهم على مابدر منهم لعلمهم ان لا مقام يلجأاليه فى العفو غير الله تعالى لان عفو غيره لا يؤثر فى ازاحة هذا العار وان تصور العوام ان حقّ الزنا بذات البعل مثلا للزوج فى حال ان الحق فى ذلك لله سبحانه وعفو الغير وعدمه فاقد للأثر كأسقاط القضاة

المرتشين حقوق الناس بالرشوة ·

وأقلعوا بعد تذكرهم لمعصية ربّهم عن الاستمرار حال كونهم عالمين بوجه العصيان غير جاهلين له لان الجاهل بالشيء لا يعرف فيه حزازة حتى يقلع عنه وليس معنى ذلك ان الجاهل معذور على طول الخط لأن جملة من الناس جهلهم تقصيريّ لا قصوريّ لعزوبهم عن التكليف والمكلف ومثل هؤلاء يعاقبون بلا ريب — هلّا تعلّمت —

اولئك بالوصف المارّ متى استغفروا ربّهم غفر لهم وتفضّل عليهم لطيب انفسهم وطهارة ضمائرهم من درن الخبث بجنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بعد دخولها ونعم المغفرة من الله وملابسة الجنّة أجر العاملين ·

* (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين : هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) *

السنن جمع سنّة وهى الطرائق وهذه الآية من اهمّ الدلائل القائمة على لزوم اعتبار الأنسان بالمجارى الحيوية وما يطفح فيها ويرسب يخاطب الله بهذه الآية معاصرى نزول القرآن بأنه قد سبقتكم أجيال وتقدمت عليكم ازمان وصبغت تلك الأجيال والأزمان الوان حسبما اتخذت قطعان الجماعات لها من اخلاق وماجرّت لأهلها من سعادة وشقاء وانتم بعد ان تمعنوا النظر فى ذلك تستطيعون ان تفهموا معنى الحياة الصحيح وانّ اىّ خلق يكون نافعا وايّا يكون ضارّا ·

ومن جملة ما تنظرون فيه مسايرة الأمم لأنبيائها وان المصدّق بهم كيف نجح وافلح ، والمكذّب لهم كيف تدهده وتدهور وانقطع عن ملابسة

الحياة فهذا الارشاد منّا بيان للناس وهداية الى طريق السعادة وموعظة لمن اقبل عليها واحبّ تفهمّها امّا المعرض عن الشئ غير الكائن بصدده فهو بالنسبة الى سوق المواعظ له كالسالبة بانتفاء الموضوع .

وفى الخلاصة ان كلّ انسان شاهد بأحداقه على طول مسافة عمره الوانا من الحياة لا تعدّ ولا تحصى فى نفسه وغيره من سلم وحرب وفقر وغنى وعزّة وذلّة وضحة ومرض وحزن وسرور وشبيبة وشيخوخة وما سوى ذلك وشاهد من الوان الناس برّا وفاجرا تقيا وشقيا ملكا وسوقة الى غير ذلك وبأحداقه رأى ان مسير الأكوان لا ربط له بالشقىّ والتقىّ والفقير والغنى والأمام والمأموم وان الجميع لعبت بهم ايدى التصاريف فلا ذو اللباقة يسّرت له لباقته العسير ولا الظالم هوّن عليه مشكلات الحياة ظلمه وتعدّيه مع ما يدرك بأمّ عينيه أنّ التقىّ خير عند المجتمع من الشقى والعادل خير من الظالم والصادق احسن حالا من الكاذب هذا من الوجهة الدنيوية المحضة وامّا الذى عند الله فهو من الوضوح بمكان ومع هذه المقدمات يلزم كل انسان ان يكون مستقيما لا منحرفا والذى ذكرناه من شواهد الأعتبار محسوس من غير تجشّم سير فى الأرض ولا نظر فى الآفاق والآية امرت بالسير فيها ليقف الانسان على ما هو العجيب الغريب لاتساع الكون وتنوّع عجائبه وغرائبه .

* (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين
: ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك
الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين
آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين) *

الوهن هو الضعف والمسّ هو اللصوق والقرح يقال لأثر الجراحة والمداولة هى تغيير الشئ عن زمانه ومكانه الى زمان ومكان غيرهما بأخلاء الأوّل وملأ الثانى والشهداء يكون جمع شهيد وهو المقتول فى سبيل الحقّ ويكون جمع شاهد وهو حامل الشهادة ٠

والخطاب للمسلمين الذين لا بسوا وقعة احد فخسروها فقال لهم ربّ العزّة لا تضعفوا بانكساركم فى هذه الواقعة ولا تحزنوا على ما اصابكم منها من تلف الاموال والانفس فانّ لكم فى مستقبلكم علوّا وارتفاعا على من اوقع بكم ذلك لكن بشرط ملازمتكم للأيمان واندفاعكم عنه ٠

فان انهياركم فى احد انّما حصل لكم لتجافيكم عمّا امركم به الرسول من ملازمة مراكزكم وسدّ ثغركم ومع هذا فلا يأخذ منكم الجزع مأخذه فأنكم ان يمسسكم قرح فى هذه الواقعة فقد مسّ القوم وهم كفار قريش قرح مثله فى بدر و فى احد ايضا ،وتلك اشارة الى حاضر فى الذهن يفسرّه قوله :الأيّام نداولها :اى نجعلها لهذا مرة وبنفعه ولذلك اخرى اختبارا وامتحانا لثابت الأيمان ومتزلزله ٠

وهذه الأختبارات لمّا واجهت الطغام واغلب افراد البشرية على هذا الوصف قلّت مفعول الايمان فى الناس لأن اغلب الناس قشريون بسطاء ينظرون الى الظواهر ويسايرونها بأىّ لون اصطبغت به وليعلم الله من طريق هذه المداولة الذين آمنوا اى ثبتوا على ايمانهم او زالوا

عنه و ليس معنى ذلك حصول العلم لله من طريق الاختبار بأن يكون جاهلا بحال الشیء و من طريق تجربته يحيط به علما بل معناه اظهار معلومه للناس ليقفوا عليه و يعرفوا المؤمن الواقعی من غيره ·

و يتخذ منكم انتم المؤمنون الواقعيون الذين شهدتم كيف ثبت المؤمن الصحيح مع ايمانه و كيف انجرف غيره عن مدعّاه شهودا على الطرفين يوم الوقوف بين يديه و الوفود عليه عند الحساب و الله لا يحبّ الظالم لنفسه الذی يدّعی جنوحها لشیء و لكن فی وقت الأختبار يزّم بها عنه ·

* (و ليمحّص الله الذين آمنوا و يمحق الكافرين) *

التمحيص للشیء تحقيقه لتخليص الخليط منه لتصفو حقيقته من كل خليط اجنبیّ و المحق هو الأتلاف و الاهلاك و الأعدام و هذه الآية من لواحق الآية السابقة و مفادها انّ مداولة الأيّام بين الناس كما تكون لتمحيص المؤمنين و طرد الخليط عن الصافی الصريح كذلك تكون لمحق الكافر و اتلافه و تخليده فی العذاب ·

* (ام حسبتم أن تدخلوا الجنّة و لمّا يعلم اللّه
الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين : و لقد
كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه
و انتم تنظرون) *

ام فى هذا المورد ككثير من نظائره انقطاعية و الأستفهام للأستبعاد و الاستنكار و الآية من حيث التركيب النحوى يجب ان تكون بهذا اللون أحسبتم ان تدخلوا الجنّة و لمّا يبرز اللّه علمه للناس بكم فى انكم تنساقون مع امره بالجهاد لعدوّكم و كذلك يبرز اللّه علمه بكم فى صبر الصابر منكم على بلائه و انخذاله عنه ٠

فقوله يعلم الصابرين بالنصب بأن مضمرة تنسبك مع ما بعدها بمصدر و تكون الواو عاطفة له على مفعول و لمّا يعلم اللّه ، و مفاد الآية ان الجنّة وهى الجزاء الضخم فى مادّته لا تكون للمكلف بمجرد تظاهره بالأيمان و لىّ لسانه بالأمتثال بل لا بّد لتحصيل هذا الجزاء من تحمّل مشاق من جملتها جهادكم فى سبيل اللّه و الصبر على اللّه و ها انتم جملة منكم كانوا يتظاهرون بالأيمان و يظهرون الانتصار له و الموت فى سبيله فلمّا رأوه فى ساحات القتال أرعبوا منه و فرّوا عنه نظير فرارهم فى غزوة احد عن رسول اللّه (ص) وقوله و انتم تنظرون جملة حاليه مؤكده لقوله فقد رأيتموه اى فقد رأيتموه رؤية عين فلمّا تحققتموه اكذبتم انفسكم فى امانيكم

و مضمون الآية انّ الأهداف لمّا كانت ذات قيمة و المقاصد عالية كان التعب عليها وفيرا و تحمّل المشاق كثيرا و من هنا قال الشاعر :

و اذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرامها الأجسام

و ليعلم ان المعنويات نظير المادّيات بالضبط فى ان التوفر من

الثانية قائم بالمتاعب و الجهود الجبّارة فالاولى نظير ذلك فلا يشرف الأنسان و لا يكرم و لا يحصّل المقام العالى الاّ بأجهاد نفسه فى طلب المعالى فلا تحصل الكرامة فى الحياة بدون مجاهدة و صبر كمالا تحصل المادة من دون تعب و نصب و نيل درجات الآخرة بالنسبة الى الدنيا كذلك ٠

وكما انّ تمنّى المال لا يثمره كذلك تمنّى المعالى لا يحرزها وكذلك تمنّى الآخرة لا يهيّؤها و كثير اولئك الذين يكتفون لنيل مقامات الآخره بالدعاء و التضرّع و امّا فى المراحل العملية المثمرة فأصفار خالصة و هؤلاء سوف تكذّبهم ظنونهم فان الدعاء و التضرع لا يتجاوز ان يكون تكديا محضا و التكدى لا يثمر بضاعة مرموقة و لا تشعشعا فى المال ٠

و اصل الخطاب فى أحسبتم لمسلمى عصر نزول القرآن و مفاده لا يتوهمن احد منكم ايها المسلمون انكم باعتناقكم لكلمة الاسلام توفرون لأنفسكم مستقبلا زاهيا كبيرا بثمراته فان الثمن الغالى لا يدفع الاّ فى مقابل مثمن مهّم و المثمن المهّم ليس هو التظاهر بكلمة الاسلام فان ذلك من البساطة بمكان و انّما المثمن هو تحقيق الاسلام عمليا فى كافة مجالاته و اهمّها تقوية العقيدة و تثبيتها بين الناس باستنتاجها و استثمارها و استنتاجها هو عزّة الدين و حرّية افراده فى التظاهر و استقلالهم فى حوزاتهم الاسلامية و تشعشع اسمهم و تطبيق برامج الاسلام على بلادهم فعلا للواجب و تركا للحرام اعلاء للفضيلة و طردا للرذيلة كما هو الداعى الأصلى لبعثة الرسل عامّة و لرسول الاسلام خاصة و الاّ فدين واهن وعقيدة لا تتجاوز الأدمغة وعمل منحط لا يفترق فيه الموّحد و الملحد لا يحسب دينا و انما هو مهزلة من مهازل الحياة ٠

* (و مامحمد الاّ رسول قد خلت من قبله الرسل
أفأن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب
على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا و سيجزى الله
الشاكرين) *

نزلت هذه الآية على اثر وقعة احد و انهزام المسلمين فيها باللون الذى اسلفنا خلاصته و فى هذه الحادثة شجّ وجه رسول الله وكسر انفه و رباعيته وصاح صائح قتل محمد و فشا ذلك فى الناس فقال بعض المسلمين ليتلنا رسولا الى عبد الله بن ابىّ (المنافق المعروف) حتى يأخذ لنا امانا من ابى سفيان و بعضهم جلسوا والقوا بأيديهم و قال أناس من اهل النفاق ان كان محمد قتل فالحقوا بدينكم الأوّل فقال عمّ انس بن مالك ياقوم ان كان قد قتل محمّد فربّ محمّد لم يقتل و ما تصنعون بالحياة بعد رسول الله فقاتلوا على ماقتل عليه وموتوا على مامات ·

قال كعب بن مالك انا اوّل من عرف رسول الله حيّا رأيت عينيه تزهران تحت المغفر فناديت بأعلا صوتى يامعشر المسلمين ابشروا فهذا رسول الله حى سالم فأشار الىّ ان اسكت فانحازت اليه طائفة من اصحابه فلامهم النبىّ على الفرار فقالوا يارسول الله فدیناك بأبائنا و امهاّتنا اتانا الخبر بأنك قتلت فأرعبنا و ولينا مدبرين فأنزل تعالى و مامحمد الاّ رسول بمعنى اننّا لم نقل فى محمد انه حىّ لا يموت ولا يصاب بالمؤلمات بل قلنا انه رسول و سيط بين الله وعباده يؤدى اليهم رسالة ربّهم و الرسول بشر تطرأ عليه كافة الحوادث فيجوع و يظما ويصح و يمرض و يموت على فراشه او يقتل ،قد خلت من قبله الرسل : و سبقته مجيئا الى الوجود و ذهابا عنه وكان ذلك فيهم غير مخلّ بعقيد تكم بهم

فعلام اضطربتم عندما سمعتم بموت محمّد و قال قائل من بينكم لو كان نبيّا لما مات ٠

هذا و محمّد وسيط و موت الوسيط لا يرتبط بمن ارسله و جعله واسطة ايصال، محمّد ان مات فالله حيّ لا يموت على طول تسلسل الأجيال و ايمانكم انّما كان بالله على يد هذا الوسيط فعلام استعدّ كثير منكم للقفز من الأيمان الى الكفر الذى كان عليه و كل من اراد ان ينقلب على عقبيه و يرتدّ عن دينه فلن يضرّ الله شيئا كما انه لو بقى على ايمانه لم ينفع الله بشىء و انّما نفع نفسه و سيجزى الله الشاكرين له بلسان بقائهم على الأيمان به فى المآزق المحرجة ٠

* (و ما كان لنفس ان تموت الاّ بأذن الله كتابا
مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها و من يرد
ثواب الآخرة نؤته منها و سنجزى الشاكرين) *

يشجّع الله فى هذه الآية المكلفين بأن الجهاد الذى تدعون اليه للذبّ عن حيثياتكم العقائدية الاجتماعية الحيوية ليس من لازمه على كل حال موت المجاهد البارز الى سوح القتال حتى تنكصوا الى الوراء فكم من مناضل باشر الحروب عشرات المرّات فلم ينقص من وجوده شىء و كم من انسان أخلد الى الراحة و الانكماش فى جحور البيوت فأتاه الموت مبكّرا كل ذلك لأن آجال الناس مقدّرة مكتوبة ٠

و المجاهد و كل من يعمل بأرادة الله ان كان الأهمّ من دواعيه للعمل رخاء دنياه فنحن نؤتيه قسطا منها و الدليل عليه ان مسلمى صدر الاسلام لمّا جدّوا فى الدفاع و صدقوا فى المناجزة توّسعت حالهم المادية الى ابعد حدّ يتصوّر فبينما كان الرجل الأعرابى قبل اسلامه

تتعاوره الحسرات على لقمة سائغة بسيطة اذابه بعد مناورات الاسلام يحسب فى اهل الثراء الطائل ·

و من كان داعيه ثواب الآخرة فحقّه محفوظ فيها ،و بما أنّ هؤلاء شاكرون لأنعم اللّه بامتثال اوامره فانّ اللّه يجزيهم على شكرهم له وليس المنظور ان المطيع لربّه ان كان اهمّ دواعيه تيسير امور حياته و نيسّرها له انه لا يستحق فى الآخرة شيئا و هكذا من كان هدفه الآخرة ونحفظ له حقه فيها ليس المنظور به حرمانه فى هذه الحياة و انما ذكراللّه ما ذكر جريا على ما اهتمّ به الممتثل لاعلى حصر حقه فى ذلك ·

* (و كأيّن من نبىّ قاتل معه ربّيون كثير فما وهنوا
لما اصابهم فى سبيل اللّه وماضعفوا وما استكانوا
و اللّه يحبّ الصابرين : و ماكان قولهم الاّ أن
قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا و اسرافنا فى امرنا
و ثبّت اقدامنا و انصرنا على القوم الكافرين :
فآتاهم اللّه ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة
و اللّه يحبّ المحسنين) *

و فى هذه الآية نوع تشجيع آخر و حضّ للمؤمنين على الجهاد فى سبيل اللّه و العزّة و الكرامة و كأيّن بمعنى كم الخبرية و الربّيون منسوبون للرّب اى المختصون به لمعرفتهم بشىء من شأنه ــ ما عرفناك حق معرفتك ــ و انمّا كسرت الراء سماعا لاقياسا و الوهن هو الأسترخاء و الكسل و الأستكانة الذّلة الجارّة الى الانقياد للمعتّز بنفسه و الأسراف الأفراط و التساهل المنجرّ الى فوت مالا ينبغى فوته ·

و مفاد الآية ان الأنبياء الذين ناجزوا العتاة فى تثبيت كلمة اللّه

فى الارض بين عباده لم يعدموا الأصحاب المخلصين و الأحرار من المؤمنين فقد قاتل معهم فى سوح الميادين ربانيّون كثيرون و أصابهم فى هذا المجال ما يصيب غيرهم من موت اعزائهم و الجراح فى انفسهم فماوهنوا ولا كسلوا من وقوع ذلك بهم ولا ابدوا من انفسهم ضعفا او خضوعا للخصم بل ثبتوا و صمدوا فى كل تلك المجالات ولا شكّ ان اللّه يحب الصابرين على الوصف المذكور وهوءلاء لم يكتفوا فى اطاعتهم لمولاهم بتلك المواقف و ذلك الثبات بل كانوا دائما يقولون حذرا من التقصير الذى قد يكون منهم ولا يشعرون به ربّنا اغفر لنا ذنوبنا التى قد نكون لا نتميّزها حين ارتكابها فان الربّانى لا يرتكب ذنبا وهو قاصد له وافراطنا الذى يجرّبنا الى التساهل فيما لا نعرفه من وظائفنا و ثبّت اقدامنا فى ميادين العلم و الجهاد فى سبيلك و انصرنا على المنحرفين الضالّين الملازمين لضلالهم ٠

و لا شكّ ان كل مكلّف يحمل هذه الروح الطيبّة المرنة النزيهة يؤتيه اللّه حسبما يراه من مصلحة عبده ثواب الدنيا و متعتها و جاهها و تشخصها و حسن ثواب الآخرة التى هى المقصد الأقصى و اللّه يحبّ المحسنين الى انفسهم احسانا عقلّيا ر لا ينحصر فى الأحسان اليها بالماديات و الشهوات ٠

و فهرست مفاد الآية يا اصحاب محمّد كم من نبىّ سابق على زمان نبيّكم قاتل معه لأجل تحقيق الحق بين الخلق ربانيّون مثاليون يزنون الحقيقة بماهو ميزانها فما استرخوا ولاكسلوا لما اصابهم فى اعزّائهم و فى انفسهم لمّا كان ذلك فى سبيل اللّه وما ضعفوا عن المقاومة لمّا اخذت منهم المصائب مأخذها بل بقوا نشيطين كما لم يلقوا بأنفسهم فى احضان العدّو لمّا خسروا موقعتهم معه بل ثبتوا و واصلوا سيرهم

معه جهادا و دفاعا و هم على هذه النكايات التى تصيبهم و تمضّ بهم و الصمود الذى يبدونه من انفسهم فى قبال عدّوهم لم ينبسوا ببنت شفة تشعر بتذمرهم بل كل ماكانوا يقولونه هو دعاؤهم ربّهم ان يغفر لهم ما لعلّه كان تقصيرا منهم فى حق عقيدتهم و تساهلهم فى امرهم وان يزيدهم طمأنينة و ثباتا و استقامة و ان ينصرهم على القوم الكافرين حتّى ينتشر الحق بين الخلق و اللّه سبحانه لمّا شاهد منهم الصدق آتاهم ثواب الدنيا واهمّ مافيها عزّتها و سمعتها و جاهها و حسن ثواب الآخرة وهو السعادة الدائمة بكل ألوانها و اللّه يحبّ المحسنين لأنفسهم بجلب السعادة لا المسيئين لها بتقريبها من الشهوات الدنيئة المبعدة لها عن الصفات الرفيعة .

* (يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا
يردّوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل اللّه
مولاكم و هو خير الناصرين) *

هذه الآية قد تحمل على الملاك العام وهو تحذير المؤمنين من اطاعة الكافرين فيما يشيرون به عليهم فى الأمور الأعتقادية او ما ينجرّ ولو بالأخرة الى ذلك لان الكافر بالأمس و اليوم على قسمين قسم يعتقد بدين خارج دين الاسلام كاليهودية و النصرانية و قسم ملحد بالأديان كلّها و كلا القسمين عنصر هدّام بالنسبة الى المسلم وعلى كل حال فأن اطاعة المؤمنين لهؤلاء بطرف جلّى او خفىّ مما يجعل المؤمن ضعيفا فى دينه متهما لعقيدته و الأتهام فى العقيدة ينجرّ الى الشك فيها و بالنهاية الى نبذها وعدم الأعتناء بها بل لا يجوز للمؤمن ان يعتدّ بولاية احد و اطاعة احد الاّ بولاية اللّه و طاعته و الركون اليه والأعتداد

بوصاياه و مواعظه و تكاليفه فانه خير الناصرين لبعد نصرته عن الأنحياز و الانتهاز والمنتصرون الآخرون لا ينتصرون الا لغاية يستهدفونها ممّن ينتصرون له و لقدرته الواسعة التى من طريق سعتها يستطيع بألوان عديدة ان ينصر عبده بالظاهر و الباطن و القاء الرعب فى ذهنية الطرف و تقوية من ينتصر له ٠

و كل الانهيارات التى لابست الأجيال الاسلامية على الأخص هذه القرون المتأخرة التى سلخت المسلم من دينه لا قسرا و جبرا بل تسويلا و خداعا نتيجة لايمان المسلم بالكافر و اعتماده عليه فى كافة اموره الحيوية و الأجتماعية و العقائدية و السياسية ولا شكّ ان الكافر لا يعطى نفسه للمسلم وهو باق على اسلامه بل يسعى السعى كلّه حتى يفارق بينه و بين عقيدته ليسهل اخذه ولقّه و هذا ماشاهدته عيون كل الناس فى هذه الأزمنة التى حاربت العقيدة الأسلامية بالوان شتّى بفلسفتها الألحادية بمعارفها الداعية الى الخلاعة بأنتاجاتها الجارّه الى التسّفل بسياستها الخدّاعة بمساعداتها المادّية التى ترضخ للمأجورين حتى يطيحوا بالدين و المتدينين ٠

كما قد تحمل الآية المعنونة على الملاك الخاص وهو نهى المؤمنين (بالنسبه الى غزوة احد) عن اطاعة الذين قالوا لهم ان كان محمد نبيّا لم يقتل و قد قتل فعودوا الى ماكنتم عليه من دين اسلافكم اوليت لنا رسولا الى ابن ابّى ليأخذ لنا ميثاقا من ابى سفيان حتى لا يحيق بنا ماحلّ بأخواننا الذين قتلوا فى هذه الواقعة ٠

فأنهم بأطاعتهم لهؤلاء المهرّجين يعودون بعد الايمان مرتدين خاسرين لأتعابهم الماضية و لمستقبلهم عند اللّه سبحانه و فى المجتمع بل من لازمهم ان يتولوا اللّه خاصّة فانه حيّ لا يموت و قادر لا يهن وهو

خير لهم من ابى سفيان و غيره ممّن يظنون به الانتصار لهم اذا ركنوا اليه لانّ ابا سفيان و نظرائه انتهازيون يأخذون من الطرف فوق ما يعطون و الله يعطى عبده بلا أن يأخذ منه ولأنّ ابا سفيان و نظرائه محدودوا القدرة و الله سبحانه لا حدّ لقدرته و ان ينكسر عبده فى موقف فلأرادة اختباره لا لأخزائه او التوهين به ٠

* (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا
بالله مالم ينزّل به سلطانا و مأواهم النار وبئس
مثوى الظالمين) *

يهدف سبحانه فى هذه الآية الى ان الكفر مغلوب بالمنطق على كل حال غالبا كان الكافر ام مغلوبا فان غالبيّته الظاهرية لاقيمة لها فى الواقع لكونه مرعوبا بالمنطق يدلى به اليه انّما المقصر فى هذا المجال هو المؤمن المنخذل بنفسه المنكمش براحته القشريّة ٠

و منطق الله الغالب فى هذا الباب مفاده ان الكافر يتعبّد بالممكن و الممكن ضعيف من كافّة جوانبه و مهما كان فى مادّته عظيما كالشمس و القمر و سائر الكواكب ام حقيرا كالحجر ينحت صنما ثم يتخذ معبودا و القوىّ هو علة علل كل الموجودات كما تشعر به عناوينه و السلطان هو الحجة و البرهان ٠

و قد تكون الآية هادفة الى منظور خاص وهو القاء الرعب فى قلوب مشركى الجزيرة بعد انتصارهم فى وقعة احد وكان الواقع كذلك فأنّهم انكسروا بعدها مرّات حتى آمنوا طوعا فى نهاية المطاف ٠

و الخلاصة ان الكفر تارة ينظر به المبدأ و العقيدة بالخالق و توابعها و تارة ينظر به النظام الحيوى امّا الكفر بالمبدأ فصاحبه

مرعوب بالمنطق الجلى والحجة القائمه ويكفى فى محكوميته ان الكون اثر وكل اثر من نفسه حاكم بلزوم المؤثر ، و امّا الكفر المنظور به النظام الحيوى فالكافرون بهذا المعنى و ان فتحوا و أرعب غيرهم اولئك الذين يدعون الى العفاف و النجابة و الصدق و الأستقامة لكن النتائج السيئة سوف تطوّح بكراماتهم و بالأخرة بمجتمعاتهم و تمرّ عليهم حياتهم .

و الآية و ان حققّت مفادها فى كفرة عصر القرآن وهى بالفعل لم تحقق مثل ذلك المفاد بالنسبة الى كفرة هذه العصور الاّ ان ذلك سوف يتحقق بالتدريج حيث ينسلخ الاجتماع البشرى بحكم التفسّخ من كافة حسناته و يصبح كالحيوان الهامل فى كل شىء من صفاته واذا خرج الانسان من انسانيته و التحق بعالم الوحوش فذلك اقصى ما يمكن من تنزّله معنويا و ان ارتقى مادّيا .

* (و لقد صدقكم الله وعده اذا تحسّونهم بأذنه
حتى اذا فشلتم و تنازعتم فى الامر و عصيتم من
بعد ما أراكم ماتحبّون منكم من يريد الدنيا
و منكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم
و لقد عفا عنكم و الله ذو فضل على المؤمنين) *

هذه الآية مربوطة بوقعة احد وكون الله صدقهم وعده بالانتصار حقّ فان المسلمين فى اوّل مقارعتهم هزموا المشركين و اجلوهم عن مراكزهم و غنموا اموالهم و لم يقو عليهم المشركون حتى اخلا اتباع عبد الله بن جبير مراكزهم فالمسلمون انّما قتلوا انفسهم بأيديهم ٠

و معنى تحسّونهم تقتلونهم بتيسير ذلك لكم حتى اذا فشلتم و تأخرتم عن تأكيد النبىّ لكم بملازمة مواقفكم و تنازعتم مع ابن جبير هو يقول لكم بلزوم الملازمة و اطاعة قول النبىّ و انتم تقولون له هؤلاء اخواننا يغنمون و نحن ان رابطنا مراكزنا نبقى بلا غنيمة و عصيتم امركم من بعد ما اراكم الله النصر على اعدائكم ٠

و كان هذا النزاع بينكم و بين ابن جبير لان منكم من يريد الدنيا و الغنيمة و منكم من يريد الآخرة و طاعة نبيّه و اميره ثم صرفكم انتم الثابتون مع رسول الله عن المشركين يعنى لم يوجب عليكم استمرار مطاردتهم لان فى ذلك فنائكم و لكن اوجب عليكم الدفاع عن نبيكم و أنفسكم ٠

كل الذى صدر من فرار و ثبات و مخالفة لأمر النبىّ (ص) و ابن جبير كان اختبارا منه تعالى لكم ليتميّز امام الانظار المؤمن الصلب من المؤمن المتراخى و المدّلس المنافق من المؤمن الصريح ولقد عفا عن المتراجع

منكم و المخطئ الذى جرّ به خطأه الى تلف نفسه و تلف غيره و اللّه ذو فضل على المؤمنين الذين لا يخلو جمعهم من بسيط و غرّ و قليل معرفة بما يصلحه و اخوانه .

* (اذ تصعدون و لا تلوُن على احد و الرسول
يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غمّا بغمّ لكيلا تحزنوا
على مافاتكم و لا مااصابكم و اللّه خبير بما
تعملون : ثم انزل عليكم من بعد الغمّ أمنة
نعاسا يغشى طائفة منكم و طائفة قد اهمّتهم
انفسهم يظنّون باللّه غير الحق ظنّ الجاهلية
يقولون هل لنا من الأمر من شئ قل ان الأمر
كله للّه يخفون فى انفسهم ما لا يبدون لك
يقولون لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا ههنا
قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم
القتل الى مضاجعهم و ليبتلى اللّه مافى
صدوركم و ليمحّص مافى قلوبكم و اللّه عليم بذات
الصدور) *

هاتان الآيتان تعربان عن جريان الهزيمة و منويّات حضّار وقعة احد من مؤمن و منافق يقال ان الأصعاد يكون بالسير فى مستوى الأرض و الصعود انّما يكون فى الأماكن المرتفعة و ألوى عليه اذا عرّج عليه و الغمّ هو انقباض النفس والأمنة الأمن نفسه و مفاد الآية اذ تفرّون عن رسول اللّه و لا تعرّجون على قريب منكم اوبعيد اغراقا فى الفرار والرسول ينادیكم من ورائكم وهو ثابت فى مكانه ارجعوا الىّ عباد اللّه أنا رسول

الله فلم يجبه منكم أحد فجزاكم على ذلك غمّا فى غمّ اى غموما متراكمة من الانكسار و قتل الأحبة و تدهور الأمور :

و ان يلابسكم هذا الفشل فلا تحزنوا على مافاتكم من غنيمة و نصر و مااصابكم من قتل و جراح وهوان و كان الله خبيرا بأعمالكم قبل وقوعها و انّما اراد ابرازها لينكشف لكم ماتنطوون عليه ، ثم بعد ان انتهت المعركة أرجفت قلوب الكثيرين بخوف عودتهم عليكم فأنزل على المؤمنين منكم نعاسا لتفتر ابدانهم و حواسهم عن العمل فلا تعود تعمل فى خواطرهم الوساوس ،و امّا غير المؤمنين الواقعيين فبقيت خواطرهم تعبث بهم من جولان الخيالات المؤلمة فيهم و تلك الخواطر هى ظنّهم بالله غير الحقّ لأنهم لم يعتقدوابه كما هو حقّه يقولون مع استنكار و تعجب هل يعقل أن يكون لنا نصر على هؤلاء وفتح و اتساع ملك وهم بهذه الكثرة عدّة وعديدا فأجبهم يامحمّد بأن الأمر لله يسلّط من يشاء عليه ولو كان قليلا فى عدته وعديده كما سلّط المسلمين على الكافرين فى بدر و اوّل وقعة احد هذه .

يخفى المنافقون فى انفسهم من سوء الظن بالمبدأ و الرسالات السماويّة مالا يبدونه لك من الظواهر الملائمة و المجاملات الكاذبة و من آية نفاقهم انهم يقولون لو كان لنا نصيب من الفتح و الغلبة و النصر باعتبارنا مؤمنين بالله و مؤيدين لرسوله ماقتلنا ههنا فأجبهم يامحمّد ان الأيمان بالشيء حقيقة لا يتركز على الغلبة الظاهرية بل يتركز على الواقع الراهن من صحة الشيء فى نفسه ولواعرض عنه الجميع كما قال عمّار رضى الله عنه فى وقعة صفين لو هزمونا الى سعفات هجر لكنّا على حقّ و كانوا على باطل :

وعلى هذا الأساس فان المؤمنين الواقعيين لا يتأخرون عن اجابة

دعوة الله لهم الى الجهاد ولو كانوا قلائل امام ارقام العدوّ ولبـرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم معتقدين ان صالحهم هو ذلك الذى اختاره الله لهم و صدر ماصدر فى هذه الواقعة من تموّج عـارم ليبتلى و يختبر الله مافى صدوركم من كامن لم تبرزه الآ هذه الحوادث لتفتضحوا بنفاقكم و ليقف الناس على حقائقكم و ليميّز مافى بواطنكم مـن غثّ و سمين ان كان فيها من السمين شئ و الله عليم بذات الصدور و لكنه لا يجازى على مايعلمه من المكلّف صرفا بل مشفوعا بالعمل المصحر بحقيقته ، و نعاسا منصوب على انه بدل من أمنة ٠

* (ان الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلّهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقدعفا الله عنهم انّ الله غفور حليم) *

استزلّه بمعنى جرّه الى الزلّة و هذه الآية كالآيات السـابقات تتعرض لغزوة احد فقال سبحانه لم يتول (اى لم يعط دبره) احـد منكم الآ لطلب الشيطان زلته و استجابته له و الطريق الذى وجـده فيهم فسلكه اليهم هو طمعهم فى الغنيمة و تهافتهم عليها قبل اتمـام عملهم من جهاد العدوّ كل ذلك لقيام الطمع فى انفسهم قياما خاطئـا اطاح بهم و بكرامتهم و بما طمعوا فيه فيكون المراد ببعض ماكسبـوا كسبهم قبل ايمانهم جملة من الصفات التى يجب ان يتنزه عنها الأنسان المؤمن بالله و بقاء رذاذ من تلك الصفات فيهم حتى بعد ايمانهم و مـن هذه الفجوة وجد الشيطان اليهم مسلكا فاستزلّهم منه و بما انّ اللـه سبحانه يرى ايمانهم بالاسلام واقعيا عفا عنهم هذه الزلّة و غفر لهم هذا الذنب و حلم عليهم ابقاء لهم ٠

* (يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لأخوانهم اذا ضربوا فى الأرض او كانوا غزّى لو كانوا عندنا ماماتوا و ما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم و الله يحيى ويميت و الله بما تعملون بصير : ولئن قتلتم فى سبيل الله اومتّم لمغفرة من الله و رحمة خير ممّا يجمعون :ولئن متّم او قتلتم لألى الله تحشرون) *

هذه الآيات جاء بها الله سبحانه فى مقام المقارنة بين المؤمن و ما ينطوى عليه من روحّية والمنافق و ماتضطمّ عليه اضلاعه من عقيدة فى مجارى الحياة : اما المنافق فهو المادّى الذى لا يعتقد بربّ ولا شريعة سماويّة ولا يعرف شيئا سوى هذه المادة الجاثمة بين يديه و هذه العقيدة ترى ان الموت يتسبّب قطعا من ملاقاة الأقران فى سوح القتال و من سلوك البحار والقفار وماالى ذلك ٠

و انّ الرزق انّما يكون بمساعى الأنسان و ان ليس وراء مسعاه شىء لذلك نرى المادّى يحرص على حياته و على راحته و على درهمه حرصا يفرّق بينه و بين من يعتقد بالغيب و رسالة السماء و الحقّ مع المؤمن فى ذلك لامع المادّى بالتجربة فضلا عن الدليل الشرعى و الأثر السمعى فانه ليس كل من ركب البحر غرق و لاكلّ من نازل الأقران قتل و لاكلّ من بذل درهمه مات جوعا ولا كلّ من سعى حصّل من سعيه على طائل وعلى هذا الأساس نهى سبحانه المؤمنين به ان يكونوا كالكافرين حيث يقولون فى حقّ اخوانهم الذين يضربون فى الأرض للتجارة فيموتون فى هذا الطريق او يغزون فيقتلون انّ هؤلاء لو كانوا فى قرارة بيوتهم

ما ماتوا و انّما أماتهم ركوب البحار و قطع المفاوز و القفار و الخروج الى سوح القتال و هذه العقيدة تزرع فى قلوبهم الحسرة المؤلمة بخلاف من يعتقد ان موت من مات فى بحر او برّ او ميدان كان بأجل لازم له حتى لو لم يخرج و قرّ فى بيته لمات فى تلك الساعة على وثير مهاده ٠

فمثل هذه العقيدة لا حسرة معها اذ لا حسرة على امر لا بدّ من تحققه على كل حال و الله يبقى حياة الحىّ حتى فى بطن الحوت فى اجواف امواج البحر و يسلبها من المحكوم بالفناء حتى لو كان فى برج مشّيد عليه حرس و رصيد و اذا كان الأجل لازما فمصادفته للأنسان وهو يعمل فى سبيل الله افضل من أن يصادفه وهو يعمل لمطامعه الخاصة بل لا فضيلة فى هذا بالمرّة ٠

ثم انكم سواء متّم موتا عادّيا او قتلتم فى سبيل الله او غيره فأنكم محشورون الى الله يحاسبكم على ماعملتم فى ادوار الحياة من خير و شرّ: وغزّى بضم الغين و تشديد الزاء جمع غازى كطلّب مشدّد اللام جمع طالب ٠

و فى الآية رد عظيم عن تخذيل جملة من الناس سالك طريق الفضيلة عن سلوكه لها قائلين له ان ماتزاوله فضلا عن كونه تعبا ومن غير نتيجة و شذوذا عمّا عليه دارجة النوع فيه تفويت لملاذّ ماعليه الناس من لا اباليّة وعدم قيد و استفادة من مزايا الحياة و ايّه كانت خفيفة فى نظر الدين ام و زينة و المخذل ان كان حاملا و زر نفسه فى ذلك فهو حامل فوقه اوزار غيره ٠

* (فبما رحمة من الله لنت لهم و لو كنت فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم فى الأمر فأذا عزمت فتوكّل على الله ان الله يحبّ المتوكلين) *

فى هذه الآية يبيّن سبحانه الادب الرفيع الذى زيّن به انبيائه و امرهم باتخاذه و المشى عليه حتى يكونوا نموذجا كاملا للبشرية وظاهرة من احسن ظواهر الأنسانية فقال سبحانه انك ليّن العريكة بحيث تنسجم مع كل احد من الناس لأنّ المادّة الليّنة جاهزة لأن تسبك فى اىّ قالب اراد المريد أن يفرغها فيه و اعلم انّ ذلك من رحمة الله بك و لطفه و فضله عليك و لو كنت فظّا شديدا فى لهجتك و لسانك غليظا جافيا فى قلبك لما دار دورك انسان باختياره لان الناس يهربون من الجفاف و الجفاء و بذاءة اللسان و خشونة الكلام ٠

اذا فاعف عن اصحابك بوادرهم و اطلب لهم المغفرة من ربّهم ، وامّا المشاورة فى الامور فأمّا مايعود الى الشريعة منها سواء كان فريضة و وظيفة ام كان ادبا شرعيا و خلقا سماويا فذلك ليس للنبىّ نفسه فضلا عن الافراد المعاديين ، و اما مايعود للأمور العادية الدارجة بين الناس فى معاملاتهم و معاشراتهم ممّاهو مباح لهم فعله و تركه فجائز للنبىّ أن يشاور فيه مع كمال عقله ، و قيل ان امره بالمشاورة لهم لتطييب نفوسهم و اعلاء شأنهم و سنّ سنّة حسنة بينهم ان لا يترفع عن المشورة منهم من علا مقاما و ارتفع شأنا تكبّرا على من دونه و ترفعا عن اخوانه فى الانسانية ٠

فاذا عزمت اى صممت على الفعل فتوكل على الله فان صرف تحقق

مقدمات الشيء بحسب الظاهر لا يحقّق النتيجة الاّ بأذن الله تعالى ثم ان الله سبحانه يحب من عباده المتوجه اليه المعترف بحاجته و عبوديته له و اقصر كلمة قيلت في حق نبيّ الاسلام (ص) ماقاله شاعرعاصره و باشره ٠

فما حملت من ناقة فوق ظهرها أبرّ و اوفى ذمّة من محمّد

و في خلاصة الآية يقال انّ الله يريد لعبده ان يروض نفسه على محاسن الأخلاق حتى تتيسر له الحياة مع كل شكل من اشكالها ومع كل فرد من افرادها وحتى يتمّ له مايريد تأثيره من ابراز مقاصده و تثبيتها فان ليّن العريكة يستطيع ان يهضم جاف الاخلاق شديدها و الصابر يستطيع ان يحفظ ظاهرته بين الناس فيحسب بحساب غير المتأثر مع المؤثرات التي تفضح الجازعين و تكثّر الشامتين و الحليم يحسب بحساب المقتدرين العافين و ان لم يكن في واقعه مقتدرا حتى يصلح لأن يكون عافيا و الكريم يشتري بكرمه حتى اعدائه فان المادّة تخضع العتّى في شرّه الضعيف في نفسه الى غير ذلك من معالي الأمور التي تفيد في الحياة فوائد لاتوزن لعظمتها و ثقلها في كفّة الميزان ٠

* (ان ينصركم الله فلا غالب لكم و ان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده و على الله فليتوكل المؤمنون) *

فى هذه الآية بيان لمعنى التوكل و لزومه على العبد وذلك ان الانتصار و الأنكسار فى مجارى العالم كما هو مجرّب ليسا مربوطين بظاهر المقدمات المشعرة بالأنتصار و الأنكسار فكم من فئة قليلة فى عددها وعددها غلبت فئة كثيرة فى ذلك و تموّجات العالم منذ عرف الانسان نفسه و دوّن التاريخ اسلافه قاضية بذلك و سوق الشواهد عليه اطالة فى امثال هذه المباحث اذا فلابدّ و ان تكون وراء المقدمات الظاهرة اسباب تدبّ فى بطون الغيب تعمل ولا يشعر بها الأنسان وهى التى تنصر الفئة القليلة و تكسر الفئة الكثيرة و عليه فكل مؤمن بالله يجب عليه ان يتوكل على الله فى كافة اموره ٠

و ليس معنى التوكل هو الانخذال عن العمل و اختيار جانب البطالة و الكسل فان ذلك ممقوت شرعا و كم ورد فى البطالة من اثر يفنّد به صاحبه و لكنه الجدّ المشروع بمعنى انه لا يجوز ان يستحّل كل واسطة فى الأيصال حتى لو كانت غير مشروعة و مطلب آخر فى التوكل ان المتوكل مفوّض امره الى من يعلم انه احكم الحكماء فان وصل من جدّه الى غايته فذاك و ان لم يصل لم تقطّع قلبه الحسرات بخلاف المادّى فانه يوسط لغاياته كل واسطة ولو كانت سفك دم بظلم و يجزع اذا لم يحصل له مقصوده

* (و ما كان لنبىّ ان يغلّ و من يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ثم توّفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) *

الغلول هو الخيانة و ليس معنى الآية انه ليس للنبىّ أن يخون الغنيمة باعتبار صدور ذلك منه فان الخيانة على الأخص لا تلتئم مع مقام النبوّة المستلزم للنزاهة بأعلا مفاهيمها بل نزلت هذه الآية باعتبار حادثة فى يوم بدر فقد فقدت فيه قطيفة حمراء من المغنم فقال بعضهم لعل النبىّ اخذها و هذا القائل ان كان من المسلمين لم يقصد بذلك ان النبىّ خانها بل قصد ان النبىّ اخذها لأنّها حقّه او يجوز له ذلك فأبان الله سبحانه ان النبىّ اجلّ مقاما من ان ينسب له مافيه رائحة الدناءة و الطمع نعم كل هذا يجوز على البشر السائر فحرام على المكلّف ان يخون الغنيمة حتى بخيط او مخيط و ان فعل ذلك يأت يوم القيامة مفتضحا كأنه حامل السرقة على قفاه امام اعين الناس حيث توفّى فى ذلك اليوم كل نفس ماكسبته فى الحياة الدنيا وهو لا يظلمون لا يزداد المجرم على مقدار مايستحقّه و لا ينقص من المحسن ماهو حقّه ٠

* (أفمن اتبّع رضوان اللّه كمن باء بسخط من اللّه
و مأواه جهنّم و بئس المصير : هم درجات عند
اللّه و اللّه بصير بما يعملون) *

هذه الآية تشرح و تحلّل الكسب الذى يكسبه المكلّف لنفسه باختياره و يوفى ما يستحقّه و فقا لجنس مكسبه و مقداره فالمكلف الذى يتحرّى مرضاة الخالق و انّها بأىّ عمل تكون يستحيل ان يعود بما يعود به كاسب سخط اللّه فان رضوان اللّه اعظم من الجنة و الجنّة دونه بمراتب و مستحق سخط اللّه مأواه جهنّم وهى اتعس مصير لأى مخلوق و فاعلوا الحسن كفاعلى القبيح فى انفسهم ذووا درجات متفاوتة فليس المحسنون متساوين فى الاحسان كما أنّ المسيئين كذلك ليسوا فى رتبة واحدة بل لكل فريق درجات سواء فى الجنّة ام فى النار و اللّه بصير بما يعمل عباده من خير على تفاوت رتبه و من شرّ على تفاوت درجاته .

* (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلّمهم الكتاب و الحكمة و ان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) *

لا شكّ ان تعليم الجاهل منّة عليه و ارشاد الضآل نعمة فى حقه و هداية التائه فضل و معروف و الله سبحانه بأرساله الرسل الى عباده قام بكل تلك المنن و النعم و الهدايات و كون الرسول من البشر طبقا لهوية المرسل اليه فضل آخر لأنّ مجانس الشىء اعرف به و بكيفية دعوته و تعليمه و ارشاده و وظيفة الرسول هى الوساطة بين الخالق والمخلوق فى تلاوة آياته التى ينزلها عليهم بوسيلته و تزكيتهم عملا بعد التعليم و الكتاب هو القانون المدوّن من لدنه و ان كان محرروه بالقلم هم افراد البشر و الحكمة هى بيان الحقيقة و انتشالها من بين اطباق الأوهام و الخرافات و لا شك ان البشرية فى عموم اجيالها عاشت ترزح تحت الجهل و الضلال و لولا تعاليم الأنبياء لبقيت لحدّ الآن و حوشا هملا .

و فى الخلاصة ان الحقائق العلمية فى طول عمر البشرية وليدة رسالات السماء ،وفلاسفة الكون حتى لو امتازوا بأنفسهم عن الأنبياء فأنهم عالة عليهم نعم لا شكّ ان جملة من الخرافات التى ألصقت بالشرائع هى التى شوّهت منظرة اهلها بين الناس و الأ فلا شكّ أن تعاليم السماء على يد الأنبياء قهّارة بحسب محتوياتها و ان من يراجع القرآن دقيقا و يعرض معارفه على المعارف الدارجة بين معاصريه او سابقيه يجد الفروق الجلية بين الوهم و الحقيقة و الحقيقة ماعليه معارف القرآن و أمّا تحسّن جملة من المعارف فى هذه العصور فهو من تشعشع

تعاليم القرآن وغيره من تعاليم السماء الأصيله وان كانت بصبغة اخرى هذا والمراد بالمؤمنين طالبوا الايمان وقاصدوه والمتعطشون لمعرفته وما يترتب عليه لان المعرضين عن تفهّم الحقائق لا يتفاوت عندهم وجود النبىّ بين ظهرانيهم وعدم وجوده .

* (أو لمّا اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انّى هذا قل هو من عند انفسكم ان الله على كل شىء قدير) *

الواو عاطفة لهذه الآية على ماتقدّمها من آيات (غزوة احد و تفاصيلها) والهمزة للأستفهام يعنى يا ايّها المسلمون لمّا اصابتكم فى وقعة احد هذه المصيبة وهى انه قتل منكم سبعون رجلا وكنتم قد اصبتم من المشركين يوم بدر ضعف ذلك ومثليه بقتلكم منهم سبعين رجلا واسركم سبعين آخرين وكان الله وعدكم النصر فى احد كما وعدكم فى بدر قلتم كيف حلّ بنا ونحن مسلمون هذا الحادث الجلل وانتصر علينا المشركون خلافا لوعد الله فأجبهم يامحمّد انّ الله لم يخلف وعده لكم فانه شرط لكم النصر بشرط الطاعة لأوامره واوامر نبيّه فى كيفية قتالكم و تعيين مراكزكم وانتم زمن طاعتكم اوّل الوقعة انتصرتم ولمّا خالفتم وصايا نبيّكم انكسرتم فهذا الخسران من عند انفسكم لا من الله وان كان الله على كل شىء قديرا بأن ينصركم حتى مع خلافكم لنبيّكم وللخطط الحربية ولكنه ابى الاّ ان يجرى الأمور بأسبابها وان لا يجعل الأعجاز اداة خالصة لاعمل لكم معها .

* (و ما اصابكم يوم التقى الجمعان فبأذن اللـه و
ليعلم المؤمنين : و ليعلم الذين نافقوا و قيل
لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله او ادفعوا
قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ
اقرب منهم للأيمان يقولون بأفواههم ماليس فى
قلوبهم و الله اعلم بما يكتمون) *

الآية الحاضرة من توابع الآيات السالفة فى غزوة احد وتفاصيلها وكلمة ـ ما ـ فى صدر الآية موصولة بمعنى ان الذى أصابكم من الأنكسار اخيرا و الانتصار اولا يوم التقى جمعكم و جمع المشركين كان بأذن الله و اذنه هو اجراؤه الأسباب على مقتضاها وان لطف بكم فى انتصاركم وانتم قلة فى بادء الأمر و من مقتضى اجراء الأسباب ان تنكسروا بعد مفارقة جملة منكم مراكزهم الحربية و القائهم السلاح طمعا بالأسلاب مع علمكم بوجود الكمين لكم و ان من تحاربون موتورون و اكثر منكم عددا و عدّة و بأجراء الأسباب على وفق مجاريها يعلم النشيط من الكسل و الجادّ من المتوانى و بهذا علم المؤمن الصلب منكم الذى لم يبارح مركزه كعبد الله بن جبير و من بقى معه و كعلىّ و الذين ثبتوا بثباته حين فرّ كافة اصحاب رسول الله عنه و تركوه و حيدا فى الميدان .

كما عرف المنافقون معرفة اتمّ و اكمل لانهم فى المجارى العادية كانوا يتظاهرون بالأيمان و انّ شأنهم كشأن بقية المسلمين الواقعيين فلما جاءت نوبة العمل المثمر و قال لهم عبد الله بن عمرو (ابو جابر الانصارى) تعالوا قاتلوا فى سبيل الله و اتقّوا الله و لا تخذلوا نبيّكم او ادفعوا عن عصبياتكم فأننا منكم فى العناصر اجابوه علام نقتل انفسنا

لو كنّا نعلم قتالا اى نراه فرضا علينامن طريق الأيمان بهذه الدعوة لا تبعناكم .

فالمنافقون فى امثال هذه المواطن المائزة بين الحق و الباطل و الغثّ و السمين للكفر اقرب منهم للأيمان يقولون فى الرخاء بأفواههم ماليس فى مواطن الشدّة مركوزا فى قلوبهم و الله اعلم بما يكتمون من ضمائر مظلمة و قلوب خبيثة و منويات فاسدة .

* (و لا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا
بل احياء عند ربّهم يرزقون : فرحين بما آتاهم
الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا
بهم من خلفهم الاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون :
يستبشرون بنعمة من الله و فضل و انّ الله لا
يضيع اجر المؤمنين) *

الخطاب فى لا تحسبنّ لكل من يتأتّى منه الحسبان و انّما صحّ النهى عن حسبان المقتول ميتا كسائر الأموات لان الميّت حتف انفه و الميّت مقتولا بالسيف فى غير سبيل الله و المقتول فى سبيل الله جميعا بحسب الظاهر واحد من حيث النتيجة كما قيل – تعددت الأسباب و الموت واحد – فالله سبحانه فى هذه الآية و الآية التى سبقت فى سورة البقرة بمضمونها أبان ان هذا الظاهر الذى يشترك فيه المذكورون قشرى و الذى ورائه متشتت و ان الموت و ان كان هو ابطال الحياة من البنية النباتية فى الأقسام الثلاثة الانسان و الحيوان و النبات الاّ ان ذلك لا ربط له بالحياة المتحدّث عنها هنا فأن المنظور بها فى هذا المقام حياة الروح و تنعمها باللذائذ المعنوية عند ربّها او بأضافة

أجسام مثالية تلبسها هذه الأرواح حتى كأن صاحبها خلق من جديد كما ورد ت بذلك عدة آثار تشفعها قوة الأعتبار .

وعلى كلا التقديرين يصدق فى حق الأرواح حياتها عند ربّها اى بحسب الواقع الغيبى و ان تخلّف عنه الشهود الحسّى و كذلك ارتزاقها الرزق الذى يتكافؤ مع رفعتها وقدرها و شرفها وانّها فرحة بما آتاها الله من فضله و كما يجدون الحبور و السرور فى انفسهم من طريق الشهادة يتوقعون ذلك لأخوانهم الذين تركوهم ورائهم فى مضامير الحياة مستنين بسنّتهم و متهيأين للشهادة فى سبيل الله كما هيأوا من قبل ذلـــك انفسهم و فازوا بالفعل و يناجون انفسهم كأنها تمثل اخوانهم الذيـــن لم يلحقوا بهم الاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون كما يخاف بعد الموت غيرهم و يحزن و استبشارهم انّما هو بنعمة من الله دائمة وفضل موفور مستمـــر و ان الله كما وعد على لسان انبيائه لا يضيع اجر المحسنين لانفسهم و للأجتماع كلّه باصطباغهم بالأيمان الصادق المفيد فى كلّ وقت و لكـــل شـــئ .

و مورد نزول الآية قيل هو شهداء بدر من المسلمين وقيل نزلـــت فى شهداء احد و قيل نزلت فى حق كافة الشهداء فى سبيل الله اخذا بعمومها و قيل نزلت فى شهداء بئر معونة .

و نحن قد ذكرنا خلاصة ماجاء عن غزوة بدر واحد و دونـــك الآن خلاصة ماورد فى شهداء بئر معونة .

قال ابن اسحاق كما عن السيرة الهشامية بعث رسول اللــه (ص) اصحاب بئر معونة فى صفر على رأس اربعة اشهر من احد وذلك انه قدم ابوا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله المدينـة فعرض (ص) عليه الاسلام و دعاه اليه فلم يسلم و لم يبعد عنه و قال يـــا

محمّد لو بعثت رجالا من اصحابك الى اهل نجد فدعوهم الى امـــرك رجوت ان يستجيبوا لك فقال (ص) انى اخشى عليهم اهل نجد قال ابو براء انا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس الى امرك فبعث رسول اللّــه المنذ ر بن عمرو اخا بنى ساعدة فى اربعين رجلا من اصحابه و كثير مـن المؤرخين يرونهم سبعين رجلا .

فساروا حتى نزلوا بئر معونة و بعثوا واحد منهم بكتاب رسول اللّه الى عامر بن الطفيل فلما اتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجـــل فقتله ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا ان يجيبوه الى مادعاهم اليــه و قالوا لن نخفر ابا براء وقد عقد لهم عقدا و جوارا فاستصرخ عليهمقبائل من بنى سليم فأجابوه الى ذ لك فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بـهـم فى رحالهم فلمّا رأوهم اخذ سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عنـــد آخرهم ــ يرحمهم اللّه ــ الاّ واحدا اسمه كعب بن زيد فأنهم تركوه وبه رمق و عاش حتى قتل يوم الخند ق شهيدا .

و كان فى سرح القوم عمرو بن امية الضمرى و رجل من الانصار فلم ينبئهما بمصاب اصحابهما الاّ الطير تحوم على العسكر فقالا و اللّــه ان لهذه الطير لشأنا فاقبلا لينظرا فاذا القوم فى دمائهم و اذا الخيـــل التى اصابتهم واقفة فقال الانصارى لعمرو بن امية ماترى قـــال ارى ان نلحق برسول اللّه فنخبره الخبر فقال الانصارى ماكنت لأرغب بنفسى عـن موطن قتل فيه المنذ ر بن عمرو ثم قاتل القوم حتى قتل و اخذوا عمرو بـن امية اسيرا فلما اخبرهم انه من مضر اطلقه عامر بن الطفل و جزّ ناصيتــه و اعتقه عن رقبة زعم انّها كانت على امّه .

اقول هذا الانسان الذى تدّعى له زعامة فريق من العرب (عامـــر ابن الطفيل) ترى كم جرت منه جنايات و جاءت عنه جرائم لا عــن داع

معقول يدعو الى ذلك امّا الرّسل فمن عادة الجبابرة معها فضلا عن غيرهم الاّ يمسوّها بسوء ولو كانوا رسل حرب و انذار وقد كان حامل الرسالة داعية دين لا مهددا ولا منذرا فما الذى احلّ دمه لهذا الوحشى ولم يظهر على جماعته اقلّ سوء يريدونه بأىّ انسان يفرض فعلام ترى هذا الضارى يستصرخ عليهم قبائل العرب ٠

و هل حدّث هؤلاء المستصرخون انفسهم عندما جائهم عامر يطلب نصرتهم للقضاء على هؤلاء النفر الازكياء انه هل يسوغ لنا ان نتابع الرجل على قتل اناس أبرياء لا سوء بيننا و بينهم و ليسوا محلّ طمع من غنيمة تراد منهم او تجارة تساق معهم هذا وقد علموا امتناع بنى عامر عن اجابة ابن الطفيل فى شأن القوم وهم كانوا ادنى له من بنى سليم فكيف لم يمنعوا انفسهم وهم الأجانب عنه لكنه التوحش المحض و منه يعلم ماكان يقاسى رسول الله فى درر نبوّته ٠

ثم اين ذهب عن ابى براء ثأر القوم الذين اجارهم و اعطاهم ذمّته ـ ضلال فى ضلال ـ ولقد عزّ على رسول الله مصرع هؤلاء الانجاب حتى ورد الأثر عن انس بن مالك (كما فى طبقات ابن سعد) قال ما رأيت رسول الله وجد على احد ماوجد على اصحاب بئر معونة ٠

* (الذين استجابوا لله و الرسول من بعد ما اصابهم القرح للذين أحسنوا منهم و اتقوا اجر عظيم : الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالواحسبنا الله و نعم الوكيل : فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء و اتبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم) *

الاستجابة هى الأجابة نفسها و تزيد عليها ان مادّتها تعلن بأنها وقعت عقيب طلب الأجابة بخلاف الأجابة فأنها لا تعطى من نفسها هذا الأعلان و القرح هو الجرح وقد يراد منه الجراحات الناشئة عن الجراثيم و الامراض كما يراد من الجرح فى الأغلب ما يتسبب عن الحوادث الواردة على البدن كوخزه بمسلّة و بعجه بسكّين و نظير ذلك و اصل القرح الخلوص فيقال ماء قراح اى خالص و مناسبته مع الجراحة نفوذ المه الى النفس و الجمع هو الحشد : ومعنى قول القائل حسبى الله ان الله كاف لى : وانقلب فلان عن وجهه معناه رجع، قيل فى مورد نزول هذه الآيات وجهان (احدهما) مارسمه المؤرخون عن حادثة حمراء الأسد (وثانيهما) ماذكروه فى قضية بدر الضغرى (امّا الوجه الأوّل) فأن ابا سفيان و اصحابه لما انصرفوا من احد وبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم عن المسلمين و تلاوموا وقالوا لا محمّدا قتلتم و لا الكواعب اردفتم حتى اذا لم يبق منهم الاّ الشريد تركتموهم فارجعوا فاستأصلوهم فبلغ رسول الله ان المشركين قد عزموا ان يردّو الى المدينة فيعيثوا بها فأحبّ ان يريهم قوة فصلّى الصبح يوم الأحد لثمان خلون

من شوّال و معه وجوه الأوس و الخزرج و كانوا باتوا تلك الليلة يحرسونه من البيات فلما انصرفوا من صلاة الصبح امر بلالا ان ينادى فى الناس ان رسول الله يأمركم بطلب عدوّكم و لا يخرج معنا الآ من شهد القتال بالأمس ٠

فخرج سعد بن معاذ راجعا الى قومه يأمرهم بالمسير و الجراح فى الناس فاشية و جاء سعد بن عبادة قومه فأمرهم بالمسير و تتابع الناس و امر رسول الله بجمع الحطب فأذا أمسوا أمرهم ان يوقدوا النيران فيوقد كل رجل نارا فوقدوا فى تلك الليلة خمسمائة نار على عددهم حتى كانت ترى على المكان البعيد وذهب ذكر نيرانهم و معسكرهم فى كل وجه و كان ذلك ممّا كبت الله به عدوّهم ٠

و جاء معبد بن ابى معبد الخزاعى وهو يومئذ مشرك الى النبىّ (ص) و كانت خزاعة سلما له فقال يامحمّد عزّ علينا ما اصابك فى نفسك وفى اصحابك ولوددنا انّ الله اعلا كعبك و ان المصيبة كانت بغيرك ثم مضى معبد حتى وجد ابا سفيان و قريشا بالروحاء وهم يقولون لا محمّدا اصبتم و لا الكواعب اردفتم فبئسما صنعتم وهم مجمعون على الرجوع الى المدينه فلما جاء الى ابى سفيان قال هذا معبد وعنده الخبر ماوراءك يامعبد قال تركت محمدا واصحابه خلفى يتحرقون عليكم بمثل النيران وقد اجتمع معه من تخلف عنه بالأمس من الاوس و الخزرج و تعاهدوا الآ يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم و قد غضبوا لقومهم غضبا شديدا ولمن اصبتم من اشرافهم قالوا ويحك ماتقول قال هو ما اقول لكم و ارسل معبد رجلا من خزاعة الى رسول يعلمه ان ابا سفيان و اصحابه انصرفوا خائفين وجلين فانصرف رسول الله بعد ثلاث الى المدينة : وحمراء الأسد من المدينة على ثمانية اميال ٠

(و امّا الوجه الثانى) فذكر جملة من المحدثين فى سبب نزول هذه الآيات ان ابا سفيان قال يوم احد حين اراد ان ينصرف يا محمّد موعد ما بيننا و بينك موسم بدر الصغرى فى القابل ان شئت فقال رسول الله ذلك بيننا و بينك فلمّا كان العام خرج ابو سفيان بأهل مكة حتى نزل مجنّة من ناحية الظهران ثم القى الله عليه الرعب فبدا له : فلقى نعيم بن مسعود الاشجعى وقد قدم معتمرا فقال له ابو سفيان انى واعدت محمّدا و اصحابه ان نلتقى بموسم بدر الصغرى و الذى نحن فيه عام جدب لا يصلحنا وقدبدا لى ان لا اخرج اليها و اكره ان يخرج محمّد ولا اخرج انا فيزيدهم ذلك جرءة علينا فاذا احببت ان تلحق بالمدينة و تثبطهم ولك عندى عشرة من الأبل فافعل فأتى نعيم المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد ابى سفيان فقال لهم بئس الرأى رأيكم أبعد موقعة احد وهى فى دياركم تنتظرون النصرة عليهم فى ديارهم فبان التضعضع فى نفوس كثيرين .

فقال رسول الله و الذى نفسى بيده لأخرجنّ ولو وحدى فخرج رسول الله (ص) فى اصحابه حتى وافوا بدر الصغرى وهو ماء لبنى كنانة و كان موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون اليها فى كلّ عام ثمانية ايام فلم يلق رسول الله (ص) واصحابه احدا من المشركين ببدر و وافقوا السوق و كانت لهم تجارات فباعوها واصابوا مكان الدرهم درهمين و انصرفوا الى المدينة سالمين : هذا هو خلاصة القول فى شأن النزول .

و امّا المعنى فقوله (الذين استجابوا) بمعنى لبّوا الطلب الموّجه اليهم من الله و الرسول الداعى لهم بالخروج الى ميادين القتال و مناجزة الأعداء و مواصلة النضال من بعد ما أصابهم القرح و اثّر فيهم

(للذين أحسنوا منهم واتقوا) اى استمرّوا فى احسانهم الى انفسهم وعقائدهم بالثبات عليها و الذبّ عنها ولم ينقلبوا على اعقابهم و لم يهدموا ماقام من بنائهم (اجر عظيم) يقوم بواجب تضحياتهم (الذين قال لهم الناس) والمراد بالناس هنا الوسطاء فى الأخبار (ان الناس) و المنظور بهم ابو سفيان و اصحابه (قد جمعوا) اى حشدوا جموعهم (لكم) اى لمناجزتكم فاحذروا منهم و كونوا على التفات فكانوا على تعبئة وحذر فزادهم الله ايمانا بمبادئهم لمّا صدقوا فى اعتناقها وقالوا فى انفسهم الله كافينا من هذه الغوائل وهو احسن و كيل فى الدفاع عنّا فلما توفّرت هذه الشروط فيهم رجعوا الى اهلهم بعد خروجهم قد ضفتهم نعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء و جروا على مايحرز لهم رضوان الله و الله ذو فضل عظيم على مستحق الفضل .

وقد صحّت الرواية عن الصادق عليه السلام انه قال عجبت لمن خاف كيف لا ينزع الى قول الله (حسبنا الله ونعم الوكيل) أما سمع قول الله عقيب ذلك : فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء .

* (انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم و خافون ان كنتم مؤمنين) *

المشار اليه بقوله تعالى انما ذلكم هى الأراجيف التى يطيرها المنافقون تخذيلا للمؤمنين و كسرا من شوكتهم فأبان الله سبحانه ان ذلك من فعل الشيطان ليخوف به اولياء الرحمن فلا تخافوا المشركين و المنافقين المرجفين بكم و خافونى انا ان كنتم مؤمنين بى اى ثابتين فى العقيدة ولا شك ان الثابت فى عقيدته يجب عليه ان لا ينحرف عنها طرفة عين والا فهو ليس من المؤمنين بها .

* (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله الا يجعل لهم حظا فى الآخرة و لهم عذاب عظيم : ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم) *

أبان سبحانه لنبيه فى صدر الآية ان المؤمن الثابت العقيدة بمبدئه مثلك يا نبى الاسلام لا يقلق روحه مسارعة الجهلة الى الكفر و تباطئهم عن الأيمان فان المؤمن الحق لا يزول عن مركزه بزوال غيره وعلل سبحانه ذلك بأن كفرهم بالله لا يدخل عليه ضررا و ايمانهم به لا يوصله نفعا و انما نتيجة ذاك وهذا تضرر وانتفاع نفس الكافر بكفره و المؤمن بأيمانه فى الدنيا و الآخرة جميعا وان كان الضرر و النفع الأخرويان اجلا و آكد لاختصاص ذلك اليوم بالله وحده .

نعم من وجهة دنيوية اجتماعية يحزن النبى قلة المؤمن به وتكالب

الكفرة عليه لانه يهوى سيطرة الأيمان على المحيط وكلّماكثر المؤمنـــــون تأيدّت هذه السيطرة و كلّما قلوّا و هنت و نتائج سيطرة الأيمان او الكفر واضحة محسوسة فى حطّ كيان المجتمعات ورفعها ·

و قوله سبحانه يريد الله الأيجعل ليس معناه ان الله يريـــــد بالأرادة التكوينيّة اعتباطا الاّ يجعل لهم حظا فى الآخرة فأنّ ذلـــك تحكّم لا يصدر من الحكيم و انما ارادته لذلك تابعة لاختيار المكلّف الكفر لنفســـه ·

و اشتراء الكفر بالأيمان معناه مبادلة الأيمان بالفطرة بالكفر الذى يجلبه الانسان لنفسه بسوء اختياره و الايمان يضاف لله و الكفر يضاف لغيره : و لو كان الايمان و الكفر من السلع التى يتاجر بها لكان قلة نفاذ الايمان و كثرة جريان الكفر من الأضرار و المنافع التى تدخل علـى اصحـــاب مخازن الكفر و الايمان لكنّ هذا المطلب لا ينطبق على الله لانّ اللّـــه غنى عن كل شئ فلا ينفعه ايمان المؤمن به و لا يضرّه كفر الكافر به نعـــم ينتفع بذلك و يتضرر من يتاجر على هذا الحساب فتكون سعة حكمه منوطة بكثرة اعوانه و ضيقها بقلّتهم اذا فالمنتفع و المتضرر بالأيمان و الكفر فـى سوق العقيدة هو المكلّف نفسه و الأجتماع بتبعه ·

* (ولا يحسبنّ الذين كفروا انّما نملى لهم خيرا
لأنفسهم انّما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم
عذاب مهين) *

ـ ما ـ فى انما الأولى موصولة بتقدير ان الذى نملى لهم خير لأنفسهم و انّما الثانية حصرية : فى هذه الآية دفع دخل كثيراً امّا نـدّد به الكفرة بالله المؤمنين به فقالوا لو كان هناك كما تزعمون ربّ موجود لمات الكافر المناوء له جوعا ولأثرى المؤمن به سنة جارية فى الحبّ و العداوة و الحال اننا نرى الكافر كالمؤمن منه ثرىّ و منه مملق ان لم يكن الكافر اكثر تمولا من المؤمن بالنوع لأنّ مع الأيمان محدوديات فى الكسب و ليس مع الكفر ايّة محدودية هذا هو الدخل ٠

و امّا الجواب من الله فهو ان مايراه الكافر من الراحة و الثراء فى الدنيا ارخاء عنان له يستوجب به كثرة المسؤلية و ليس ذلك خيرا لنفسه كما حسب و بالنسبة الى المؤمن فكل عناء ينوشه فهو كما يكون مكفرا لذنوبه ان حصل منه شيء فى ادوار تكليفه يكون سببا لزيادة ثوابه واجره بتحمله وعناء الحياة راضيا بما قسم الله ٠

* (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيّب و ما كان الله ليطلعكم على الغيب و لكنّ الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله و رسله وان تؤمنوا و تتقوا فلكم أجر عظيم) *

الخطاب فى انتم للمشركين ولمّا كان الأنسان المشرك غير متعبد بدين لم يكن فارق بين الفرد والفرد منهم لان الفارق انما يكون بالوظيفة الملقاة على عاتق المكلّف فبأعتبار امتثاله للوظيفة يعرف صلاحه و بعصيانه لها يعرف انحرافه اذا فعالم التكليف هو الذى يشخص البرّ من الفاجر و المطيع من العاصى و الطيّب من الخبيث و من هنا قال سبحانه ماكان اللّه ليذر المؤمنين على ما انتم ايّها المشركون عليه من الأهمال و الأرسال حتى يميز الخبيث من الطيب ٠

و كأنه جواب عن وهم مفاده ان المشرك يقول ينبغى لله ان يريح اولئك الذين انضووا تحت رايته و اتبّعوه و شيدوّه لا ان يكلّفهم بوظائف مهما كانت خفيفة فهى ثقيلة على العاطفة فكان الجواب ان ذلك بنفعهم وان شقّ عليهم لان كلّ فضيلة و سعادة لابّد لها من مشقّة تتحمل حتى تكسب صاحبها سمعة ظاهرية و حقيقة جوهرية ٠

و يذر فعل مضارع بمعنى يترك منصوب بأن المصدرية المحذوفة بعد لام الجحود المسبوقة بكون ماض منفى : وماكان الله ليطلعكم على الغيب كأنّه سيق جوابا عن سؤال مقدّر ايضا معناه ان المشركين قالوا لو كان الله حقا لأطلع عباده على ما يأتى عليهم حتى تقوى بصائرهم فى

دينهم و دنياهم و يأمنوا بوائق الدهر و حوادثه القابلة للأجتلاب و الأجتناب فكان مفاد الجواب المطوى تفصيله فى مجمله ان الوقوف على الغيب فى بعض جوانبه ان أفاد فأنّ مضارّه اوفر لان من يقف على ما يأتى عليه من طوارق الدهر من خير او شر فربّما يطغوا قبل اوانه وربّما تحترق و ذيلة حياته قبل اوانها ايضا فعمى الأنسان عن علم ما يستقبل فيه نوع تسكين و تخفيف عليه ولكنّ اللّه قد يطلع خاصّته على الغيب لقوّة ايمانهم و ابدانهم و اذهانهم على تحمّل ما يلقى اليهم من علم مستقبل انفسهم و مستقبل الأغيار وهذا الأختصاص هو معنى الأجتباء وسياق الآية مشعر به .

و قوله تعالى ولكنّ اللّه يجتبى من رسله من يشاء يحتمل معنيين (الأول) ان رسل اللّه كعباده المؤمنين به متفاوتون فى المرتبة فالذى يختصه اللّه بتحمل علم الغيب هو المختار من الانبياء (والثانى) ان معنى قوله من رسله من كان واجدا لصلاحية الرسالة و ان لم يكن بالفعل رسولا لوجود من هو اكمل منه : فآمنوا ايّها المشركون باللّه و رسله تسعدوا و ان يحصل منكم الأيمان عقيدة و التقوى عملا فان ذلك يوجب الأجر العظيم و الثواب الجسيم لكم .

* (و لا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من
فضله هو خيرا لهم بل هو شرّ لهم سيطوّقون
مابخلوا به يوم القيامة و لله ميراث السموات و
الأرض و الله بما تعملون خبير) *

البخل من ارذل الصفات لأن فيه مجافاة للفطرة الأنسانية الداعية الى فعل الخير مع القدرة عليه و انّما يزعها عن ذلك تسويلات النفس و لأنّ فيه احتكارا قذرا فأن البخيل يعلم انّ مايجمعه لا يأكله و انّ ما ادخرّه يكون لامحالة سهما لآخر لم يسهر على جمعه طرفة عين و قد لا يكون ذلك الغير قريبا حميما او حرّيا بما جمع له و هذا هو معنى كون البخل شرّا للبخيل ·

و امّا تطويقهم به يوم القيامة فهو مسؤليتهم به كيف جمعوه وهل راعوا فى جمعه الحق و الصدق اولا ولم لم يؤدوه فى واجب عليهم سواء كان واجبا فى الدين ام فى الاخلاق ·

و ليس البخل منحصرا بالمال و ان كان هو بالمعنى الظاهر فيه بل يتعلق البخل و السخاء بكل مايتمكن الأنسان بسببه أن يرفع ضرورة و يحلّ مشكلة من جاه و قدم و قلم و اشباه ذلك ممّا قل و كثر حيث ينتفع به فرد او مجتمع و سّر ذلك ان الحياة بدون التعاون لا تتيسّر و هذا المعنى قد أفيد بكلمة النبىّ الشهيرة كلكّم راع و كلكّم مسؤل عن رعيّته فان الراعى مسؤل بجميع مايؤمن مصونية مارعاه و بكلمته الأخرى حيث قال من بات و اصبح و لم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم و هذان الحديثان مع الآية ينصّان على ان الحقوق البشرية بأسرها حقوق متبادلة بتبادلها تتيسر الحياة و لا تتعسّر و الاّ فشدائدها لا تتسهّل بأمر آخر ·

و معنى كون الله هو الوارث لما فى السموات و الأرض انه هو الباقى بعد فناء العوالم كلّها فالوارث الحقيقى هو لاغيره و الله بما تعملون من خير و شرّ بخل وجود عليم خبير لاتخفى عليه من اعمالكم خافية ٠

* (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير و
نحن اغنياء سنكتب ماقالواوقتلهم الأنبياء بغير
حقّ و نقول ذوقوا عذاب الحريق " ذلك بما
قدّمت ايديكم و انّ الله ليس بظلام للعبيد) *

الآية نزلت فى اليهود المعاصرين لنبىّ الأسلام لأنّهم هم الذين قالوا انّ الله فقير و نحن اغنياء عقيب قوله تعالى فى القرآن من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا و من المستبعد فى حقهم و مهما جهلوا ان يعتقدوا فى هذا القول حقيقته و ان الأقراض يكون لله نفسه لحاجته و لكنهم ارادوا أن يندّدوا بدين الاسلام الذى ينسب بزعمهم امثال هذه النسب لله سبحانه فهم لا يرون الخالق بتعريف الاسلام له الخالق الذى ينبغى أن يعتقد به ربّا خالقا للعالم و يستدلون على ذلك بأنهم يرون انفسهم فى الأعم الأغلب اغنياء وهم مع ذلك مخلوقون لله مصنوعون له فكيف يكون الصانع فى حاجة المصنوع و الخالق فى حاجة المخلوق ٠

و اشار سبحانه بقوله سنكتب ماقالوا الى ان اقوال و افعال المكلفين فى هذه النشأة مرقومة مكتوبة مدّخرة لهم فى يوم معادهم على ربّهم لا أنّ ماتقوله السنتهم و تدّرع به جوارحهم مهمل مغفول يقول القائل و يفعل الفاعل و تمرّ الايام فيعود ماقال و مافعل نسيا منسيّا ٠

و يشعر قوله تعالى و قتلهم الانبياء انّ الراضى بفعل المجرم المصحح

لخطأه شريك له فى جرمه فان الذين قتلوا الأنبياء كيحيى بن زكريا ليسوا هم الأسرائيليين المعاصرين للاسلام بل اسلافهم لكنّ هؤلاء الأخلاف لمّا برروّا جميع اعمال سلفهم و مجدّوهم و استنوا بسنّتهم كانوا. مثلهم فى تلك المآثم ٠

هذا و نتيجة ضبطنا لما قالوا و فعلوا أن ينالوا جزاء اجرامهم و هو ذوقهم لعذاب الحريق اى ملابسة الحريق لكافة اعضائهم و احشائهم كما ان الذوق يتلابس بجميع اجزاء الحاسّة الذائقة و الذى نورده بهم من العذاب جزاء وفاق لما فعلته ايديهم و انّ الله ليس بظلّام للعبيد و لا متجاوز عن حريم الحق الى ماهو خارج عنه ٠

* (الذين قالوا انّ اللّه عهد الينا الاّ نؤمن
لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل
قد جائكم رسل من قبلى بالبيّنات وبالذى
قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين : فأن
كذبوك فقد كذّبت رسل من قبلك جاؤا
بالبيّنات والزبر والكتاب المنير) *

يعنى ان الذين قالوا ان اللّه فقير ونحن اغنياء هم بأنفسهم الذين قالوا ان اللّه عهد الاّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ومأخذ هذا العهد ما يدّعون ان اللّه كتب لهم فى التوراة من علامة صدق اىّ نبىّ يأتيهم مدعيا للنبوّة انه يأتى بقربان والقربان هو كل ما يتقرب به الى اللّه سبحانه ويجوز ان يكون مصدرا واسم عين فتنقض عليه نار من السماء فتأكله ومعنى اكلها له استيلاؤها عليه بنفاده فانت يامحمّد انسان تدعىّ علينا النبوّة وتريد منّا ان نؤمن بك فأتنا بقربان تأكله النار حتى نصدّقك فقال له اللّه قل لهم قد جاءكم رسل من قبلى بالآيات البيّنات الدالةّ على صدقهم كما جاؤكم بالذى اردتم من القربان الذى تأكله النار فلم لم تصدّقوا بهم ولم تعترفوا بنبوّتهم وتجاوزتم فى ذلك ابعد الحدود فقتلتموهم فها انا حتى لو اتيتكم بقربان تأكله النار لاانال طرفا من تصديقكم فى لأنكم لم تصدقوا مع اسلافى من الأنبياء .

فأن قيل لم لم يأتهم بالقربان الذى ارادوا ولو تيقن مع ذلك انهم لا يؤمنون به قلنا ان خرق الطبيعةوان كان هيّنا على اللّه الاّ انه لا يفعله الاّ عن حكمة واعية اليه والحكمة هنا مفقوده لفرض ان الطرف

مصرّ على العناد مضافا الى انّ الأعجاز و الأتيان بالمعجز ليس منوطا بارادة مريده فقد يريد المكلّف الجاهل من اللّه سبحانه امورا سخيفة لا تتفق مع المنطق ٠

ثم توجّه سبحانه الى نبىّ الأسلام مسليا له عن تكذيب اليهود ايّاه و اصرار جملة من الجهلة على جهلهم فى قباله بقوله تعالى فان كذبك و تجافى عنك هؤلاء و اشباههم فقد كذّب رسل من قبلك جاؤا اممهم بالآيات الواضحات التى لا غبار على صدقها و وضوحها و تأييدها لمن جاء بها كما جاؤهم بالزبر وهى المدوّنات المخطوطة المشحونة بالمواعظ و الزواجر و بالكتب التى يعلوها نور من مثاليّتها وقد سها وصدقها و صحتها و الحقائق المكشوفة كما لها انصار عاملون فأنّ لها مناوئين اشدّاء لأهداف مرموزة و اغراض فاسدة و منويّات شيطانية ٠

* (كلّ نفس ذائقة الموت و انّما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار و ادخل الجنّة فقد فاز وما الحياة الدنيا الاّ متاع الغرور) *

الموت و الحياة معنيان متقابلان تقابل العدم و الملكة فأن الموت عدم الحياة عمّا من شأنه ان يكون حيّا و الحياة فى الطبيعة ناموس اثره النشوء والنماء و الحسّ على اختلاف مراتبه فالموت معناه انعدام هذا الأثر فلا ينمو الميّت ولا يحسّ وكل حيّ لا بدّ له ان يعطى حياته من يده لأن مادته الطبيعية امّا ان تتلاشى بالاستحالة او تنقص وكلا الأمرين يسبّبان الموت هذا من وجهة طبيعية لا عقلية و امّا العقل فلا يمنع استمرار الحياة فى قابلها اذا حصل له حافظ يصونه و بالأخرة لا تمانع بين حكم الطبيعة وحكم العقل يفهم ذلك ممّا اشعرنا به ·

و النفوس التى يجوز ان تكلّف ميدان تكليفها هذه النشأة ومحل جزائها يوم القيامة و ان يحصل نوع مجازاة فى هذا العالم فهو شعاع خفيف عن المادة المحكوم بها غدا على المجرم او له و هذا هو معنى وفاء الأجور ·

فمن زحزح عن النار اى ابعد به عنها و ادخل الجنّة و هى النعيم فقد فاز وسعد و الاّ فقد شقى و بئس و هذا اللسان منذر محذر للعاقل عن ان يقذف بنفسه فى لهوات هذه الحياة التى مآلها الى الفناء و الفساد مع انّها فى ظرفها ايضا غرور وخداع، فأن عمر الأنسان لو حللناه لوجدنا آنات نعيمه ان ناش نصيبا من ذلك فى طويل ايام بلائه و عنائه لا قيمة لها حقا ومن هنا صح ان يقول ربّ العزّة وما الحياة الدنيا الاّ متاع الغرور ·

* (لتبلونّ فى اموالكم و انفسكم و لتسمعنّ من
الذين اوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين
اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقّوا فأن ذلك
من عزم الأمور) *

اللام فى قوله لتبلونّ و هكذا المشدّدة جىء بها للتأكيد بمعنى ان تلبس المؤمن فى ادوار حياته بالبلاء قلّ ام كثر ضربة لازب لان تقيّده بمقيدات دينيه يجرّ عليه مالا يلائم نفسه المادية و لا ينسجم مع اذواق المنحرفين .

و من جملة ذلك انّ ماله لا يسلم له كما يسلم للآ اباليين لان بعض الملابسات قد توجب عليه ان يفتكّ نفسه او حرّية عقيدته بمال غيرمستحق عليه و هكذا قد يصاب بنفسه مالا يصاب بمثله الفاقد للأيمان المذبذب فى جريان الحياة و هكذا قد يسمع من شتم عرضه ما يؤذيه اذيّة غالبة من رقبائه فى العقيدة كرقابه اهل الكتاب للمسلمين و رقابة المشركين للمؤمنين .

و لكن رصيد كل ذلك للمؤمن صبره و تقواه فان الحازم لا يعطى متانته من يده و يروض نفسه حتى يخضعها لمضغ الحوادث و هضمها .

و ليعلم ان الايمان الصحيح و العقائد الصحيحة من لوازم الفطرة المستقيمة التى وهبها الله لكل انسان سوىّ الخلقة كالمزاج الطبيعى الذى هو من لوازم البنية السالمة اذا فمن الطبيعى ان يعتقد الأنسان بالحق كما انه من الطبيعى أن يشتغل المزاج شغلا صحيحا و يعمل كل جهاز لما أعدّ له لكن لمّا مالت الاهواء المتسفلة بالأذهان السالمة و العواطف المرذولة بالعقول الصحيحة وعبث الانسان بكرامة مزاجه

فسيّره على خلاف مقتضيات الطبيعة و كثرت هذه الانحرافات فاصبح الايمان الصحيح عزيزا الوجود من ناحية و مطاردا من ناحية ثانية بحكم الرقابة كما ان المزاج الصحيح جاء بهذه المثابة فكما ان سالم البنية مثار غبطة و حسد للباقين كذلك سالم العقيدة محلّ مطاردة و مبارزة لكونه فى جانب اقلّية ·

و من هنا وصّى الله سبحانه عباده المؤمنين بالصبر على بلاء المعاندين الذين يريدون اضرارهم فى اموالهم و انفسهم و أفادان ذلك من لازم كل مستقيم فى قبال الشواذ و المنحرفين ·

* (و اذا اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب
لتبيّننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم
و اشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) *

الميثاق هو القول المقرّر سواء كان بالمواجهة بعضا من بعض او بتقرير من له السلطه فى كتابه الى من قرّر عليه و الطرز الثانى هو نحو اخذ الله المواثيق من عباده المكلفين ·

و معنى الآية أنّ الله اخذ ميثاقه من بنى اسرائيل الذين آتاهم التوراة او التوراة و الانجيل ليشمل النصارى : او انه تعالى اخذ الميثاق من كل امّة انزل عليها كتابا بلا استثناء لتبيننّ الكتاب الذى انزل عليكم لكافة الناس فانّ فيهم العوام الذين يحتاجون الى من يتلوه عليهم و يبيّن حتى ظواهره لهم كما انّ فيهم اولى مكاسب و حرف تنهب اوقاتهم من ايديهم فلا يحصل لهم من الفراغ الاّ الزمن المنزور فيجب على المتوسعين فى اوقاتهم و افهامهم الاّ يغفلوا تلك الفرص ولايضيعوها بل يترصدوها منهم لبيان احكام الله لهم المودعة فى كتابه المنزل

و الجارية على لسان نبيّه المرسل .

و يحرم على امثال هؤلاء كتمان ماعلموه من الكتاب و عرفوه من الشريعة و فى هذه الآية دليل واضح على وجوب نشر العلم من العالمين به كائنين من كانوا و حرمة كتمانه اشاعة للفضيلة و طردا للرذيلة فان الفضيلة بنت العلم و الرذيلة اخت الجهل : و ليعلم انه لاعلم الاّ مانفع و ان تحصيل العلم بمجرده لاقيمة له بل قد يكون مجلبة للأثم اكثر ممّا يجلبه الجهل .

و قد حدّث الحكم بن عتيبة عن نجم الجزّار قال سمعت على بن ابى طالب عليه السلام يقول ما أخذ الله على اهل الجهل ان يتعلّموا حتّى اخذ على اهل العلم ان يعلّموا .

فنبذوه اى نبذ اهل الكتاب الذين أوتوه ذلك العهد و الميثاق و لم يعيروه وفاء كالملقى للشىء الكائن امامه وراء ظهره و بادلوا بهذا الميثاق مصالح تافهة لأجل رواج رغبتهم من مال منزور او جاه ميسور او تقديما لبطالة الانكماش على تعب العمل و هذا هو المنظور بقوله تعالى و اشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون : وامّا كون ذلك شيئا بئيسا فلأن الانحراف عن المقرر الصالح مآله الى بوار شامل و شرّ عامّ وقد جرّبت البشرية ذلك فى ادوار اجيالها تجارب محققة اتت عليها بالدمار الماحق و مع ذلك لا يعتبر اللاحق بما ابتلى به السابق .

* (لاتحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب و لهم عذاب اليم) *

هناك الكثيرون الذين يفرحون بما يكون عنهم خيرا كان ام شرّا لحبّهم لأنفسهم و اعتزازهم بها و بنائهم على ان كل ما يأتونه او يذرونه هو الحقّ ولا شكّ ان هؤلاء جهلاء ومهما علت مقاماتهم وهناك الكثيرون الذين يحبّون ان يحمدوا ويمدحوا حتى على مالم يصدر منهم ويرضخون الرضائخ الدسمة على تزوير نسب الخير لهم و ما اكثر ماحصل من ذلك فى الدنيا غابرا و حاضرا فأمثال هؤلاء لاتحسبهم بعيدين عن العذاب لأن خبث ضمائرهم الذى دعاهم الى كل تلك الهنات يقرّبهم الى العقوبة .

* (و للّه ملك السموات والأرض و اللّه على كل شيء قدير) *

لا شك ان خالق الشيء و مبدعه من العدم هو المالك الحقيقى له و كل مالكيّة وراء ذلك فهي شعاع لا اساس لها ولما كانت العوالم السفلية و العلويه مبدعة للّه تعالى اوجدها بعد أن لم تكن كانت ملكا له بالحقيقة الخالصة من الغلوّ و الأسفاف واذا كان هذا الكون الزّخار بالموجودات المتنوعة خلقة للّه تعالى كان من لازم ذلك ان اللّه على كل شيء قدير .

* (انّ فى خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل
و النهار لآيات لأولى الألباب : الذين يذكرون
الله قياما و قعودا و على جنوبهم و يتفكرون فى
خلق السموات و الأرض ربّنا ماخلقت هذا باطلا
سبحانك فقنا عذاب النار : ربّنا انّنا سمعنا
منادیا ینادی للأیمان أن آمنوا بربّكم فآمنا
فاغفر لنا ذنوبنا و كفّر عنا سيئآتنا و توفنا مع
الأبرار : ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك و لا
تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) *

السماوات عبارة مختصرة عن جميع العوالم ماعدا الأرض والأرض هى كرتنا التى نعيش عليها وهى على مافيها من عجائب الخلقة و صنوف الأبداع الفائتة عن الدرك و الأحصاء صفر فى قبال ماسواها من موجودات الكون ولا شك عند كل احد ان فى خلق السماوات و الأرض اخاذّية لعموم البصائر و الأبصار فأنّ العالم الأخصّائى يفنى عمره فى المطالعة عن ذرّة مما لا يحصى من كائنات الكون وقد تفوته نكات عميقة فيما بحث عنه فكيف بصنوف العالم كلّها و ادّعاء أنّ كلّ ماهب ودبّ و تحرّك وسكن و جد جزافا كل ذلك مطرود عن ساحة العقل اذافهناك مبدأ قهّار تعجز العقول عن دركه اوجد هذه العوالم و صاغها بهذه الصياغات التى نعلم قليلها و نجهل الأهمّ الأعظم منها .

نعم الذى جرّأ الكثيرين على نكران الصانع هو وجود مالا يفهمونه من اسرار تسييرها بهذا اللون الذى أحسّت به البشرية منذ كانت و تحسّ به الى ابد الابدين فهذا الأرتباك المزعج فى السير الحيوى و ما

تعتوره من حالات و تارات بما لا يتحمل القليل منه اعظم الصابرين من الناس هو الذى ارخص قيمة هذا الكون فى نظر اهله و جعلهم ينظرون اليه بحقد باطنى و يتلهف الكثيرون على بقائهم عدما صرفا حتى لا يبتلوا ببلاء هذا الوجود و تصاريفه ٠

و معنى اختلاف الليل و النهار وقوع احدهما بعقب الآخر وخليفة له و اولوا الألباب هم اهل العقول لا القشريون من الناس ثم اخذ سبحانه يعرّف بأولى الالباب و يقول انهم هم الذين بعد أن ادركوا عظمة الخالق من عظيم الخلقة اخذت بواطنهم لا تبارح ذكره و التفكرفيه و جوارحهم لا تسأم من عبادته و ابراز الخضوع له حسب ما تساعدهم الظروف عليه قياما و قعودا و على جنوبهم و كلّما امعنوا فى اسرارالخلقة و وقفوا على شيء من غوامضها قالوا ربّنا ما خلقت هذا باطلا بل لداع حكيم و منشأ قويم فقنا عذاب النار التى وعدت بها المقصرّين فى حقك المتجافين عمّا يتقاضاه جليل مقامك ٠

ربّنا انك من تحكم عليه بدخول النار و ملابستها فقد أهنته امام نفسه و غيره و ليس له فى مقابلك ناصر يلتجأ اليه و يستنجد به ٠

ربّنا انّنا سمعنا بآذان عقولنا من طريق بدائعك الجبّارة و بآذاننا المادية من طريق رسلك و دعاتك منادیا ینادى بلزوم الأيمان بك فآمنّا منقادين صاغرين فاغفر لنا ذنوبنا و امح عنا بفضلك سيئآتنا واحشرنا مع البارّين بك غير المتجافين عنك و آتنا ما وعدتنا من الثواب على لسان امنائك و لا تهنّا يوم الوفود عليك و ان لم نكن اهلا للأعزاز انك من اصدق الصادقين و اوفى الاوفياء ٠

و قد صحّ عن النبىّ (ص) فى هذه الآيات الخمس انه قال ويل لمن لاكها بين فكّيه و لم يتأمل مافيها ٠

* (فاستجاب لهم ربّهم أنّى لا أضيع عمل عامل منكم
من ذكر او أنثى بعضكم من بعض فالذين
هاجروا و أخرجوا من ديارهم و أوذوا في
سبيلي و قاتلوا و قتلوا لأكفرنّ عنهم سيئآتهم
ولأدخلنّهم جنات تجرى من تحتها الأنهار
ثوابا من عند الله و الله عنده حسن الثواب) *

- هذه الاستجابة وقعت عقيب طلب الأجابة من عباد الله الذين قالوا ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا و كفّر عنا سيئآتنا و توفنا مع الأبرار و آتنا ما وعدتنا على رسلك و لا تخزنا يوم القيامة : و هذه الآيات تدلّ على مرغوبية الدعاء لما فيه من امكان استجلاب الجواب ·

و كون الله لا يضيع عمل عامل من شرائط العدالة فى التكليف كما ان العامل لا يفرّق فيه بين الذكر و الانثى لان الجميع من هوّية واحدة فى الموارد التى يستويان فيها و ان اختلف الذكران عن الأناث بفوارق طبيعية الاّ ان هذه الفوارق لا ربط لها بأصل موضوعية التكليف : وهذا هو معنى قوله بعضكم من بعض الذى هو جملة ابتدائية جئ بها تعليلا لعدم الفرق بين الذكور و الأناث فى عالم التكليف و الجزاء عليه ·

ثم ساق تعالى نموذجا من الاعمال التى بها يستحق العبد الجزاء الحسن على ربّه فمن ذلك الهجرة من دار يضغط فيها على المكلّف فى مقابل تظاهره بعقيدته فلا يكون المؤمن تام الايمان حتى يفرّج عن عقيدته بالترفيه عنها و ذلك من طريق الهجرة الى دار يكون فيها حرّا غير مضغوط عليه ·

و من ملاك ذلك بعده عن كل ما يضعّف عقيدته عنده كالخليط

الفاقد للعقيدة او المستهين بها و كحضور مجالس تبليغ السوء و ماالى ذلك ممّا يوجب الاحتكاك معه ضعف الدين حتى يؤل به الأمر الى ذوبان دينه ٠

و منه تحمّل الأذى فى سبيل الله كالصبر على سخرية الساخر به و الطاعن عليه و الشاتم له و منه الخروج الى سوح القتال و القتل فى سبيل الله فأن هذه الحسنات تقع مكفرة للبوادر الحاصلة من العبد امام ربّه كما تكون موجبه لدخول الجنه و التنعم بنعيم الله : وانتصاب ثوابا على انه مفعول لأجله و معنى قوله و الله عنده حسن الثواب انّ غير الله و مهما شهم و كرم لا يساوى الله فى حسن جزائه فانه يضاعف لعبده المؤمن مالم يخطر له ببال ٠

* (لا يغرّنك تقلب الذين كفروا فى البلاد : متاع
قليل ثم مأواهم جهنّم و بئس المهاد : لكن
الذين اتقّوا ربّهم لهم جنّات تجرى من تحتها
الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله و ما
عند الله خير للأبرار) *

كاف الخطاب فى قوله لا يغرّنك يجوز فيها العموم لكل من تتأتى منه الرؤية او السماع كما يجوز فيها الخصوص بنبىّ الاسلام و التقلّب هو التصرف و تسهّل الموارد و المصادر و المتاع ما يستمتع به و المهاد ما مهّد من المكنّ و المأوى و الآية فيها ازاحة شبهة و نوع من التسلية للعموم من النبىّ و المؤمنين به كما فيها دفع دخل يورده غير المتديّن على المتديّن بأن الكافر خير فى حاله من المؤمن لأنّه لا يتحرج من شىء و يسعى فى كل مسعى يثمر له ثمرا : و لذا نرى الكفرة يتمتعون بالمال و الجاه و انبساط الامور و ترى المؤمنين فى هذه الحياة بالعكس مشردين مضامين متعسرى الأمور .

و جواب هذا و ذاك ان الكافر كما ذكر يتقلب فى البلاد مهيأ الراحلة و الزاد و المؤمن فى نوعه قد لا يكون كذلك الاّ ان حياة الكافر فى هذه النشأة محدودة و عقباها فاسدة و نتيجتها العذاب المستمّر غير القابل للتحمل و حياة المتقى فى هذه الدنيا الضيقة تثمر له حياة غير محدودة فى اللذة و الرخاء و الدوام و الاستمرار : و الذى عند الله من حسن المآب خير للأبرار من حياة الكافر فى الدنيا من كافة الجهات ..

و يروى عن عبد الله بن مسعود انّه قال ما من نفس برّة ولا فاجرة

الاّ و الموت خير لها من الحياة و تفسير ذلك ان وراء الموت للبرّ رخاء غير مشوب و دائما غير منقطع ولا شك ان الموت الذى يثمر ذلك خير من ادامة البقاء فى هذه الحياة المنغصّة و مهما قرب موت الكافر فانه يقلّل من بلواه و يحدّد من خطاه و يحذف من جرائمه و يقصّر من سيئآته

* (وانّ من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله و ما انزل اليكم و ما انزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم أجرهم عند ربّهم ان الله سريع الحساب) *

بعد أن ندّد سبحانه بأهل الكتاب فى آيات عديدة و ذكّرهم بالعناد و الانحياز الى الرموز أبان انّه قد يحصل فى كثراتهم الجوفاء من يملك اللبّ و ينطوى على صادق الحبّ لما يتولاه من عقيدة و انّه انّما تهوّد او تنصّر لأجل الله الذى آمن به فانه يدين بالاسلام لأجل ذلك فهو كما احبّ موسى و عيسى فى الله يجب عليه ان يحب محمدا لهذا السبب فأحبّه و آمن بالجميع فى عرض واحد بداعى الخضوع لله لا للفرد و لا للعنوان الخاص ولا انحيازا الى رمز او انتهازاً المطمع كما يفعل المنافقون ذلك ·

فان اليهودى الذى تتجلّى له حقيقة المسيحية ولا يؤمن بها ليس بيهودى ايضا و انّما هو صرف منتسب لها و هكذا اليهودىّ الذى تتجلّى له واقعية الاسلام و يجحدها ليس بمؤمن بالله سبحانه بل هو مرموز حتى فى يهوديته ·

و ما ذلك الاّ لأجل ان هذه العناوين لا قيمة لها فى نفسها وانّما قيمتها بالمبدأ الذى امر بها وقد أمر المبدأ بعيسى بعد ارساله و

بمحمّد لعد بعثته فالتلوّى على عيسى و محمّد تلوّ على اللّه تعالى ٠

اذا فالذى يؤمن باللّه و ما أنزل على نبىّ الاسلام و ما انزل على من قبله من الرسل كموسى و عيسى خاضعا فى قبول ذلك لربّه الذى امره فلم يتمرد فى عبوديته امامه و لم ينتهز مندوحة اغراضه الشخصية و ميوله النفسية فهو له اجره الموفور عند ربّه يصل اليه فى اوّل اوقاته و بالعكس فان الذى يدّرع الانتهاز فى العقيدة فانه شرّ من الكافر الملحد باللّه لتجافيه عن التعرّف باللّه لعوامل غير مرموزة ٠

* (يا ايّها الذين آمنوا اصبروا و صابروا و رابطوا
و اتقوا اللّه لعلّكم تفلحون) *

الصبر و المصابرة من مادّة واحدة اوليّة هى حبس النفس لكن المصابرة تعطى معنى المقابلة ولازمها الصبر فى مقابل الأغيار الذين يريدون خلاف ما يعتقده الطرف و المرابطة اصطلاح فى ملازمة الثغور لأجل حفظ الوطن و التقوى المحاذرة من التورط فى مناهى اللّه فالصبر يكون على الطاعة فى التكليفات و على هضم الحوادث فى التكوينيات و المصابرة تكون فى دفع الأغيار الناصبين للعقيدة جهاداً ودفاعاً والمرابطة نصب النفس لذلك دعماً للعزّة و حفظ البيضة و التقوى تكون عن المعاصى وهى مفتاح فلاح العبد ان شاء اللّه تعالى : و بهذه الآية تنتهى سورة آل عمران : ٠

** (سورة النســـــاء) **

مدنية كلّها قيل الآ اية واحدة.نزلت بمكة عام الفتح و هى قولــه تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها وعدد آيهـــا (١٧٧) عند اهل الشام و (١٧٦) عند اهل الكوفة ،و (١٧٥) عند الباقين ، سمّيت السورة بالنساء لورود هذا اللفظ فيها كالمناسبة فى سورة البقرة وغيرها وقد ورد فى فضلها اثر كثير ·

* (بسم الله الرحمن الرحيم : ياايّها الناس اتّقــوا ربّكم الذى خلقكم من نفس واحدة و خلق منهـــا زوجها و بثّ منهما رجالا كثيرا و نساء و اتّقــوا الله الذى تسائلون به و الأرحام ان الله كـــان عليكم رقيبا) *

ياايّها الناس خطاب لكافة بنى الأنسان موحّدهم و ملحدهم وامــــر الجميع بتقوى الله منزلّ على الواقع لاعلى العقائد فأن الجميع مخلوقون له و ان انكر جملة منهم ذلك و النفس الواحدة هى الأصل الأولـــىّ الذى حصل منه التفرّع و بما ان التوالد اللقاحى يتوقف على طرف ثان ذكره بقوله تعالى و خلق منها زوجها و معنى ذلك ورد فى الآثـــار السمعية فقيل من فاضل طينته و قيل من ضلعه القصيرة ·

وعلى اثر اللقاح و التوالد بين الذكور و الأناث بثّ منهما رجالا كثيرا و نساء كذلك و ضرورى للمخلوق ان يخاف سطوة خالقه المتصــرّف بأصل خلقته و فروعها فأنه قادر ان ينزل اىّ شيء اراد بمخلوقه لذلــك فهو محلّ لأن يخاف منه قطعا و ان كان لا بدّ مراعاة للحكمة ان يكــون خوف العبد للمعبود و المخلوق للخالق عن منشأ عقلائى ولا يكـــون

جزافا ٠

ثم اعرب سبحانه عن الموجب لخوفه بطريقة ثانية هي اوضح عند المخاطب من طريقة اصل الخلقة فقال و اتّقوا الله الذى به ينشد بعضكم بعضا و يقسم به عليه فيقول انشدك الله الاّ ما فعلت كذا ولا يقسم الأنسان بشئ لآخر الاّ و للمقسم به كيان و احترام عند الطرفين و كل محترم للنفس ملحوظ لديها بالأكبار يجب اتقاء معصيته ٠

و الأرحام بالنصب معطوف على لفظ الجلالة بمعنى و خافوا ايضا قطع الرحم و التجافى عنه وعدم الأعتناء به وقرئ بالجرّ فيكون عطفا على الضمير المجرور بالباء فيكون اطراد الآية هكذا و اتقوا الله الذى تتسائلون به و بالأرحام فأنّهم كانوا يقولون فى الكثير من كلامهم انشدك بالله و الرحم لكن عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور بدون تكرار حرف الجرّ قبيح فيجب تنزيه القرآن عنه ٠

و الرقيب هو المراقب الناظر الى حركات الطرف و سكناته حتى انه لا يغيب عنه شئ وعن هذا المعنى اخذت الرقابة فى الأعمال والمهن و التجسس ، و الآية تشير الى اصلين من اصول العلوم الطبيعية (الأول) ان خلقة الأنسان ابتدائية ابداعية و ليست بالتحوّل كما يدّعيه المشرب الداروني (والثانى) ان النتاج لا يكون من دون لقاح الاّ اذا اقتضى الأعجاز ذلك كما حصل فى المسيح ابن مريم ،وتشير الآية ايضا الى استنقاص صفة التكبر و ذّم المتكبرين بسبب الأنساب وان اصل الجميع اذا كان واحدا لم يكن من الحق ان يتكبر انسان على انسان من ناحية آبائه و اجداده ٠

* (وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيّب ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم انّه كان حوبا كبيرا) *

اليتيم هو الذى لا أب له مع كونه غير بالغ فلا يتم مع البلوغ ولزوم ايتاء الأولياء و الأوصياء اموال اليتامى لهم مشروط بالبلوغ و الرشد كما جاء فى قوله تعالى فأن آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم و اطلاق اليتيم على البالغ مجاز باعتبار ما كان و الأيتاء فى هذه الآية كما يشمل بظاهره مابعد البلوغ يتناول ما قبل البلوغ ايضا بالنفقة عليه فأنه ايتاء له ايضا وكما امرهم سبحانه بأيتائهم اموالهم نهاهم ان يبدّلوا مال اليتيم الطيّب بأموالهم الخبيثة و يعاوضوه فى حال صغره بما لا يقبله منهم لو كان رشيدا .

ولا شكّ ان ابدالهم طيبه بخبيثهم لؤم و خيانة للأمانة كما نهاهم ان يجمعوا بين اموال اليتامى و اموال انفسهم لخاصة اكياسهم ويحرموا اليتيم منها بالمرّة فأن ذلك من اعظم الجرائم و لذلك قال عنه سبحانه انه كان حوبا اى جرما كبيرا و الحوب هو الأثم و كان فى اصله لزجر الأبل لأن كل اثم يزجر عنه .

و ملاك الآية هو توصية الأقوياء من اىّ طريق كان لهم فيه قوّة بالضعفاء فلا يجوز لهم ان يتخطوا حدود الحقّ انتهازا للنفوذ الذى يملكونه فيكون اليتيم كناية عن الضعيف و الولىّ كناية عن القوىّ .

* (وان خفتم الاّ تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع فأن خفتم الّا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الاّ تعولوا :وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة فأن طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) *

الخوف يطلق على انصراف النفس الى الشئ او عنه بسبب يقين او ظن يقوم بذلك الصرف و اقسط مهموزا بمعنى عدل و انصف وبدون همز (قسط) بمعنى جار و ظلم و كلمة ما وان كان المعروف فيها اطلاقها على غير العاقل الاّ انّها كثيرا ما تطلق على العاقلين ككلمة من فان المعروف فيها اطلاقها على العقلاء لكنها تطلق بكثرة على غيرهم (فالاول) كقوله تعالى و السماء وما بناها (والثانى) كقوله فمنهم من يمشى على بطنه ٠

و قالوا ان (ما) تقع للنعوت و لو كانت نعوت عاقلين و من جملة ذلك ما نحن فيه اى فانكحوا الطيب من النساء و مثنى و ثلاث و رباع الفاظ معدولة عن اثنين اثنين و ثلاثة ثلاثة و اربعة اربعة وعال الرجل عولا اذا جار و منه العول فى الفريضة فأن فيها جورا على اهل الفرائض ،و الصداق و الصدقة بفتح الدال و الصدقة بضمّها الفاظ بمعنى المهر و النحلة العطية وقد تطلق على الدين كما يقال فلان انتحل كذا مذهب بمعنى دان به و طيب النفس رضاها و هنأ و مرأ بمعنى طاب ٠

ولا شكّ انّ ظاهر هذه القضية الشرطية و ان خفتم الاّ تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم ظاهر قلق و لكن مع مراعاة وجه نزولها

يرتفع هذا القلق فى المعنى فأن الرجل فى زمان نزول القرآن كان يكفل اليتيمة لكونه مشرفا على وضعها و وليّا لها و يرغب ان يتزوج بها و بما انه يعتبرها كملك له لا ينصفها فى مهرها الذى يعقدها عليه ولا يعطيها كما يعطيها غيره من الازواج الأجانب الى غير ذلك من التساهلات التى تكون بين الأقارب و اشباههم لذلك امر ان يتجافى عنها الى غيرها من النساء حتى لا يقع فى محذور الحيف بها و الغمط من حقوقها و نظير هذا المعنى متداول فيما زاولناه من مسير العشائر فانهم يبخسون القريبة فى صداقها الى حدود بعيدة و يسومونها للأجنبىّ بأغلا ثمن قد يكون نسبته ٩٥ بالمائة اضافة على ما يتداولونه بينهم ٠

فيكون معنى الشرطية على هذا فأن خفتم من انفسكم جورا فى اليتامى الواقعين تحت كفالتكم بمنزلة وقوع المماليك لكم فاعدلوا عنهنّ و تزوجوا ما طاب وحلّ و وقع من رغبتكم موقع القبول ،و ذيل الشرطية من مسألة تعدد النساء لا ربط له بالقضية كلّها و انّما ربطه بالجزاء فقط كأنه قيل فهل نكاح ما طاب لنا غير محدود بحدّ او انه محدود فأجيب بجواز التعدد ثم هل العدد المذكور هنا حدّ لا يتخطّى او انه سيق مساق المثال لا اشعار من الآية بالتحديد بالأربع الاّ على احتمال اقوى فأنّ احتمال سياقه مساق المثال قوىّ ايضا ٠

نعم ورد فى السنة ما يقطع معه بالتعيين و التحديد بالاربع حرائر للحرّ ،هذا ولا يجوز ان يحتمل ارادة اثنين اثنين من كلمة مثنى و ثلاثة ثلاثة من كلمة ثلاث و اربعة اربعة من كلمة رباع على ان تكون بمعنى اثنين فوق اثنين وثلاثة فوق ثلاثة واربعة فوق اربعة بل المنظور بالكلمة الثانية من هذه المكررات تأييد الكلمة الأولى منها لا الجمع بينها ٠

كما ان الأمر باصل النكاح هنا للأباحة نظير امثاله حيث يقال فأن خفت من اكل هذا الطعام فكل الطعام الآخر و هكذا فى متعلقه فأن المنظور به اباحة التعدد لا لزومه ٠

و قوله فأن خفتم الاّ تعدلوا فواحدة يتناول الخوف السابق على نكاح المتعددات و اللاحق له فالذى يتيقن من نفسه او يظن انه لا يقدر على اقامة العدل بين نساء متعددات يكون مشمولا للآية كالذى نكح متعددا فلم ينصف بينهنّ ، و كلمة واحدة بالنصب تكون مفعولا لفعل محذوف تقديره فانكحوا واحدة و يجوز رفعها على ان تكون مبتدأ لخبر محذوف تقديره فواحدة فيها كفاية و بلاغ ٠

و قوله او ما ملكت ايمانكم عطف على قوله واحدة بتقدير فأن خفتم مع التعدد الاّ تقيموا وزن العدالة بين الازواج المتعددات فانكحوا حرّة واحدة بالتزويج او ما ملكت ايمانكم و لو كثر ملكها عندكم ، ومن هذا يظهر ان العدالة ليست بشرط فى ملك اليمين كما ان العدد ليس بمعتبر فيجوز للأنسان ان يطأ بملك اليمين ما شاء عددا وما شاء فى ايواء بعضهن اليه دائما دون بعض ٠

و السرّ فى ذلك بعد تصحيح ملك اليمين انه ملك طلق و متاع كسائر الأمتعة فانه لا يشترط على مالك المتاع ان يسوّى فى استعماله له بين هذه السلعة و تلك بل المتّبع رغبته ٠

ذلك ، اشارة الى الأقتصار على الواحدة من الحرائر وما شاء المالك من ملك يمينه و محلّه من الأعراب الأبتداء و الخبر قوله اقرب من عدم الجور و ادنى الى الانصاف للزوجة ، و آتوا ، الخطاب صالح للأزواج و لكل من بيده تزويج المرأة و لو بولاية عرفية ، النساء ، يعنى الأزواج ، صدقاتهنّ ، يعنى مهورهنّ ، امّا بالنسبة الى الأزواج فأن

الزوجه تملك الصداق كله بالعقد ملكا متزلزلا فاذا تعقبه الدخول ملكته كلّه ثابتا و امّا بالنسبة الى الأولياء العرفيين بل و الشرعيين فمعناه ان ما يتسلمونه من صداقات النساء لا يحلّ لهم منه شيء ويجب دفعه الى المرءة المعقودة فان فى عوالم الجاهلية بل و فى العشائر ايضا رسما فى هذا الباب هو ان الولىّ يقبض الصداق و يكون له حق التصرف فيه فقد يعطى المرءة منه شيئا وقد لا يعطى فحرّم ذلك الأسلام عليهم ٠

ومعنى نحلة انه يجب عليكم ايتائهنّ مهورهنّ كما يعطى الأنسان العطاء من كل نفسه فان العطايا لازمها ان تكون مقرونة بطيب النفس اذ لا جابر عليها غير ارادة الأنسان نفسه عن رغبة خالصة هذا اذا حملنا معنى النحلة على العطية و اذا حملناه على الدين كان معنى الآية و آتوا النساء صدقاتهن فريضة عليكم و دينا يلزمكم التعبد به فأن طبن لكم ايّها الازواج او الأولياء عن شيء منه نفسا فكلوه حينئذ هنيئا مريئا اذ لا مانع من الشرع يقف امام من يريد ان يعطى من ماله فى وجه مشروع قليلا كان ام كثيرا ٠

و انتصاب نحلة و هنيئا مريئا فى الأصح على الحال بمعنى و آتوا النساء صدقاتهن حال كونكم فى ايتائكم لذلك كالمعطين لأموالهم عن طيب انفسهم لا كالمأخوذ منهم قسرا او منتحلين لدينكم الذى يأمركم بأداء الحقوق لأهلها او فكلوه حال كونه طيبا لكم لا حزازة فيه ولا تعلّل فى تناولكم له ٠

* (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التى جعل الله لكم قياما و ارزقوهم و اكسوهم و قولوا لهم قولا معروفا) *

الأيعاء التخويل و السفيه الفاقد للعقل الأجتماعى الأقتصادى الحيوى و قيام بمعنى قوام و القول بالمعروف هو القول الأقناعى و مفاد الآية انّه لا يجوز للعاقل الرشيد ان يؤتى ماله للسفيه سواء كان بعنوان اعتبار السفيه قيّما و وكيلا و مدبر شؤن بحيث يتخلّى العاقل الرشيد عن ادارة شؤنه بتفويضها للسفيه ام بعنوان اعتباره معطى مخوّلا بعض المال ليصرفه فى شؤن نفسه كل ذلك مشمول لنهى الآية لان السفيه بمعناه الآنف ليس محلاّ لشئ من الأعتبارات المذكورة وانّما هو بحاجة الى قيّم يشرف على حركاته و سكناته .

و الآية تشعر ايضا باحترام المال عند الله سبحانه و انّه هو قوام الوجود البشرى فيجب ان يراعى فى صرفه كمال العقل و التدبير و المفعول الأول لجعل محذوف تقديره جعلها لكم قياما و الأمر فى قوله تعالى و ارزقوهم و اكسوهم يكون للوجوب حيث يكون المنفق عليه من واجبى النفقة و الاّ فباعتبار مورده من الأستحباب و الأباحة .

و يريد تعالى من قوله و قولوا لهم قولا معروفا انه يجب عليكم ايّها العقلاء الراشدون الخروج من مستدعيات السفهاء متى يطالبونكم بالمال يعطى لهم او الشؤن تخوّل اليهم بالكلام المعسول و المواعيد المقنعة بأنك يا هذا الأنسان متى اجازت المصالح ان نخولك شؤن هذا الأمر او نضع تحت اختيارك هذا المال فأننا لا نضنّ عليك و انّما نرجئ ذلك لوقت صلاحه و امثال هذا الكلام .

وقد يستفاد من فحوى الآية ان كل فاعل حرام سفيه او فيه شيء من السفه بمقدار ما يرتكبه من قلة وكثرة ـ ذلك ـ لان كافة محرمات الشريعة قائمة على منطق و مخالف المنطق ليس بعاقل و متى فقد الأنسان عقله المدبّر صار سفيها محلا للحجر عليه و فضلا عن كون فاعل الحرام سفيها فان المتوسع فى المباح قد يكون سفيها ايضا لأن الخروج عن دائرة موازين الحاجة كما يكون تفريطا يكون افراطا و كلا طرفى الأفراط و التفريط بخروجهما عن المنطق الوزين يعتبران من السفه و ان كان اطلاق السفه على الأفراط أبين و أظهر ٠

و امّا جهة احترام المال عند الله احتراما مشفوعا بالشدّة و المحافظة عليه فانه الكيان الوحيد فى تنمية الحياة و به تجلب العواطف البشرية كائنة ما تكون و لذلك اعتبر الشيوعيون ان المادة وحدها هى المحور الذى تدور عليه جنبات العالم و ان اخطأوا فى كثير ممّا فرّعوه على هذا الأعتبار ٠

* (وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فـأن
آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهـم
ولا تأكلوها اسرافا وبدارا ان يكبروا ومن كان غنيا
فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فاذا
دفعتم اليهم اموالهم فأشهدوا عليهم وكفى
بالله حسيبا) *

الأبتلاء هو الأختبار و بلوغ النكاح هو وصول الطبيعة لوقت اللقاح والأثمار وهو زمان هيجان القوى و الأيناس هو الوجد ان و الأسراف هو التجاوز عن الحدّ المعتدل و الغنىّ هو الواجد للكفاف فما فوقه و العفة صرف النفس عن الشيء و الفقير المحتاج و المعروف هو الأعتدال القائم بأيحاء الضروره ّ الحسيب هو الحاسب الدقيق .

تعرضت الآية لجملة من احكام اليتامى و الأشراف بالولاية عليهم فنطقت بان الحدّ الفاصل للولاية عليهم وجود امرين فيهم البلوغ الطبيعي من حيث البنية الطبيعية و الرشد وهو مزاولتهم لأمورهم مزاولة العاقل المدبّر لشؤن نفسه بأن لا يذهب بنفسه و ماله مذاهب الغبن و السفه فمتى اجتمع فيهم هذان العنصران كانوا احقّ بأنفسهم من كل احد .

كما حرّمت الآية اكل اموالهم على المشرفين عليها الحافظين الضابطين لها بطور اسراف و خروج عن الميزان الآتي بيانه و الأستعجال بنفادها قبل ان يبلغوا حتى اذا بلغوا لم يجدوا شيئا يطالبون به و انّما يواجهون العذر من المشرفين بأن اموالكم مشت جهد مقدورها بكم فاصلة صغركم امّا الآن فلا شيء لكم عندنا فاستعينوا

على ادارة انفسكم بالعمل و بذل النشاط ٠

و ابانت الآية ما يستحقّه الناظر فى اموالهم جزاء خدماته واتعابه فقالت من كان غنيا بمال نفسه فليعفّها عن تناول شيء من اموال هؤلاء اليتامى الذين رصد نفسه للقيام على شؤنهم ومن كان فقيرا فانه يستحق ان يتناول من اموالهم ما به كفاف ضروراته كاجرٍ لنظارته و عمله و فى ختام الآية ارشد الله عباده الى ما فيه صلاحهم و قلة خصوماتهم بأن المؤتمنين يلزمهم ان يأخذوا الحائطة لأنفسهم عند ارجاع الامانات التى عندهم لليتامى بالأشهاد على اقباضها وعقّب سبحانه كل تلك الأحكام الموجهة الى المكلفين بأنّه تعالى ادقّ الحاسبين فى نظره الى اعمالكم و ليس كالاغيار الذين تفوت عليهم الأمور العظيمة فضلا عن المطالب الصغيرة ٠

* (للرجال نصيب ممّا ترك الوالدان و الأقربون
و للنساء نصيب ممّا ترك الوالدان و الأقربون ممّا
قلّ منه او كثر نصيبا مفروضا) *

قد يقال كان اللازم ان يقول سبحانه للرجال و النساء نصيب ممّا ترك الوالدان و الأقربون ولا داعى لهذا التطويل و الجواب ان عرب الجاهلية (ونماذجهم موجودون اليوم فى عالم العشائر) ما كانوا يرون للمرءة ارثا و يرونها هى ارثا لأخيها الموجود اوعمّها يبيعها او يبادل بها فأبطل الله هذا الرأى و هذا العمل و ساواها مع الرجل فى اصل الأستحقاق بأنّه كما يستحقّ من والديه و قرابته كذلك هى تستحق من والديها و قرابتها من جميع ما ترك من القليل والكثير نصيبا مفروضا لها من الله بالأصالة كما ان الرجل كذلك، و انتصب نصيبا على الحالية المؤكدة لقوله تعالى للرجال نصيب و للنساء نصيب.

هذا و الأرث تارة يتصور فى الأمزجة و الطبائع وتاره فى الأخلاق و الصفات و اخرى فى الأموال امّا الأرث فى الامزجة و الطبائع و الأخلاق فليس بملاك لازم لقيام الوجدان على خلافه بصورة متسعة و امّا الأرث فى الأموال فقد استسخفه الشيوعيون زاعمين اننّا حتى لو صححنا الملكية الفردية للمكتسب فأننا لا نستطيع ان نصحح توريث المال من واحد لآخر لم يسع فيه و لم يكدح و هذا غلط منهم فأن الذى يصحح الملكية الفردية الآتية من كدّ العضلات او الذهنيات لا يستطيع ان يقف امام هذا المالك فى تخويله درهمه لمن احب الاّ ان يكون فى هذا التخويل مفسدة تقف امامه، و هذه الآية انما افادت اصل ثبوت الارث و امّا فرائضه و تعديل طبقات الورآث فسيأتى الكلام

عليهما فى آيات لا حقة ٠

* (و اذا حضر القسمة اولوا القربى و اليتامى و المساكين فارزقوهم و قولوا لهم قولا معروفا) *

يعنى اذا حضر قسمة الأرث اولوا قربى الميّت من الذين لا يرثون لحجبهم بغيرهم و حضرها اليتامى و المساكين ايضا فارزقوهم ايّها الورّاث كلاّ وما تطيب به انفسكم مواساة لهم و اعتذروا عن قليل ما تدفعونه اليهم بأعذار تطيّب قلوبهم بأن ما وصل الينا قليل فى نفسه او ورائه حقوق كثيرة لا تبقى عليه الى نظير ذلك و يرى بعضهم ان مفاد هذه الآية منسوخ بآيات الأرث المفصلة له و هو اشتباه فان مفاد هذه الآية لا ربط له بتلك بل هو حكم بحياله لا يرتبط بالأرث بما هو ارث و قيل ان الأمر فيه للأستحباب و قال فريق آخر انه للوجوب و ان المقدار الواجب منه ما تطيب به انفس الورثة و يؤيد كونه للأستحباب انه لم يعمل به منذ القديم ومن المستبعد كونه من الواجبات الشرعية واهمل مع تخطيه لأجيال كثيرة فيها من رجالات العلم النابهين الأكابر ٠

* (و ليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريّة ضعافا
خافوا عليهم فليتقوا اللّه و ليقولوا قولا سديدا :
انّ الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انّما
يأكلون فى بطونهم نارا و سيصلون سعيرا) *

تتعرض هذه الآية لحكم يشمل الأوصياء القائمين على يتامى الناس و حضّار المحتضر بأن من حكم الوصيّ فى قيامه على يتامى الناس مراعاة المصلحة و الغبطة وما يصلح شؤن اليتيم و ان يعمل مع يتامى الأغيار ما يوّد ان يعمل مع يتاماه لو مات و ترك ذريّة ضعافا يخاف عليهم الفقر و التسيّب فليتقوا اللّه و ليقولوا لليتيم اوفى حق اليتيم الذى اشرفوا على ادارة شؤنه قولا موصوفا بالمنطق و السداد و العقل و الاتزان او انّ من وظيفة حضّار المحتضر ان لا يصرفوه عن النظر الى من يترك خلفه و يقولوا له امّا الآن فقد انقطعت يدك عن كل شيء فلا تقصّر فى حق نفسك من الأيصاء بأخراج ما ينفعك من الحقوق و امّا هؤلاء الذين تتركهم و راءك فأنهم يعيشون و يستقبلون الحياة و ليسوا مثلك فى ادبارعنها بل من لازمهم ان لا يتركوا المنطق السديد ومن وظيفتهم ان يقولوا له كلا الأمرين حق لازم مراعاتك لنفسك ومراعاة من تتركهم ورائك حتى لا يكونوا عالة على الناس يتكففون ما فى ايديهم ، ثم عطف سبحانه القول على الأوصياء الخونة فقال انّما يأكلون فى بطونهم ما يسبّب لهم نارجهنم و سيصلون يوم المعاد عليه سعيرا يقال اصلاه النار اذا الزمه لها و سعرت النار اذا شبّت .

* (يوصيكم اللّه فى اولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين فأن كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك و ان كانت واحدة فلها النصف و لأبويه لكل واحد منهما السدس ممّا ترك ان كان له ولد فأن لم يكن له ولد و ورثه ابواه فلأمه الثلث فأن كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها او دين آباؤكم و ابناؤكم لا تدرون ايّهم اقرب لكم نفعا فريضة من اللّه ان اللّه كان عليما حكيما) *

هذه الآية فى صدر آيات تعرضّت لبيان احكام الأرث و الوارثين و نحن نتكلم عليها طبقا لها و لما يستفاد منها و ندع الأختلافات الفقهية لكتب الفقه فان مدركها ليس الكتاب وحده ·

الولد فى اللغة يتناول الذكر و الأنثى و الصلبىّ و غيره والفاظ القرآن جارية على موجب اللغة و مفاد الآية ان الأنسان اذا مات وترك بعده اولادا ذكورا و اناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين امّا اذا كان الاولاد نساء فقط فان كانت واحدة فلها النصف وان كان النساء فوق اثنتين فلهن الثلثان ·

يبقى الكلام على مالو كان البنات اثنتين لا اكثر فأنّ هذا الفرض ليس متعرضا له فى نصّ القرآن و لكن مع مقارنة حكم الواحدة وما فوق الأثنتين يستظهر الحاق الانثيين بما فوق الأثنتين اذ لوكان حكم الاثنتين حكم الواحدة لأدرج فيها نصّا فيستأنس ان الثلثين فرض الأثنتين فصاعدا كما يستظهر ان الولد اذا كان ذكرا فمتحده ومتعدده سواء بمعنى ان المال يكون له و لو كان له حكم خاص لأبين اذاً فالولد الذكر واحدا

كان ام اكثر لا فرض له و انّما له المال كلّه .

والخنثى لم يتعرض لها فى الكتاب و هى داخلة فيما يتصور للولد من ذكورة و انوثة او غيرهما و هى فى واقعها لا تعدو ان تكون امّا ذكرا و اما انثى لكن ذلك قد يتعمى بسبب اشكال المطلب و تعسّر تمييز احد النوعين فيه فالا ستيناس الفقهى قاض بان يورّث نصف ما للذكر و نصف ما للأنثى بأن يفرض ذكر مرّة فيورّث ميراث الذكور وانثى اخرى فيورّث ميراث الأناث و ينصّف ما بين الحقّين .

و تنص الآية انّ الأبوين يشاركان الاولاد فى الأرث فالفريقان اذا فى طبقة واحدة فالمتوفى اذا مات عن ابوين فان كان له ولد مذكرا كان ام مؤنثا ام مشتبها فلكل واحد من ابويه السدس و ان لم يكن له ولد و ورثه ابواه كما نطق القرآن فللأم الثلث بالفرض و الباقى يكون للأب اذا فالأمّ ذات فرض على كل حال سواء كان للميّت ولد ام لم يكن امّا الأب فلا يرث بالفرض الا مع وجود ولد للميّت و بدونه يكون له الباقى .

و مع وجود الأبوين للميّت مع عدم الولد فان كان للميّت اخوة (والاخوة بحسب الاصطلاح جمع مذكر لا يتناول الاخوات و له ظهور فى اكثر من اثنين لكنه يشمل الكلالات الثلاث الاخوة من الأم و الاخوة من الأب والاخوة من الجانبين) فوجود الاخوة بهذا اللون يحجب الأمّ عمّا زاد عن السدس ، لكن حجب الاخوة امّ الميت عمّا زاد عن السدس فيه شرائط ومجارى غير ما يستظهر من القرآن كما هو مثبت فى الفقه .

قوله من بعد وصية يوصى بها او دين يفيد تقديم الوصايا مهما بلغت حتى لو كانت اكثر من الثلث و تقديم الديون ايضا و مهما ضخمت امّا الديون فهى بجميع ارقامها حتى لو استوعبت التركة مقدمة لأنها

حقوق الناس وقد حلّت بموت المديون و ليس الأمر فى الوصايا كذلك لما فيها من بحوث مفصلّة فى الفقه والخلاصة ان الأرث انما يكون بعد اخراج الوصايا و الديون من التركة ·

و لمّا كان الآباء و الأبناء يتصلون بالميّت بلا توسيط و كانوا فى طبقة واحدة لم يدر الأنسان ماذا يفعل معهما فى تسهيم ماله عليهما اذ لا يعلم انّ ايّ الفريقين اكثر فائدة له فى دنياه و اخراه حتى يزيد فى حقّه و ينقص لكنّ اللّه العالم بذلك شخّص حقوق الطرفين و رفع الحيرة عن الانسان بالنسبة الى ما يتخذ من تصميم فى حقّهما و هذا هو معنى قوله تعالى آباؤكم و ابناؤكم لا تدرون ايّهم اقرب لكم نفعا و انتصبت فريضة على الحال من متعلق يوصيكم اللّه بمعنى ان اللّه يوصيكم و يفرض عليكم ذلك حال كون ما اوصى به فريضة و حكما لازم الأتباع انّ اللّه كان عليما بالحقائق و على طبق علمه بها فصّلها وحكيما يضع الشيء موقعه لا جزافا و تحكّما ·

* (و لكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهنّ ولد
فأن كان لهنّ ولد فلكم الربع ممّا تركن من بعد
وصيّة يوصين بها او دين و لهنّ الربع ممّا تركتم
ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهنّ الثمن
ممّا تركتم من بعد وصيّة توصون بها او دين وان
كان رجل يورث كلالة او امرءة و له اخ او اخت
فلكلّ واحد منهما السدس فان كانوا اكثر من
ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى
بها او دين غير مضّار وصية من اللّه و اللّه عليم
حليم) *

تفيدنا الآية نحن و منطقها ان للزوج نصف ما تترك زوجته الفاقدة للولد حال موتها بقرينة كاف خطاب المذكر و نون ضمير النسوة فى لهنّ و امتناع تعدد الزوج للزوجة الواحدة فى عرض واحد و له الربع مما تركن ان كان لهنّ ولد منه او من غيره واحدا كان ام اكثر صلبيا ام غير صلبى و للزوجة الربع مما ترك الرجل ان لم يكن له ولد و الزوجة الواحدة وما زاد عليها لا يزيد حقّها ولا حقّهنّ عن الربع مع عدم الولد و تشترك الاكثر من الواحده فية فان كان للزوج ولد متحد او متعدد صلبى و غير صلبى من الزوجة الموجودة او من غيرها فلهنّ الثمن الواحدة تختصّ به و الزائد عليها تشترك فيه حسب عددهنّ ٠

و الكلالة فى هذه الآية و فى آخر آية من هذه السورة هى الأخوة لان اللّه سبحانه شرحها فى كلا المقامين (اما المقام الذى نحن فيه)

فقال و ان كان رجل يورث كلالة او امرئة و له اخ او اخت و لم يذكر وراء الأخوة انسانا آخر من مناسب او مسابب ٠

(وامّا المقام الثانى) فقال يستفتونك قل اللّه يفتيكم فى الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد و له اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك و ان كانوا اخوة رجالا و نساء فللذكر مثل حظ الأنثيين و فسّر الكلالة بالأخوة و لم يزد على ذكر الاخوة شيئا فمن الكتاب نفسه يعرف ان الكلالة اصطلاح فى الأخوة ومن مقارنة آيتى الكلالة يستبين انها فى طبقة ثانية فلا تجامع الأولاد و الآباء فلا يرث الاخوة مع وجود الولد للميّت ولا مع وجود الأبوين او احدهما له بدليل انه تعالى جعلها حاجبة غير وارثة بقوله فأن لم يكن له ولد و ورثه ابواه فلأمه الثلث فأن كان له اخوة فلأمّه السدس و جعلها وارثة بشرط عدم الولد حيث قال ان امرؤ هلك ليس له ولد و له اخت وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ٠

كما يستبين من مقارنة آيتى الكلالة ايضا ان ميراث الأخوة ليس على لون واحد فمن الوانها ان الأخ و الأخت يتساويان فى كمّ الاستحقاق وعدم التفاضل و هذا اللون تكفلته آيتنا الفعلية فأن فيها و له اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس فأن كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث و مفادها ان الموجود من الكلالة ان كان اخا او اختا فلهذا الواحد الموجود مذكرا كان ام مؤنثا سدس وان كان اكثر من واحد ذكورا ام اناثا ام مختلفين اثنين كانوا ام زائداً عليهما فهم شركاء فى الثلث لا تفاضل بينهم ٠

و من الوانها ان الموجود من الكلالة ان كان انثى واحدة فلها النصف ممّا ترك و ان كانتا اثنتين فلهما الثلثان و ان كانوا اخوة

مختلطين رجالا و نساء فللذكر مثل حظّ الأنثيين و هذا اللون تكفلته آية الكلالة الثانية وقد اسلفنا ذكرها لكننا لا نستطيع ان نشخص من الكتاب نفسه من هى الكلالة الأولى و من هى الكلالة الثانيه و لكنّ السنة فسّرت ذلك فرأت ان الكلالة الأولى هى كلالة الأم وحدها و ان الكلالة الثانية هى كلالة الأبوين معا او الأب وحده و ثبت فى الفقه ان كلالة الأم ترث على كل حال و امّا كلالة الأب وحده فلا ترث مع كلالة الأبوين ٠

قوله تعالى غير مضارّ معناه ان الوصية التى تنفّذ والدين الذى ينفّذ هى الوصية التى لا تضرّ بحال الوارث اى التى لم ينشأها الموصى بقصد الأضرار بالورثة و هكذا الدين فقد يقرّ بدين لا اصل له ليفيد المقرّ له و يضرّ بالوارث فما كان من الوصايا و الديون على هذا الملاك لا ينفّذ ولا قيمة له شرعا و انتصاب وصية على الحال كما سبق مثله فى قوله تعالى فريضة ، و اللّه عليم بواقع كل شىء ومن جملة ذلك هذه الفرائض حليم على عباده لا يؤاخذهم معا جلا لهم فى ارتكاب المعاصى ، وفى فقه المواريث كلام طائل و بحوث جليله ليس محل ذكرها الاّ كتب الفقه لحاجة بسطها الى كتاب بحياله ٠

* (تلك حدود الله و من يطع الله و رسوله يدخله جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها و ذلك الفوز العظيم : ومن يعص الله و رسوله و يتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها و له عذاب مهين) *

الأشاره بكلمة تلك الى ما سلف بيانه من احكام الفرائض و حدود الله هى النقاط التى ربط المكلفين عندها فى اعمالهم الحيوية و انما قرن طاعة الرسول بطاعته لان حبل الرسول موصول بحبل الله و ليس له من الأمرفى قبال الله شئ فكانت طاعة الرسول طاعة الله وعصيانه عصيانه ولا شكّ ان الخلود فى النعيم من اعظم الفوز لهذا الأنسان الذى قد يقوده شبح النعمة الى ان يرتكب من الجنايات و الخيانات ما لا يقدّر بقدر كما ان تجاوز الحدود المرسومة للمكلّف لأجل صلاحه ممّا يوجب له التأديب الشديد و هو الخلود فى النار و تعذيب الأنسان وإن لم يكن على اطلاقه مهينا للمعذّب فان الأنسان قد يعذّب على صدقه و طلبه للحرية و تعاليه عن الرذائل الاّ انه اذا وقع على جهة التأديب الواقعى كالقتل العدوانى و التلصص فى غير المخمصة و ارتكاب الفحشاء كان كلّ عذاب مهينا له بخاصّة العذاب الذى قصد به التوهين و اريد به تضعيف الشخصية ٠

* (و اللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا
عليهن اربعة منكم فأن شهدوا فأمسكوهن فى
البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن
سبيلا : و اللذان يأتيانها منكم فآذوهما فأن تابا
و اصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما) *

مفاد هاتين الآيتين مع انه مغفول فى الفقه الاسلامى بما يستدل منه على نسخه ليس بواضح من منطق الآية و يجب ان نسير فى استنباط المعنى مسيرا يحفظ للآيتين وزنهما و صحة سوقهما ، الفاحشة هى الفعل القبيح و ابرز معانيها الزنا وهو الذى يحمل عليه لفظ الآية و الاضافة فى ـ من نسائكم ـ تفيد ان المراد بها النساء المسلمات الحرائر لان ذلك هو المتيقن من هذه الأضافة و هكذا المنظور فى قوله ـ منكم ـ كون الشهود الاربعة المأمور بأشهادهم يجب ان يكونوا مسلمين و يحمل ظاهر الاسلام على العدالة و المراد بالأمساك فى البيوت هو الحبس و بقوله حتى يتوفاهن الموت هو التأبيد فيه ٠

و قوله يجعل الله لهن سبيلا يعطينا تزلزلا فى ثبات الحكم السابق بنسخه و هكذا كان الأمر فأن غير المحصن يجلد و يرسل اما المحصن فيرجم بالحجارة حتى يموت ، و لأجل رفع القلق الظاهرى بين مفاد الآيتين يجب ان يراد باللذين يأتيانها الذكران اللذان يمارسان فاحشة اللواط و حكمهما فى هذه الآية الأيذاء وهو قد يكون بضرب و توهين و قد يكون بغيرهما مما يصدق معه الأيذاء ٠

ثم عقب سبحانه هذه الأحكام بما يكون للتوبة معه مجال فقال

تعالى فأن تابا اى اى رجع هذان المرتكبان للفاحشة عن جريمتهما وانابا الى ربّهما واستقذرا فعلهما الصادر عنهما واصلحا حالهما فى حاضرهما بما غطىّ على سابقهما فأعرضوا بأيذائكم عنهما فان اللّه يقبل توبة من اناب اليه لأنّه فى ذاته رحيم ،وان شدّد للعاصى بالعقوبة فلأجل تعدّيه عن الحدّ الذى قرّر له ولكن مع ذلك للتوبة مجال محدّد اعرب فى الآيات اللاحقة عنه .

* (انّما التوبة على اللّه للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب اللّه عليهم وكان اللّه عليما حكيما :و ليست التوبة للذين يعملون السيئآت حتى اذا حضر احدهم الموت قال انّى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار اولئك اعتدنا لهم عذابا اليما) *

المراد بالجهالة قطعا هو الورود فى الذنب وان كان عن عمد لكن مع العزوب عن العلم وما يقتضيه فأنّ من المستحيل على العالم بكنه الشيء ان يرتكب خلافه وهو مستحضر لعلمه بجميع دقائقه بل لا بدّ حين الأرتكاب ان يسحب عليه حجاب الأهمال له والتناسى عنه والميل الى ما سواه ومثل هذا الجهل لا ينافى العلم ولا العمد كما هو واضح اذا فقيد بجهالة قيد توضيحى لأمر طبيعى والمنظور بقوله من قريب بقرينة ما بعده كون المجال متسعا امامه امّا مع العجز فيكون فى حاله معه كحاله مع موافاة الموت له وهو مذنب مثلا انما تقبل التوبة من اللصّ حيث يمكنه ادامة هذا العمل وهكذا توبة الزانى وقاطع الطريق واشباه ذلك وامّا مع عجز هؤلاء عن الأدامة فتوبتهم قهرية لاقيمة لها وحالها

فى عدم الأثر كحال من ينقطع عن ارتكاب المعاصى بالموت و تحديد مجال التوبة بما سبق تحديد معقول ولا مجال لغيره فالله سبحانه بشرائطه التى ذكرها لقبول توبة من يتوب اليه انّما عبّر عن مطلب طبيعى خالص و لم يبد منه مؤنة زائدة عليه .

* (ياايّها الذين آمنوا لا يحلّ لكم ان ترثوا النساء
كرها ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ماآتيتموهنّ
الاّ ان يأتين بفاحشة مبيّنة وعاشروهنّ بالمعروف
فأن كرهتموهنّ فعسى ان تكرهوا شيئا و يجعل
الله فيه خيرا كثيرا) *

ورد فى اسباب نزول هذه الآية آثار كثيرة متقاربة فى المضمون منها ان الرجل اذا مات كان اولياؤه احقّ بامرئته ان شاء بعضهم تزوّجهاوان شاؤا زوّجوها للأغيار و اكلوا صداقها و ان شاؤا منعوها عن الزواج بتاتا ،و منها ان الرجل كان يرث امرءة ذى قرابته فيمنعها عن التزوج حتى تموت او ترد اليه صداق قريبه الذى مات عنها ،و منها ان اهل الجاهلية كانوا اذا مات الرجل منهم جاء ابنه من غيرها او وليّه فورث امرءته كما يرث ماله و القى عليها ثوبا فأن شاء تزوجها بالصداق الأولّ و ان شاء زوّجها من غيره واخذ صداقها فنهوا عن ذلك .

و مفادها الظاهرى بحسب تركيبها انكم ايّها المؤمنون بالله يجب عليكم ان تترسموا خطوات الله فى عباده ومن جملة ذلك ان المرءة وجود مستقل حرّ مثلكم فلا يجوز لكم ان تحبسوها كسلعة ترثونها كما ترثون الأمتعة و الأموال بل هى باختيار نفسها ان شاءت اعطتكم مقادها

او صداقها و ان لم تشأ فلا طريق لكم عليها كما انكم ايّها المؤمنون لا يجوز لكم ان تعاشروا ازواجكم بسوء الأخلاق و منعها كل حقوقها الشرعية عليكم اوبعضها ليحملها هذا العنف بها ان تبذل صداقها لتفتكّ من هذا الزوج السيء العشرة الفاقد للمعروف نعم اذا تجاسرن فنرنين وهنّ فى حبالكم او اسأن عشرتكم و نشزن عن طاعتكم و فزعن الى ايذائكم فلكم ان تمنعوهنّ بعض حقوقهن الشرعية حتى يخلصن انفسهنّ منكم ببذل كل او بعض ما اصدقتموهنّ و يجب عليكم ايّها الأزواج المؤمنون ان تعاشروا نسائكم بالمعروف وهو حسن الاخلاق فى المعشر و بذل تمام النفقة من كافة وجوهها و المحافظة على وجودها بانحاء ما يحفظه و انتم يا معشر الأزواج المؤمنين لا تعاجلوا نسائكم بالطلاق و تعجلّوا لهنّ السراح لمجرد انكم لا ترغبون بهنّ واصبروا فعسى ان تكرهوا بالفعل شيئا و تكون عواقبه محمودة من تبدّل عدم الرغبة بالرغبة و الكراهة بالمحبة فأنّ ذلك كثير الوقوع فالتسرّع مع هذا الأمكان مذموم .

* (وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهنّ قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتاخذونه بهتانا واثما مبينا : وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا) *

القنطار هو المال العظيم وقد فسّر بما يملأ جلد ثور ذهبا او انّه الف دينار او عشرة آلاف درهم وغير ذلك من الأقوال ، والبهتان هو الكذب مع المواجهة والأفضاء هو الوصول وهو هنا كناية عن الجماع والغليظ هو المؤكد .

ومفاد الآية انكم اذا اشتهيتم واخترتم استبدال زوجة مكان زوجة اخرى بأن تطلّق الأولى وتملأ مكانها امرءة اخرى وكنتم قد اصدقتم المطلقة مالا عظيما — من باب مثال — حرم عليكم ان تأخذوا منه ولو شيئا حقيرا اذ المفروض بحسب ظاهر ارادة الاستبدال من الزوج ان المرءة غير كارهة للزوج فلا طريق له عليها الاّ بأن يبهتها بأنني انما طلقتك لانك لا تحبينني وهذا هو الذى دعانى الى الأستبدال بك والحال انه ليس فى الواقع من ذلك شيء فهذا هو البهتان والتجرّم الظاهر البيّن .

وكيف يجوز لكم يا معشر الازواج والحال هذه ان تأخذوا منه شيئا وقد تصرفتم بنواميسهنّ ونلتم منهنّ ولم ينلنكم الاّ بميثاق اخذنه منكم وهو العقد الشرعى الجارى بينكما وهو ميثاق له اهميته عند اللّه سبحانه ولهذا ابدى سبحانه الغرابة والعجب بقوله وكيف تأخذونه

* (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الاّ ما قد سلف انه كان فاحشة و مقتا و ساء سبيلا) *

النكاح كما يطلق على الوطى يطلق على العقد المجرد فمن عقد على امرءة فقد صدق عليه انه نكحها كمن وطىء امرءة بحلال كان ام بحرام و الأستثناء فى قوله الاّ ما قد سلف استثناء منقطع اذ لا معنى لاستثناء امر قد مضى من امر مستقبل و معناه فى الآية ان ما سلف يقع مشمولا للغفران و كونه فاحشة باعتبار انّه هتك لحرمة الأب باتخاذ فراشه فراشا للولد المنخلق منه ولا شكّ انه بئس السبيل فيستفاد من الآية حرمة معقودة الأب على الأبن و لو كان العقد مجردا عن الوطى كحرمة منكوحة الأب بالوطى و لو كان عن زنا على ولده و لفظ الآباء يقع على الأجداد ايضا و الولد يتناول غير الصلبى وعلى ذلك فتحرم منكوحة الأب على الولد و ان نزل .

* (حرّمت عليكم امّهاتكم و بناتكم و اخواتكم و عمّاتكم و خالاتكم و بنات الأخ و بنات الأخت و امّهاتكم اللاتى ارضعنكم و اخواتكم من الرضاعة و امّهات نسائكم و ربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهنّ فان لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم و حلائل ابنائكم الذين من اصلابكم و ان تجمعوا بين الأختين الاّ ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما) *

بديهى ان التحريم و التحليل الوارد على الأعيان لا بدّ و ان يكون مصروفا به الى جهة الانتفاع بها فمعنى حرّمت عليكم الميتة تحريم اكلها لان ذلك هو ابرز ما يراد بها و تحريم الأمّهات بمعنى تحريم الأستمتاعات الشهوية بهنّ لان ذلك اظهر ما يراد من المرءة و قس على ذلك و النساء اللاتى يحرم نكاحهنّ تارة يكون تحريمهن بنسب و اخرى يكون بسبب و كلا النوعين يتحقق فى سبع فصائل مذكورة فى نصّ الكتاب .

امّا الفصائل السبع للنسب : فهنّ :

(١) امّهاتكم و كل امرءة يرجع نسبك اليها بالولادة و لو من جهة الأب او من جهة الأم فهى امّك فالمرءة التى ولدتك مباشرة امّك و التى ولدت اباك امّك و التى ولدت امّك امّك و هكذا .

(٢) و بناتكم و كل امرءة رجع نسبها اليك بالولادة منك فهى بنتك سواء ولدتها مباشرة ام ولدها ابنك ام بنتك و هكذا .

(٣) و اخواتكم و كل انثى ولدها انسان ولدك فهى اختك

فيشمل ذلك الأخت من الأبوين و من الأب وحده و من الأم وحدها

(٤) وعماتكم و كل ذكر يرجع نسبك اليه فأخته عمتك وقد تكون العمّة من جهة الأم كأخت اب امّك و اخت جدّها .

(٥) و خالاتكم و كل انثى يرجع نسبك اليها بالولادة فأختها خالتك وقد تكون الخالة من جهة الأب كأخت امّ ابيك و جدّك .

(٦) و بنات الأخ و ان نزلن .

(٧) و بنات الأخت كذلك .

و امّا الفصائل السبع للسبب : فهنّ :

(١) ما سلف فى الآية السابقة ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم وقد مضى القول فيه .

(٢) و امّهاتكم اللاتى ارضعنكم و الأقتصار على محدوده الآية يفيد حرمة المرءة التى ارضعتك بلا اعتبار لكمّ الرضاع و كيفه كان اللبن عن ولادة او درّ محض عن نكاح مشروع او سفاح الى غير ذلك من تفاصيل هذا المجمل لكنّ السنة و معاقد الأجماعات حدّدت ذلك بحدود و فى جملة منها اختلاف بين الفقهاء نكله الى محلّه لكثرة تفاصيله و كل امرئة تنتسب اليها باللبن فهى امّك من الرضاعة و اعتمادا على قول رسول اللّه (ص) انّ اللّه حرّم من الرضاعه ما حرّم من النسب تكون فصائل الرضاعة المحرّمة على الأنسان سبعا كما كانت النسبيّات كذلك .

(٣) و اخواتكم من الرضاعة و هنّ بنات المرضعة و تفصيل ذلك موكول الى محلّه من كتب الفقه .

(٤) و امّهات نسائكم قد بينّا آنفا ان المرءة تكون زوجة الرجل بمجرد العقد عليها فأمّ المرءة المعقودة ام زوجة تحرم حتى لو لم

يمسّ بنتها و تتسع الأم باتساع عناوينها التى اشرنا اليها ٠

(٥) وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهنّ ٠

الربيب و الربيبة مأخوذان من التربية فى الأغلب و ان اطلق اللفظان على غيرهما من الذين ينفصلون عن امهاتهم عندما يتزوجن او ينخلقون من بعد مفارقة امهم لزوجها السابق فان الكائن السابق على تزوج امّه و اللاحق لانفصالها عنه بزوج غيره اولده كليهما ربيب ولا شك ان المراد بالدخول هو التصرف المألوف بين الازواج فتحرم بنت الزوجة على زوج امها مع الدخول بها لا بدونه فلو عقد على الأم و لم يدخل بها و فارقها جاز له ان ينكح بنتها ٠

يبقى الكلام فى قيد ـ اللاتى دخلتم بهنّ ـ فهل يجوز ان نجعله قيدا للطرفين من قوله و امّهات نسائكم و قوله و ربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم فيكون الدخول شرطا فى تحريم ام الزوجة و بنت الزوجة جميعا ٠

فنقول بعد صرف النظر عن المجارى النحوية رجوع القيد الى الأخير الملاصق له قطعى و رجوعه فضلا عن هذا الى امّهات الأزواج محتمل و الأحتمال لا يدفع ظاهرة العموم فى امّهات النساء و قد نقل عن النحاة ان الخبرين اذا اختلفا فى العامل لم يجز ان يكون نعتهما واحدا فلا تقول مررت بنساءك وهويت نساء زيد الظريفات على ان يكون النعت بالظريفات للنساء المضافة لكاف الخطاب و المضافة لزيد فهكذا الآية التى بأيدينا فان عامل امهات نسائكم الأضافة وعامل من نسائكم حرف الجرّ ٠

(٦) و حلائل ابنائكم الذين من اصلابكم ، و الحلائل جمع حليلة و هى الزوجة مأخوذة من الحلال فهى حليلة بمعنى محلّلة فأزواج

الأولاد حرام على الآباء بشرط ان لا يكون الأولاد اولاد تبنّى لا نسب بينهم و بين من تبناهم بالبنوّة الواقعية وبعد ثبوت النسب لا فرق في الولد بين ان يكون صلبيا ام غير صلبي و في الأب بين ان يكون قريبا ام بعيدا و في منكوحة الأبن بين ان تكون مدخولا بها ام لا و في حرمة موطوءة الأبن سفاحا على ابيه كلام محلّه كتب الفقه .

(٧) و ان تجمعوا بين الأختين ،فان العقد على احدى الأختين محرّم للعقد على الاخت الأخرى ما دامت الأولى في حبال الزوج و هكذا وطىء احدى الاختين بملك اليمين محرم لوطء الأخت الأخرى ما دامت الأولى مفترشة له .

و القول في قوله تعالى الاّ ما قد سلف كالقول في ذلك آنفا و معناه انه يقع مغفورا كما صرّح تعالى بقوله ان الله كان غفورا رحيما .

* (و المحصنات من النساء الاّ ما ملكت ايمانكم كتاب الله عليكم و احلّ لكم ما وراء ذلكم ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهنّ اجورهنّ فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة انّ الله كان عليما حكيما) *

احصن الانسان نفسه اعفّها بالزواج و السفاح هو النكاح غير المشروع مأخوذ من السفح وهو صبّ الماء او الدم و نظير ذلك من المائعات و المحصنات بالرفع عطف على المحرّمات السابقة من نسب و سبب اى و حرّمت عليكم النساء ذوات الأزواج فان المرأة ذات الزوج و التى بحكمها و هى المعتدة رجعيا حرام على غير زوجها فلا يجوز العقد عليها ولا الأستمتاع بها لغيره الاّ اذا سبى المسلم حربيّة و ملكها فأنّها و ان كانت ذات بعل فأن سبيها و تملكها يحل عقدة الزوجية و يستبرئها المالك و من بعد الأستبراء تكون ملك يمين جائز الأستمتاع به .

و انتصب كتاب الله على المصدرية لفعل محذوف تقديره كتب الله ذلك عليكم كتابا لتسيروا على ضوئه ، و احلّ لكم ما وراء تلك الأصناف من النساء لأجل ان تبتغوا بأموالكم التى تعطونها امّا بعنوان صداق المرأة و امّا بعنوان ثمن ملك رقبة حال كونكم فى ابتغائكم ذلك تحاولون تحصين انفسكم و اعفافها لا مطلق افراغ الشهوة ولو كان عن سفاح و نكاح غير مشروع و مع استمتاعكم بالمرأة يلزمكم كل المهر لأزواجكم اللاتى تصرفتم بهنّ ، فآتوهنّ اجورهنّ اى مهورهنّ لزوما و فرضا

و انتصب فريضة على المصدرية لا توهنّ فانه مصدر من معناه ولا اثم عليكم من بعد ما عقدتم و سمّيتم مهرا فيما تتراضون عليه من تقليل المهر المذكور في العقد و تكثيره فأنّ ذلك مربوط بكم فكلّما تتراضون به كمّا وكيفا فهو جائز لكم ولا مانع من الشرع فيه ان اللّه كان عليما بما يصلحكم و يحفظكم من التلوث بالباطل حكيما في تقنين قوانيه يضعها حيث محزّ الواقع هذا هو ما يقتضيه الجريان الظاهريّ للآية ٠

و قال الشوكاني في تفسيره فتح القدير عند تعرضه لقوله تعالى فما استمتعتم به منهنّ ٠٠٠ الخ قال الجمهور ان المراد بهذه الآية نكاح المتعة الذى كان في صدر الأسلام و يؤيد ذلك قراءة ابىّ بن كعب و ابن عباس و سعيد بن جبير فما استمتعتم به منهنّ الى اجل مسمّى فآتوهنّ اجورهنّ ثم نهى عنها النبى (ص) الى ان يقول : و ليست المنكوحة بالمتعة من ازواجهم ولا ممّا ملكت ايمانهم فأن من شأن الزوجة ان ترث و تورث و ليست المستمتع بها كذلك ـ الى ان يقول ـ وقد قال بجوازها جماعة من الروافض ولا اعتبار بأقوالهم ـ اهـ : ملخصا : ٠

و في قوله ثم نهى عنها النبى (ص) الى آخر اقواله انظار واضحة ـ امّا اولا ـ فلم يختلف اثنان من العارفين باحكام الاسلام في اباحة النكاح المنقطع في عهد الرسول و قامت جملة من الآثار على استمراره حتى اواسط خلافة عمر ابن الخطاب ،فروى مسلم في الصحيح ج ٤ ص ١٣٠ وما بعدها باب نكاح المتعة ،عن عطاء قال قدم جابر ابن عبد اللّه معتمرا ،فجئناه في منزله فسأله القوم عن اشياء ثم ذكروا المتعة فقال نعم استمتعنا على عهد رسول اللّه و ابى بكر و عمر ،وعن ابى الزبير قال سمعت جابر ابن عبد اللّه يقول كنّا نستمتع بالقبضة من التمر

والدقيق الايام على عهد رسول الله وابى بكر حتى نهى عنه عمر فـــى شأن عمرو بن حريث، وفى منتخب كنز العمال (ج٦ص٤٠٤) عن سعـيـد بن المسيب قال استمتع ابن حريث وابن فلان كلاهما ولد له من المتعة زمان ابى بكر وعمر ـ ابن جرير ـ .

وقال ابن حجر فى الأصابة فى ترجمة سلمة ابن اميّة بن خلـــف الجمحى واستمتع سلمة ابن امية من سلمى مولاة حكيم ابن امية بـــن الأوقص الأسلمى فولدت له فجحد ولدها فبلغ ذلك عمر فنهى عــــن المتعة .

فانت ترى ان الناهى هو عمر بن الخطاب لحادثة رآها مخلّـــة بسياسة امور الناس فنهيه سياسى لا وزن له فى الشريعة وليس له مـن الأمر شىء حتى يمحو او يثبت من احكام الشرع .

وقال ابن حزم فى المحلى ثبت على تحليل المتعة بعد النبىّ(ص) من الصحابة ابن مسعود وابن عباس وجابر وسلمة والمغيرة ابنا اميـــة بن خلف وذكر آخرين .

وفى بداية المجتهد لابن رشد واشتهر عن ابن عباس تحليلهـــا وتبع ابن عباس على القول بها اصحابه من اهل مكة واليمن ثم قال وروى عنه انه قال ماكانت المتعة الّا رحمة من الله عزّوجلّ رحم بها امّة محمـد (ص) ولولا نهى عمر عنها ما اضطر الى الزنا الّا شقىّ ، وعن عطاء قـــال سمعت جابر بن عبد الله يقول تمتعنا على عهد رسول الله وابى بكـــر ونصفا من خلافة عمر ثم نهى عنها عمر الناس ـ الى غير ذلك ممّا هـــو كثير ـ .

وامّا ادعاؤهم نسخ ذلك زمن الرسول ففيه من الخبط والتزويـــر لصالح العصبية ما لا يخفى امره فقد ذكروا له طرقا ثلاثة تعطى النسخ

(احدها) ما عن اياس بن سلمة عن ابيه قال رخّص رسول اللّه(ص) عام اوطاس فى المتعة ثلاثا ثم نهى عنها (ثانيها) ما عن الربيع بن سبرة الجهنى عن ابيه سبرة قال امرنا رسول اللّه(ص) بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها (ثالثها) ما عن على ابن ابى طالب ان رسول اللّه(ص) نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن اكل لحوم الحمر الأنسية وانه نهى ابن عباس عن القول بحلية المتعة ٠

فأنت ترى كم من فرق فى تواريخ هذه الحوادث التى ذكر فيها ان الرسول امر بالمتعة فيها وانه نهى عنها وذلك دليل التذبذب فى نقلها وشعار اختلاقها بنفع التعصب المقيت ٠

وامّا رواياتهم النسخ عن على(ع) وادعاؤهم انه نهى ابن عباس عن القول بحلية المتعة فذلك من التزويرات المفتضحة فان عليا وآل على يندّدون بمن يحرّم المتعة ويرون ان نكاحها على مشروعيته الأولى حتى صار القول بحليتها من خصائص مذهبهم كما هو معروف ٠

وامّا قول الشوكانى وليست المنكوحة بالمتعة من ازواجهم ولا ممّا ملكت ايمانهم فأن من شأن الزوجية أن ترث وتورث وليست المستمتع بها كذلك فهو تحكم فان المنكوحة بالمتعة منكوحة بعقد وهم يعترفون بكونها زواجا فى صدر الاسلام وان الآية المعنونة من ادلّتها فهى زوجة غايته ان الزوجية تكون على قسمين دائم ومنقطع والمتعة من المنقطع والزوجية الدائمة قد يكتنف بها ما يقطعها عن سببية الأرث وذلك فيما لو كانت الزوجة كافرة والزوج مسلما او كانت امة مملوكة والزوج حرّا او كانت قاتلة اذن فالارث بين الزوجين الدائمين ليس من الخصائص غير المنفكة ٠

والزواج المنقطع قد اختلف الفقهاء فى الأرث معه فبعضهم يراه سببا كالدائم وبعض يراه كالدائم مع شرط التوارث واختلاف الزواج

المنقطع عن الدائم فى بعض نواحيه لا يخلّ به قطعا كاختلاف انواع البيوع وسائر المعاملات مع تقرّر شرعية الجميع، ونحن قد بسطنا القول حول نكاح المتعة فى (ج۴ ص ۲۷۹ وماقبلها ومابعدها من كتابنا نتائج الفكر فى شرح الباب الحادى عشر) فراجعه ان شئت ·

* (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات والله اعلم بأيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهنّ بأذن اهلهنّ وآتوهنّ اجورهنّ بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان فأذا أحصنّ فأن اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم) *

الطول هو القدرة والمكنة والفتاة الشابّة وتطلق على الأمة وان كانت عجوزا والفتى هو الشاب ويطلق على العبد ولو كان كبير سنّ والأخدان جمع خدن وهو الصديق والعنت هو المشقة ·

ابان سبحانه فى هذه الآية حكم الحرّ بالنسبة الى تزوجه بالأمة ولم يطلق اباحة ذلك له بل قيّده بشرطين (الأوّل) ان لا يستطيع الحرّ القيام بمهور الحرائر ونفقاتهن (والثانى) مشقة العزوبة عليه بدون فراش فاذا توفر هذان الشرطان جاز له ان يتزوج من اماء الأغيار بأذن مواليهن مشروطا بأن تكون تلك الأمة غير معروفة بالزنا ظاهرا ولا متخذة خدن وصديق فى السرّ يستمتع بها وينال منها بل محصنة اى عفيفة نزيهة الناموس وان يؤتيها مهرها وان كان الذى يملك مهرها هو

الذى يملك رقبتها .

وان الأمة اذا زنت بعد احصانها بالزواج فعليها نصف حدّ الحرّة خمسون جلدة ومع انه سبحانه لم يفرّق فى عنصرية الأحرار والعبيد حيث قال بعضكم من بعض بمعنى ان سودانكم وبيضانكم (حملا على الأغلب فى المماليك والمالكين) من جرى عليه الرقّ كمن تحرّر منه جميعا من اصل واحد فلا يستقذر البيض من الأقتران بالسود كما لا تنبزوا انسانا حرّا اقترن بمملوك قال وان تصبروا عن الزواج بالأماء فأنه خير لكم من التزوج بهنّ ولا شكّ انه تعالى لا يريد ان يبيّن ان ذلك خير واقعى بل خير فى الظاهر ابتعادا عن توهين الناس لهم وحطّهم من كرامتهم.

ويستفاد من قوله ـ المحصنات المؤمنات ـ عدم جواز التزوج بالأمة الكافرة، ومعنى قوله والله اعلم بأيمانكم ـ ان الايمان المشترط بقوله من فتياتكم المؤمنات يكفى فيه ظاهر الأيمان لان البشر لا يستطيع ان يعلم غير الظاهر وهو ملاكه فى العمل شرعا ،والله وحده هو الذى يعلم بواقع الأيمان من مزوّره .

ومعنى قوله وآتوهنّ اجورهنّ بالمعروف هو ان الأنصاف قاض عليكم ان تؤتوهنّ من المهور ماهو متعارف فى حقهنّ لا انقص من ذلك وان كان مع رضى الطرفين لا مانع منه .

كما يستفاد من قوله محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان انه لا يجوز الاقتران بالأمة الزانية ظاهرا او سرّا والمعروف فى الفقه كراهة ذلك وان الأنسان لو اقترن بزانية لما كان نكاحه فاسدا ولا فاعل حرام والمعروف فى الفقه ايضا ان الحرّة المحصنة بالزواج اذا زنت ترجم ويلوح من قوله تعالى نصف ما على المحصنات من العذاب ان الحرّة المحصنة تجلد ونصف ما عليها من الجلد يرتب على الأمة المحصنة

والله غفور لبواد رعباده رحيم بهم .

* (يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين مـن قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم :والله يريـد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما : يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) *

مفاد ذلك أنّ الله بسرده الأحكام عليكم يريد ان يبيّن لكم ماينفعكم عاجلا وآجلا ويهديكم سنن الذين خلوا من قبلكم حتى تأخذوا بالصالح منها كما قرّرو تنبذوا الفاسد كما ارشد وببيانه ذلك يريد أن يغفر لكم ماكنتم ارتكبتموه لجهلكم به والله عالم بما يصلحكم حكيم فيما يقرر عليكـم واكد سبحانه ماوعدهم المغفرة عليه بانه تعالى لرحمته بكم يبيّن سبيـل الرشاد لكم حتى لاتقعوا فى المهالك والذى يقترف المعصية بعـــد البيان اذا جرّد نفسه منها وتاب يتوب الله عليه ايضا وحذّرهم مـــن اتباع عبدة الشهوات أنّ هؤلاء انّما يحاولون تضليلهم وميلهم عن الحق ميلا عظيما تكثيرا لسوادهم وتقليلا من تشويه سمعتهم ولا هدف لهـــم بالأغيار الّا اتخاذهم قنطرة لميولهم ورغباتهم .

يريد الله بهذه المواعظ والفات الأنظار ان يخفّف عنكم من جهلكم وما ذلك الّا لأنّ الأنسان منذ خلق خلق ضعيفا فى كل اشيائه وانّمـــا يقوّيه الأرشاد والتعليم من ناحية والعفو والمغفرة له من ناحية ثانية .

* (يا ايّها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الّا أن تكون تجارةً عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما : ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) *

اكل المال بالباطل صرفه واستفادته فى طرق غير مشروعة ومن وجه غير مشروع كصرفه فى القمار واستفادته من هذا الطريق واخراجه فى الزنا وتملكه من هذا الباب وقس على ذلك كل عمل غير مشروع من المكاسب المحرمة عرفا وشرعا كاللواط والقيادة والرشوة ممّا هو معروف بين المتشرعة و فى عالم الشرع والاستثناء من ذلك بالتجارة عن تراضى استثناء منقطع اذ لامعنى لاستثناء الصحيح من الباطل الّا عزله عنه موضوعا وحكما والاستثناء المتصل ماكان بعزله حكما مع دخوله موضوعا ٠

والمراد بالتجارة هى المعاملة الممضاة من الشرع والّا فجملة من التجارات الدائرة بين الناس باطلة شرعا كبيع النسيئة والسلف من غير تحديد اجل وكبيع الأطفال وعلى الأطفال وقيد التراضى يخرج المعاملات الأكراهية وقتل النفس يشمل معانى عديدة منها الانتحار ومنها قتل الغير عدوانا ومنها ايباق النفس فى الجرائم والمآثم فانه قتل لها عند الله لانه تطويح بها فى عذاب الله واتلاف لها فى هذا السبيل ٠

ان الله فى وصاياه هذه لكم كان رحيما بكم ومن يفعل شيئا من ذلك بأن يأكل المال منْ طريق باطل او يقتل نفسه او غيره عدوانا وظلما للنفس اوللغير اولهما فسوف يوم القيامة نصليه ونلزمه نارا وكان ذلك

التوعيد والتهديد على الله يسيرا لا كمن يتوعد بشيء وهو غير قادر على فعله وايقاعه ٠

* (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيئآتكم وندخلكم مدخلا كريما) *

الكبيرة في اللغة من المعاني الأضافية المعروفة وقد اختلف في معناها شرعا فقيل كل ماوعد الله عليه عقابا في الآخرة وحدّا في الدنيا واكتفى بعضهم بما يوجب العقاب الأخروي وقيل كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وهذا القول لا يلائمه قوله تعالى ان تجتنبوا كبائرماتنهون عنه فان الآية تشعر ان في ضمن مانهى الله عنه صغائر ٠

والحقّ ان الصغيرة والكبيرة وان كانتا من المعاني الأضافية الّا أنه ربّما تكون صغيرة في النظر وتبقى على هذه السمة بالنسبة الى مافوقها كأكل مال الانسان عدوانا في قبال قتله عمدا بغير حق وبالنسبة الى مادونها يقال لها كبيرة فان اكل مال الانسان ظلما كبيرة بالنسبة الى توهينه الخفيف او الاساءة له في الجوار ونظير ذلك ٠

ولكن لا شك في وجود الصغائر في نفسها كالنظر العمدي الى غير المحرم والتوهين الخفيف بالغير وانتهاب المال المحتقر منه عدوانا فان امثال هذه الذنوب صغائر في نفسها قطعا فالآية تنصّ على ان الانسان اذا اجتنب كبائر الذنوب وقعت صغائره مغفورة له بشرط ان لا يصرّ عليها فأنه لاصغيرة مع اصرار كما لاكبيرة مع استغفار والمراد بالسيئآت هنا هي الصغائر بقرينة مقابلتها بالكبائر والمدخل الكريم هو المنزل الممهّد الواجد لصفات الاكرام والاحترام والأجلال ٠

والذنوب المصرّح بكونها كبيرة في القرآن و في السنة رقم واسع جدّا

ونسوق بالمناسبة حديثا رواه عبد العظيم الحسنى عن الجواد عن الرضا عن الكاظم عليهم السلام قال دخل عمرو بن عبيد الناسك المعروف على الصادق عليه السلام فلما سلّم وجلس تلا هذه الآية الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ثم امسك فقال له الأمام ما اسكتك قال احبّ ان اعرف الكبائر من كتاب الله ٠

قال نعم ياعمرو اكبر الكبائر:

(١) الشرك بالله قال الله ان الله لا يغفر ان يشرك به ٠

(٢) وبعده ،اليأس من روح الله لان الله يقول ولا ييأس من روح الله الّا القوم الكافرون ٠

(٣) ثم الأمن من مكر الله لان الله يقول ولا يأمن مكر الله الّا القوم الخاسرون ٠

(٤) ومنها عقوق الوالدين لان الله جعل العاق جبّارا شقيا فى قوله وبرّا بوالدتى ولم يجعلنى جبّارا شقيا ٠

(٥) ومنها قتل النفس لانه يقول ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنّم خالدا فيها ٠

(٦) وقذف المحصنات لان الله يقول ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ٠

(٧) واكل مال اليتيم ظلما لانّ الله يقول ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ٠

(٨) والفرار من الزحف لان الله يقول ومن يولّهم يومئذ دبره الّا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئه فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ٠

(٩) واكل الربا لان الله يقول الذين يأكلون الربا لا يقومون الّا كما يقوم

الذى يتخبطه الشيطان من المس ـ ويقول ـ فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ·

(١٠) والسحر لان الله يقول ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ·

(١١) والزنا لان الله يقول ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ·

(١٢) واليمين الغموس لأنّ الله يقول ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ـ الآية ـ ·

(١٣) والغلول وهو التناول من الغنيمة قبل الأسهام قال الله ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ·

(١٤) ومنع الزكوه المفروضة لان الله يقول يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم ـ الآية ـ وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا او شيئا ممّا فرض الله ونقض العهد وقطيعة الرحم ،قال فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول هلك من قال برأيه ونازعكم فى الفضل والعلم ·

* (ولا تتمنّوا ما فضّل اللّه به بعضكم على بعض للرجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبن وسئلوا من فضله ان اللّه كان بكل شيء عليما) *

قيل فى مورد نزول الآية وجوه منها ان امّ سلمة رضى اللّه عنها قالت يارسول اللّه يغزو الرجال ولا نغزو ولا نقاتل فنستشهد وانّما لنا نصف الميراث فنزلت الآية وقيل لمّا نزلت آية المواريث قال الرجال نرجو ان نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث فيكون اجرنا على الضعف من اجر النساء وقالت النساء انّا نرجو ان يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال فى الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم فى الدنيا فنزلت الآية وروى شبيه ذلك .

والتمنّى هو طلب ما ليس بحاصل سواء كان للماضى ام للحاضر ام للمستقبل فقد يتمنّى الأنسان ان تكون سابقته على كذا وصف او حاضره او مستقبله والتمنّى قد يكون بنحو غبطة وقد يكون بنحو حسد وقد يكون مجردا عنهما معا فالغبطة ان تريد لنفسك من النعمة والفضل مثل ما عند غيرك والحسد ان تريد ذلك لنفسك مع زواله عن الغير والمجرد عن كل ذلك ان تريد شيئا لنفسك بلا نظر الى ما عند الأغيار وكلّ ما سوى الحسد من هذه المعانى لامانع من ارادته الّا مايتصور فيه من عدم الرضا بما قسم اللّه لعبده .

وامّا الحسد فخلّة ساقطة تنبىء عن سقوط نفس الحاسد وانحطاط نظره والنهى فى قوله تعالى ولا تتمنّوا مافضلّ اللّه به بعضكم على بعض ليس للتحريم على اطلاقه بل يتشقق حسب صوره وما لها من احكام

شرعيّة نعم هو نهى تنزيه فى العموم لأشعاره بان المقسوم له غير راض بما قسم له ٠

ثم ابان سبحانه ان كل واحد من الرجال والنساء له نصيبه ممّا جرّ لنفسه اوعليها فان الجميع افراد مكلفون عقلاء لا ميز بينهم من هذه الناحية الّا بمقدار ما يمتاز العالم على الجاهل وتامّ العقل على ناقصه وامّا الموائز الطبيعية بين الذكور والأناث فذلك ضرورى لأدامة النوع فى حياته وانتشار افراده ٠

وامّا تفضيل الرجل على المرأة فى الميراث فذلك لأنّ المرأة فى الأعمّ الأغلب تحت حماية رجل من رجالها ابا كان ام أمّا ام ولدا ام زوجا فمسؤليّاتها امام العادة مسؤليات ضعيفة وليست جذرية بخلاف الرجل وهكذا انّما كلّف الرجل بمشاقّ الامور من جهاد ودفاع وحمل سلاح لأنّ مقاومته فى قبال ذلك اكثر نوعا من المرأة ٠

ثم انه سبحانه اباح للناس بل احبّ منهم ان يسألوه من فضله واستجابته تكون طبقا للمصلحة لا جزافا كما يريد الأنسان ،ان الله كان بكل شىء ممّا يصلح الانسان ويفسده عليما لان الواقع بين يديه على كل حال ٠

* (ولكل جعلنا موالى ممّا ترك الوالدان والأقربون والذين عاقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم ان اللّه كان على كل شئ شهيدا) *

المولى اصله من ولى الشئ اذا قرب منه وهو هنا بمعنى الأولى ومفاد الآية ولكل انسان جعلنا من هو أولى به من غيره فيكون هو الوارث ممّا ترك الوالدان والأقربون والمراد بالذين عاقدت ايمانكم هم الحلفاء وهو ما يعبّر عنه بلسان الفقيه ضمان الجريرة وضامن الجريرة من طبقه الورّاث بشرط ان لا يكون اولى منه كالمناسبين من آباء وابناء واخوة واجداد واعمام واخوال وكالمنعم من المسابيين نعم ضامن الجريرة يكون اولى من الأمام ويرث معه الزوج والزوجة .

فآتوهم نصيبهم والمال كله لضامن الجريرة باستثناء سهم الزوجية اذا كان فى البين زوج او زوجة ، وشهيدا هنا بمعنى مطلعا واقفا على حقائق الاشياء ، وصدر الآية مقرر لما سبق من آيات الأرث ولما يجئ من قوله تعالى واولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض .

وامّا قوله والذين عاقدت ايمانكم فانه ينطبق على ارث ضمان الجريرة الّا انه لم يفصل شرطه الذى آنفناه ، قرأ اهل الكوفة عقدت والباقون عاقدت .

* (الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض و بما انفقوا من اموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله و اللاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ و اهجروهنّ في المضاجع و اضربوهنّ فأن اطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا ان الله كان عليّا كبيرا) *

قيل في مورد نزول الآية ان رجلا من الانصار لطم امرءته فجاءت الى النبيّ (ص) تلتمس القصاص فجعل لها النبيّ ذلك لكن القرآن انزل بقوله تعالى (الرجال قوّامون على النساء) وارى ان في ذلك اشتباهين الأول ان فتوى النبيّ على خلاف الواقع يناقض قوله تعالى ما ينطق عن الهوى ان هو الاّ وحي يوحى و اذا لم يكن للنبيّ بذلك علم فكيف يفتي بالتخرّص و الثاني ان كون الرجال قوّامين على النساء ليس من لازمه جواز ضرب الرجل للمرءة على كل حال و انما يجوز ضربها عند النشوز بعد العظة غير المؤثرة و الهجر في المضجع غير الناجع .

و انما كان الرجال قوّامين على النساء لان الرجل نوعا اثقف من المرءة و اعلم منها بالمصالح و المفاسد و اكثر دربة بشؤن الحياة و تفضيل الله الرجال على النساء باعتبار انّ خلقة الرجل بحكم فحولته اكمل من خلقه المرءة و انّما خلق المرءة على ماهي عليه لان ذلك لازم انوثتها فان من لازم الأنثى ان تكون اظرف طبيعة و اقوى عاطفة وابعد دركا لمشاقّ الحياة حتى لا تنهار سريعا .

و من اسباب تفضيل الرجل على المرءة انه يكدح لتأمين معيشتها و النفقة عليها و اكتنانها في مكنّ يلائمها و يرأف بها عن مزاولة

المشاق فالصالحات من النساء مطيعات لله فى ازواجهن لا تعصى المرءة الزوج و تأخذ بارشاداته و نصائحه حافظات لأنفسهن فى غياب ازواجهن و حضورهم ولأموال ازواجهنّ ولأسرارهم و اماناتهم بما حفظ الله لهم من حقوق و وظّفها عليهنّ فى قبالهم .

و النشوز هو الأرتفاع عن الطاعة و الجنوح الى المعصية و النساء اللاتى تعلمون او يلوح لكم نشوزهنّ من امارات واضحة فعظوهن اوّلا بما يلفت انظارهن فلعلهنّ عازبات عن الواقع بعيدات عن تدبر الصالح فأن لم ينجع الوعظ فاهجروهنّ فى المضاجع جمع مضجع و هو محل النوم و يأتى ذلك على انواع منها عدم المقاربة و منها تولية الظهور اليهن مع اتحاد مكان النوم و منها الأبتعاد بمكان النوم و اضربوهنّ مع عدم انجاع الهجر ولا يترقى من واحد الى آخر الاّ بعد عدم تأثير الأضعف فأن اثرّت مرحلة من هذه المراحل فارتفع النشوز بالطاعة فلا سبيل لكم عليهن فان ذلك كلّه كان تأديبا و التأديب فريضة فى تعديل جنبات الحياة للذكر و الأنثى و الأنسان و الحيوان ولا يجوز لكم ان تتجنوا بنسبة العلل اليهنّ فان الله يتعالى عن الباطل و يجلّ عنه ولا يرضاه لكل مكلّف .

* (و ان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله
و حكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفّق اللّه
بينهما انّ اللّه كان عليما خبيرا) *

الشقاق معناه وقوع كل واحد منهما فى شق بعيد عن الآخر و الحكم هو الذى يرتضى للحكومة و التوفيق هو الجمع و ايجاد الربط و الخوف هنا الخشية و الخطاب لأهل الزوجين بمعنى متى حذرتم من اتساع الخرق بين الطرفين بما قد يؤدّى ذلك الى انتباذ احدهما عن الآخر انتباذا لا تحمد عواقبه و الخطاب فى قوله فابعثوا و ان كان بمراعاة السياق يلزم ان يعود لمحل الخطاب الأوّلى و هم اهل الزوجين الاّ انّ مجارى الفقه قاضية بأنّ الباعث انما يكون هو الحاكم الشرعى بعد مرافعة اهل الطرفين اليه فحينذاك يبعث الحاكم الشرعى وسيطا من اهل الزوج و وسيطا من اهل الزوجة ليعاينا فى الداعى الذى دعاهما الى هذا الأختلاف بما اربك حياتهما الزوجية و يظهر من السياق ان الحكمين انّما لهما من الرأى ما يكون به الصلح بين الطرفين ٠

امّا اذا رأيا الفرقة و الطلاق فلا يستطيعان ان يوقعا ذلك الا بتوكيل من بيده الطلاق لأن الآية تنطق (ان يريدا اصلاحا) وضمير بينهما على الأظهر يرجع للزوجين بمعنى ان حاولا الاصلاح بأدخال شرائط خاصة فى الحياة الزوجية للطرفين فعسى اللّه ان يوفق بينهما ان اللّه كان عليما بمجارى المصالح و المفاسد خبيرا بما تستدعيه خلقتهم و طبيعتهم ٠

* (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا و بالوالدين احسانا و بذى القربى و اليتامى و المساكين و الجار ذى القربى و الجار الجنب والصّاحب بالجنب و ابن السبيل وما ملكت ايمانكم انّ اللّه لا يحبّ من كان مختالا فخورا) *

معنى و اعبدوا الله اظهروا الخضوع له ،ولا تشركوا به شيئا ، لا تتخذوا معه شريكا حقر ام خطر فالباء فى به بمعنى مع و احسانا مؤكد لفعل من لفظه محذوف تقديره و احسنوا بالوالدين احسانا جزاء وفاقا لأتعابهما فى حقّكم و سهرهما على مصلحتكم و ذو القربى هو الرحم الذى يقرب من الأنسان و شيجة و سبق القول على اليتامى و انهم الفاقدون للآباء قبل اوان البلوغ فبفقدانهم للحامى امر اللّه سبحانه عباده بالأحسان اليهم و المسكين لضعته وعدم ما بيده مثله فى الحاجة الى من يتفقده ·

و الجار ذو القربى هو الأنسان الجامع بين صفتى الجوار و الرحم فهو يستحق الأحسان من ناحيتين جواره و قربه فى النسب فلا اتحاد بينه و بين القريب حتى يقال انه مكرّر ، و الجار الجنب هو الغريب عن اهله المجاور لك ايّها الأنسان و حدّ الجوار قيل اربعون ذراعا من كل جانب و قيل اربعون دارا و الأمر عرفى يرجع به الى العرف و الصاحب بالجنب قيل هو الزوجة لأنها بجنب الزوج و قيل هو رفيق السفر و قيل هو الذى انقطع اليك يرجو رفدك له و مساعدتك ايّاه وقيل هو الضيف و العنوان فيه صلاحية الأنطباق على الجميع ·

وما ملكت ايمانكم من عبيد واماء بل و حتى الحيوان فان الأحسان

حسن من كل انسان فى مقابل كل انسان الآ اذا افاد تأييدا لجريمة و تشجيعا لجهل و اصرارا على خطأ ، ان الله يحب كل متواضع رحيم رؤف و لا يحبّ من كان مختالا متكبرا على الناس فخورا عليهم بالتوافه من مال و رجال ٠

* (الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل و يكتمون ما آتاهم الله من فضله و اعتدنا للكافرين عذابا مهينا) *

سبق فى آخر الآية السالفة ان الله لا يحبّ من كان مختالا فخورا و تابع فى هذه الآية ذكر جملة من الأوصاف الذميمة فقال الذين يبخلون فهو وصف للمنصوب السابق و البخل هو امساك الأنسان ما عنده دون بذله فى وجوهه حرصا خاليا عن داع معقول سوى حبّ المال بما هو مال وهو من ارذل الصفات ومن الطبيعى ان كل ذى خلّة يودّ انتشارها بين الناس و تكثير اهلها فالبخيل كما رضى و هوى البخل لنفسه يهوى من اعماق ضميره ان يكون الناس بخلاء مثله و يبلّغ لذلك جهده وصفة البخل بالمال ذات سراية الى البخل بكل شىء حتى بالعلم يبذله و الفائدة للغير يسوقها ٠

ومن قوله تعالى و اعتدنا للكافرين عذابا مهينا يستفاد ان الله نزّل هؤلاء المنحطّين المتسفّلين منزلة الكفرة فى حصولهم على نتيجة واحدة هى اعداد العذاب المهين لهم ٠

* (و الذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنــون
بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا
فساء قرينا :وماذا عليهم لو آمنوا بالله و اليــوم
الآخر و انفقوا ممّا رزقهم الله و كان الله بهــم
عليمـا) *

و الذين فى هذه الآية عطف على الذين يبخلون فى الآيــة السابقة فى محل نصب على الوصفية لقوله آنفا من كان مختالا فخورا وقد سلف فى مفاد الذين يبخلون انّهم مفرّطون بما جرّهم هذا التفريــط الى استحقاق العذاب و مفاد هذه الآية يعاكس ذلك للأفراط و هــو الأنفاق لا لداع معقول مشروع بل لداعى السمعة و الشهرة فــان الدواعى المعقولة هى ايقاع البرّ فى مواقعه امّا ايقاعه خارج ذلك فهو للتشهير لا اكثر و ذلك يعدّ من السفه عقلا و ممّا لا اثر له شرعا و مــن المحرّم اذا وصل الى مرحلة الأتلاف للمال او مساعدة الفسقة و الظلمة و تأييد الظلم و الأنحراف .

و الفعل رئاء الناس هو التدليس ولازمه هو النفاق ولازم ذلــك عدم الأيمان الواقعى بالله و المعاد عليه و المحاسبة بين يديه و مــن لوازم هذه المعانى كون صاحبها مرموزا مترسما لخطوات الشيطان .

ثم انبّ سبحانه البخلاء و الآمرين بالبخل الكاتمين لما آتاهم الله من الفضل المدلسين المرائين الفاقدين للأيمان بالله و اليوم الآخــر المخادنين للشياطين بأنكم يا هؤلاء ماذا يكون عليكم من الضرر لــو آمنتم بمبدأ القداسة و الطهارة وهو الله المبدء لكم و المعيد لوجودكم و انفقتم ممّا آتاكم الله و اعطاكم لوجهه و لداعى المواساة للضعفــاء

و البؤساء وفى طرق الخير و سبيل المعروف فان الله عليم بظواهركم و بواطنكم و سيجازيكم على جميع ذلك ما تستحقون ٠

* (انّ الله لا يظلم مثقال ذرّة و ان تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه اجرا عظيما) *

ابان الله بهذه الآية ان ايقاعه بالعاصى المنحرف انما هو جزاء وفاق و ليس فيه من التعدّى اقلّ شائبة فان الظلم من شيم الجهلة الناقصين فى تربيتهم و اخلاقهم و الكامل لا يتعقل فيه ان يكون ظالما و الذرّة اصغر موجود يتصور كما ان المثقال اصغر عيار يوزن به ومعنى ذلك ان الله لعدله لا يرتكب من الظلم حتى المقدار المغتفر فأن مثقال الذرّة من الظلم لا يعيره العقلاء بالا لانحطاطه فى النظر ٠

امّا الحسنة يأتى بها العبد ولو كانت ذرّة لا يعتدّ بها فأن الله يربيها بالمضاعفة حتى تكون شيئا و يؤتيها لعبده حتى يستثمرها و يستفيد منها و معنى ذلك ان الله لا يزيد فى جزاء الظلم عمّا يستحقه و لكن فى الحسنات يتفضل على اهلها حتى يتشوّقوا لفعلها ولا يهملوا الصغيرة و الكبيرة منها و هذا غاية فى الرأفة و الرحمة وفوق ما يتصور من الأنصاف و العدالة ٠

* (فكيف اذا جئنا من كل امّة بشهيد و جئنا بك
على هؤلاء شهيدا : يومئذ يودّ الذين كفروا
وعصوا الرّسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون
اللّه حديثا) *

بعدما افاد سبحانه فى الآيات السابقة ان المعاد على اللّه محتّم لا ريب فيه و ان الأنسان يجازى على ما فعل فى دنياه فيؤخذ بظلمه و يفاض عليه الأجر للحسنة يجئ بها ابدى كلّ عجبه من العصاة عند الوقوف بين يديه .

و الشاهد على كل امّة نبيّها المعصوم الذى لا يأتيه الباطل من ايّة جهة تصورتها و شهد هذا النبىّ لما شاهد من اعمال امّته صالحها وطالحها وابدى شهادته بين يدى ربّه كما عاينها فهناك كل الويل للمشهود عليه بالسوء و هناك يودّ الكافر باللّه و العاصى لما وظّف اللّه عليه لو كانوا هم و الأرض سواء اى ترابا لا مسؤلية عليه او انهم بقوا تحت الأرض ولم يخرجوا لمعاينة الجزاء و هناك لا يستطيعون ان يكذّبوا الرسل فيما شهدوا به لأنّهم فعلوا ذلك بلا مرية فيضطرّهم الواقع الى الأعتراف به فيؤخذون باعترافهم كما يؤخذ المعترف باعترافه امام القاضى .

روى ان عبد اللّه ابن مسعود قرء هذه الآية على النبىّ (ص) ففاضت عيناه فاذا كان النبىّ وهو الشاهد على الأمة المنزّه فى نفسه عن كل دنس وشين تفيض عيناه لهول ما سيقع فما حال المشهود عليه اذا كان مقارفا للمعاصى . نعوذ باللّه من غضبه و انتقامه .

* (يا ايّها الّذ ين آمنوا لا تقربوا الصّلاة و انتم سكارى حتّى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الاّ عابرى سبيل حتّى تغتسلوا و ان كنتم مرضى او على سفرا وجاء احد منكم من الغائط او لامستم النّساء فلم تجدوا ماء فتيمّموا صعيدا طيّبا فامسحوا بوجوهكم و ايد يكم انّ اللّه كان عفوّا غفورا) *

سكارى جمع سكران وهو شارب المسكر و جنب وصف يستوى فيه المذكر و المؤنث و الواحد و الجمع فكما يقال رجل جنب يقال امرءة جنب و قوم جنب و الغائط جمعه غيطان و هى الأراضى المطمئنة اى الهابطة و كانوا يتبرّزون فيها لأنها تسترهم ثم اطلق اسم المكان على ما يكون فيه فسمّى حدث الدفع غائطا و ملامسة النساء جماعها لأن اصطلاح القرآن جرى على ذلك و لأنه المنصرف اليه فى امثال هذه الأطلاقات و الصعيد وجه الأرض و الطيّب غير القذر ٠

و المراد بالأيمان فى قوله يا ايّها الذين آمنوا هو الأيمان بمعناه الأعم وهو الأعتراف بالمبدأ و الدين و ان لابس الفسق حتى يتأتى فى مقام الخطاب ان يقال يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و انتم سكارى و قرب الصلاة هو التلبس بها ٠

و ليس من لازم السكران ان يفقد عقله بالمرّة حتى يقال فى حقّه انه كيف يكون محلاً للنهى وهو سكران بل هو معمولا يكون بين بين و ذلك لا يكفى فى صحّة الصلاة حتى يعلم ما يقول فيها من قرآن وذكر و يتميّز موارد ركوعها من سجودها و تشهدها من سلامها وما الى ذلك فما دام لا يحصل منه التميّز لا تصح منه الصلاة و يكون مع ذلك

آثما بملابستها .

قوله ولا جنبا حال عطف على الجملة الحالية وهى قوله وانتم سكارى ويحتمل فى ذلك معنيان (الأول) لا تقربوا الصلاة والحال انكم جنب الا اذا كنتم عابرى سبيل اى مسافرين فان المسافر قد يعذر عن الأغتسال امّا لضيق الوقت او لعدم الماء او لعدم المكان الفارغ من الناس اولغير ذلك من الموانع فيتيمّم بدل الغسل (الثانى) ان المراد هنا مكان الصلاة وهو المسجد على سبيل الاستخدام بمعنى ياايّها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد التى تقام فيها الصلاة الّا عابرى سبيل تدخلون من باب وتخرجون من آخر ولا يجوز لكم المكث فيها حتى تغتسلوا من الجنابة وان كنتم مرضى تخافون من استعمال الماء او على سفر يقلّ الماء فيه عليكم او يضيق بكم الوقت عن استعماله او جاء احد منكم من الغائط واراد ان يتطهر للصلاة فلم يجد ماء او جامعتم نسائكم وفقدتم الماء ففى امثال هذه الصور اقصدوا الصعيد الطاهر من القذارات فاضربوا بأيديكم على الارض فامسحوا بوجوهكم والوجوه هنا وان كانت هى الوجوه فى الوضوء الّا ان مسح الوجه عند الخاصة فى التيمم انما يتناول مسح الجبين الى طرف الأنف الأعلا واليد وان كانت تتناول كل العضو الى المنكب وقد تطلق على مايحاذى المرفق الّا انّ الخاصة يرونها الى الزند هنا ان اللّه كان عفّوا عن الألزام بالمشاق غفورا لسيئات عباده .

* (ألم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب
يشترون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل
والله اعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّا وكفى بالله
نصيرا) *

الخطاب بقوله الم تر لكل من تتأتى منه الرؤية والنصيب هو السهم والكتاب فى المعهود ينسب اليه اليهود والنصارى ومفاد الآية ان الضلال وان كان نتيجة للجهل الذى هو كالقاعدة الأساسية للانسان الذى لم يتثقف الّا انه مستغرب من الذى يوقف على طريق الهداية ويرشد اليه ومع ذلك ينتخب طريق الضلالة ويسعى سعيه فى اضلال غيره فان اليهود والنصارى من هذه المقولة لأنّ الله اوقفهم من طرق كتب السماء التى انزلها على انبيائهم موسى وعيسى وصدع هذان النبيّان فى ابلاغهما وبيان حقائقهما لأممهم ومع ذلك تعسّف هؤلاء الطريق وانحرفوا عن الجادّة وضلّوا ولم يكتفوا بذلك حتى اخذوا يجهلّون غيرهم ويندّدون بهم اذن فمن لازمكم ايّها المؤمنون بمحمّد ان لا تقبلوا منهم قولا ولا تركنوا اليهم ولا تستنصحوا منهم مشورة فأنهم اعدائكم الواقعيّون وان تظاهروا احيانا بالصداقة لأجل أن يستفيدوا من ورائها مقاصدهم منكم وكفى بالله وليّا لكم وناصرا .

* (من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه
ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّا
بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو انّهم قالوا
سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم
وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الّا
قليلا) *

اللّى هو الطىّ والفتل غير مسمع بمنزلة قولك لمخاطبك اسمع لا سمعت وهى شتمة والمراعاة واضحة المعنى ان اخذناها من راعاه يراعيه مراعاة وان جعلناها مشتقة من الرعونة كان مغناها شتما وان كانت صيغته الصحيحة ارعن لا راعن .

ومفاد الآية ان جملة من اليهود يحرّفون ماجاء فى التوراة ارادة لتلبيس الأمر على الغير حتى لا يتخطى احد الى دين واقعىّ كالاسلام بل يبقى ملازما لحوزتهم واذا واجهوكم ايّها المؤمنون او واجهوا نبيّكم يقولون بألسنتهم سمعنا ولكن لسانهم الواقعى ينطبق بعصينا ولا يكتفون بذلك حتى يشتموكم ويسيؤا الأدب مع نبيّكم فيقولون له بما معناه اسمع لا سمعت وتنفتل ألسنتهم بما يتشابه معناه كقولهم راعنا الذى يجوز ان يراد منه معنى الرعونة كما يجوز ان يراد منه معنى المراعاة يفعلون ذلك طعنا فى الدين القويم وهو دينكم يا اتباع محمّد ولو انهم كانوا صادقين فى اظهارهم للسمع والطاعة لقالوا بلسان غير متشابه سمعنا قولك واطعنا مفاده وهكذا لقالوا اسمع (بحذف ضميمة غير مسمع) ولقالوا ايضا مكان راعنا انظرنا وعاين الينا معاينة المستنصح غير المتّهم ولكان ذلك خيرا فى الأدب واقوم لكلامهم من الزيغ ولكن طردهم الله بسبب كفرهم

فلا يؤمن من فريقهم الّا القليلون وهكذا كان الواقع فانه لم يسلـــم من اليهود الّا العدد المنزور ٠

* (يا ايّها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنـــا
مصدّقا لما معكم من قبل ان نطمس وجوهـــا
فنردّها على ادبارها او نلعنهم كما لعنّـــا
اصحاب السبت وكان امر الله مفعولا) *

اهل الكتاب كما اسلفنا يشمل اليهود والنصارى ولكن بما ان اليهود اشدّ عداوة للمسلمين من النصارى واقرب منطقة لمركز الاسلام وهو المدينة كان انصراف هذا اللفظ اليهم اكثر ، والذى نزّله الله مصدقا للتـــوراة والأنجيل هو القرآن ومعنى ذلك ان القرآن ليس معاديا لأديانكـــم الأصلية وانّما فيه تتميم للناقص وحذف للمزوّر المكذوب الذى لا واقع لـــه فمن لازمكم أن تؤمنوا به ثم هدّدهم بطمس وجوههم ان هم أصرّوا علـى الطغيان ومعنى ردّها على ادبارها إذ لالهم واخراجهم من مساكنهم كما جرى لبنى النضير وغيرهم ذلك واصحاب السبت هم الذين مسخهـــم الله قردة فتهددهم الله بالمسخ كما مسخ اسلافهم واذا اراد الله شيئا كان امره مفعولا ٠

* (انّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك
لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما) *

انّما شدّد الله الأمر فى الشرك والألحاد لداعيين قويين (الأول) ان الأدلة القائمة على وجود الصانع واضحة جلية لكل احد كما قال القائل :

و فى كل شيء له آية تدلّ على أنّه واحد

فليس لأحد جهة اعتذار فى الانحراف عن هذا الأمر الجلىّ الواضح (الثانى) ان اصل الأعتراف بالصانع ليس فيه مؤنة وسدود تقف امام ميول الأنسان التى تدعوه الى الفسق فان الأعتراف بالله شيء والانحراف عن برامجه شيء آخر .

وقد اوعد سبحانه بأنه يغفر المعاصى ما دون الشرك بلا استثناء شيء منها اذا شاء ذلك ومنشأ مشيئته ان العاصى تارة عندما يرتكب المعصية يكون لائما نفسه زاريا عليها فينبأ ذلك عن طهارة ضميره واخرى لا يتلوّم ولا يزرى ولا يرى أنّه فعل شيئا وهذا هو الخبيث الضمير البعيد جدّ البعد عن مرضاة الله سبحانه ، وامّا ان المشرك بالله يفترى الأثم العظيم فلما اسلفناه من ان دلائل وجود الصانع لائحة واضحة فى كل شيء من اشياء العالم فالمعاند لها معاند لأمر هو من اوضح الواضحات وجاءت الرواية عن علىّ امير المؤمنين انّه قال ما فى القرآن آية ارجى عندى من هذه الآية .

* (ألم تر الى الذين يزكّون انفسهم بل اللّه يزكّى من يشاء ولا يظلمون فتيلا : كيف يفترون على اللّه الكذب وكفى به اثما مبينا) *

التزكية هى التنزيه والفتيل الشىء القليل الذى لا يعتدّ به نظير الفتيل الذى يفتل من الوسخ من بين الأصابع والأفتراء هو تعمّد الكذب والأثم المبين هو الذنب الواضح الجلى والخطاب فى قوله الم تر كما يجوز توجيهه للنبىّ يجوز ان يكون لكل من تتأتى منه الرؤية والذين يزكّون انفسهم قد يراد بهم معهود خاص وهم اليهود حيث قالوا نحن ابناء اللّه واحباؤه او النصارى معهم حيث قالوا لن يدخل الجنّة الّا من كان هودا او نصارى ، وقد يراد بهم معهود جنسىّ وهو كل من يزكّى نفسه وهذا الأستفهام ــ الم تر ــ للتعجب والاستنكار ومعناه اعجب لكل من يزكى نفسه كأنه خلصها من كافة الشوائب بل كل من يزكّى نفسه فأنه ابعد عن الواقع من الساكت عنها لان هذا المزكى لم يزكها الّا وهو حسن الظن بنفسه وكل من حسن ظنّه بنفسه كثرت خطاياه فبعد عن موجبات التزكية ، والتزكيه الفاقدة لكافة الشكوك والأوهام هى تزكية علّام الغيوب الذى يعلم من العبد ما لا يعلمه العبد من نفسه ولذلك قال تعالى بل اللّه يزكّى من يشاء وهو العبد الخالص ولا يظلم اللّه عبدا ذمّه او مدحه فى قليل مانسبه اليه فضلا عن الكثير ، انظر ايّها الرائى او يامحمّد كيف يفترى هؤلاء القائلون نحن ابناء اللّه واحباؤه او لن يدخل الجنّةالّا من كان هودا او نصارى على ربّهم الكذب وكفى بمثل هذا الافتراء جرما واضحا وما داعيه الّا الأعتزاز بالنفس وحبّ الذات .

* (الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا : اولئك الذين لعنهم اللّه ومن يلعن اللّه فلن تجد له نصيرا) *

اسلفنا مكررا ان الذين اوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ولكن توبيخ القرآن للأولين اكثر لقربهم فى الدار من المسلمين وسعايتهم عليهم ومعنى الآية ان اليهود مع كونهم من اهل الكتاب ولازم ذلك بعدهم عن الشرك وقربهم من اللّه تراهم يؤمنون بالسحر والساحر اللذين قيل فيهما انّهما الجبت، وبالكهنة والشياطين ــ اللذين قيل فيهما انهما الطاغوت، وبكل ماهو معبود من دون اللّه او مطاع في معصية اللّه كما فسّر بذلك الجبت والطاغوت ايضا .

وقد جاء فى الآثار ان كعب بن الاشرف اليهودى خرج فى سبعين راكبا من اليهود الى مكّة بعد وقعة احد ليحالفوا قريشا على المسلمين وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبين نبىّ الاسلام فنزل كعب على ابى سفيان ونزل بقية اليهود على بقية قريش فأحسنوا مثواهم فقال اهل مكة انكم اهل كتاب ومحمد صاحب كتاب فلا نأمن ان يكون هذا مكرا منكم بنا فان اردتم ان نؤمن لكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا ذلك وهو معنى ايمانهم بالجبت والطاغوت ولازم ذلك انهم لادين لهم بالمرّة لأنّ من يؤتى الكتاب السماوى ويدعيه لنفسه ويعتزّ به كيف يمكن له ان يسجد لصنم ويؤمن به .

فقوله تعالى الم تر تنديد عظيم بهم وقد جاء فى الأثر ايضا ان

حلف كعب بن الاشرف وابى سفيان لما تمّ ضدّ محمد (ص) قال ابوسفيان لكعب انك امرؤ تقرء الكتاب وتعلم ونحن اميّون لا نعلم فأينا اهدى طريقا واقرب الى الحق نحن ام محمّد قال كعب اعرضوا على ماانتم عليه فقال ابوسفيان نحن ننحر للحجيج ونسقيهم ونكرم مقدمهم ونفكّ العانى ونصل الرحم ونعمر بيت ربّنا ونطوف به ومحمد فارق دين آبائه وقطع ارحامنا وجاء بدين جديد فقال كعب انتم والله اهدى سبيلا ممّا عليه محمد واتباعه فذلك هدف قوله تعالى ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا والأشارة بقوله تعالى اولئك الى اليهود والمشركين جميعا الذين لعنهم الله وطردهم عن ساحة عزّه لأغراقهم فى الفسوق والباطل وتهمة البرئ وتحيّزهم ضد الحق والمحقين .

* (ام لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس
نقيرا : ام يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه
من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة
وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من
صدّ عنه وكفى بجهنّم سعيرا) *

النقير والفتيل اشباه ونظائر تستعمل كنايات عن قلّة الشيء وحقارته والصدّ هو الأعراض . ام منقطعة ومعناها الأنكار بمعنى ليس لهم نصيب من الملك ولوكان لهم شيء من ذلك لحرصوا عليه وبخلوا به لخبثهم وفساد بواطنهم وحسدهم وجفائهم ولما آتوا ـ ممّا اعطاهم الله ـ لأيّ مخلوق نقيرا والاسرائيلى هذه شيمته منذ كان وحتى الساعة يتطلع بهذه الصفات الرذائل .

وقوله تعالى ام يحسدون الناس منقطعة وتفيد الأضراب والانتقال من رذيلة الى ارذل فهم فضلا عن بخلهم بما إوتوا يحسدون الأغيار على ماآتاهم اللّه ويتمنون زواله منهم وانتقاله اليهم والمراد بالناس هنا بنظر أخصّ المسلمون ونبيّهم ثم علّل سبحانه بأنه لا داعى لحسدهم للمسلمين وزعيمهم فان ما اوتى محمد ليس بدعا فقد آتينا آل ابراهيم من اسحاق واسماعيل وذراريهم الكتاب السماوى لأننا اخترنا منهم انبياء الى اممهم والحكمة هى العلم بحقائق الاشياء .

وآتينا جملة منهم ملكا وسلطانا عظيمين واسعين كسليمان وابيه داود وغيرهما فمن اولئك الذين امتنّ اللّه عليهم بالنعمة من آمن باللّه وشكر انعمه ومنهم من كفر به وجحد نعمته وكفى بجهنم نارا مستعرة يجازى بها الكافر الجاحد للنعمة .

* (انّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما
نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا
العذاب انّ اللّه كان عزيزا حكيما :والذين آمنوا
وعملوا الصالحات سندخلهم جنّات تجرى مـن
تحتها الانهار خالدين فيها ابدا لهم فيها
ازواج مطهرة وندخلهم ظلّا ظليلا) *

الأصلاء بالنار الأدناء منها والملازمة لها ونضج الجلود تهريّها وانطباخها والمطهرّة الخالية من الأدناس والأخباث والظل الظليل الغامر بظلّه البارد على الانسان فى قبال حرّ الشمس الضاحية او المحجوبة بحجاب شفّاف .

ثم ابان سبحانه ما للكافر به من جزاء وما للمؤمن العامل للصالحات من جزاء فقال ان الذين كفروا بآياتنا وحججنا القائمة وبراهيننا الواضحة ولم يعيروها التفاتا لا ايمانا ولاعملا سوف نعاقبهم يوم القيامة احراقا بالنار فكلّما نضجت جلودهم التى عليهم بدلناهم جلودا غيرها حتى يستمّر عذابهم ،والقائل بان الجلد الجديد لم يمارس ذنبا فعلام يعذّب غالط لان الجلد لولا حياة صاحبه ليس محطّة للألم ولا لعدمه والعذاب انما هو للحياة القائمة بالروح غايته بوسيلة الجلد .

وقوله ليذوقوا العذاب معناه ليستمّر بهم التعذيب ان اللّه كان عزيزا لا يغالب ولا يقاوم حكيما فى تقرير مثل هذا العذاب الشديد اذ لو لم يره حقا لما فعله هذا جزاء الكفرة وامّا الذين آمنوا بالمبدء ولم يكتفوا بالأيمان المجرد بل عملوا الأعمال الصالحة كما ارادها اللّه منهم فجزاؤهم انهم سيدخلون جنات متنوعات فى النعيم تجرى من تحتها

الأنهار خالدين فى هذه الجنان بلا أن تزول عنهم اويزولوا عنهما لهم فيها ازواج مطهرة من كافة الأدناس والأرجاس المادية كالحيض والنفاس والمرض والهرم والمعنوية كسوء الاخلاق وعدم السلوك وندخلهم ظلّا ظليلا غامرا لهم براحته فلا يضحون فتتأثر ابدانهم ولا ينوشهم فيها ايذاء من ايّ نوع كان فيتمنون زواله بغيره ممّا يريحهم ٠

* (انّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها
واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل انّ
الله نعمّا يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا) *

كل حقّ يتحمله الأنسان امام اخيه النوعى او مجتمعه او ربّه اونفسه فهو امانة عنده يجب عليه ان يؤديه لمن يستحقه وليس لفظ الأمانة مصروفا به الى ماهو ابرز مصداقا عند العامة من المال يودعه الانسان عند شخص آخر فان ذلك بعض مصاديقه فان الحاكم مؤتمن للرعية بمقامه والأب مؤتمن بالنسبة الى توجيه وتربية ولده والزوجة مؤتمنة بحقوق زوجها والرعية مؤتمنة بأطاعة الحاكم الشرعى ومتحمل الشهادة مؤتمن فى ادائها وهكذا بلا استثناء ٠

وكما امر الله عباده بردّ الأمانات الى اهلها كلّا ونوع مسؤليّته كذلك امر من له الصلاحيّة فى القضاء وهو الفقيه العدل الضابط ان يحكم بين الناس بالعدل والعدل هو ماقرّره الله على يد رسوله له بشخص الحكم او بنوعه وملاكه لا بالرأى المجرد فأن الرأى وحده لاقيمة له لكثرة التلاعب به كما هو مشهود فى القوانين المدوّنة لدى كل امّة فان تدوينها اشتهاء محض لا تدعمه قواعد علمية ولا أصول حكمة ٠

ان الله فى امره لكم بردّ الأمانات الى اهلها والحكم بين الناس

بالحقّ نعمّا يعظكم به ان الله كان سميعا لما تقولون بصيرا بما تعملون عليما بالواقع الذى يأمركم بالسير على وفقه ،ونعمّا مدغم نعم ما وماكناية عن الشئ و اصل تركيبه نعم شيئا الشئ الذى يعظكم به .

* (يا ايّها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعـوا
الرسول واولى الأمر منكم فأن تنازعتم فى شئ
فردّوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله
واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) *

نحن وهذه الآية وما يوجبه منطق المقارنة يجب ان يكون المراد بأولى الأمر هم الذين يكونون من سنخ الله والرسول فى القدس والطهارة وعدم التحيّز ومراعاة حقوق الناس كما يقتضيه العدل لا ما تقتضيه الميول والرغبات وهذا ما لا شكّ فى كونه هو المراد قطعا ومع تطبيق ذلك على الخارج ممّن قيل له خليفة او سلطان فكما قيل :

واشهد ان قربك من زياد كقرب الفيل من ولد الأتان

وان حتى المحدثون لهم بكل الأيدى مدحا وتبجيلا وانهم هم اولو الامر

وانت عندما تستعرضهم تراهم قد جمعوا من كل سكّير زنّاء مقامر متهجم منتهز ظالم متحيّز لم يبق فى قوس شهواته منزعا الّا وفعله طوع ما يساعده مزاجه او زمانه او قدرته او رغبته ولم نجد فيمن عرّفه التاريخ لنا الّا مصداقا لذلك كله او لجملة منه ولم نر فيمن تأمّر سنخا لله الّا ما قطعت به الضرورات من الانبياء والأوصياء وكل من سواهم لم يرناه الخارج الّا مقرونا بأشياء من الهنات غير القابلة للغمض .

وامّا تبرير المنتسبين للفقه والحديث مواقع اجرام من اشرنا اليهم فلا يقوّم بفلس وما سيق من الحديث عن الرسول او كلمات الأكابر فيما

يقولون فى شأن اعلاء كلمة اولئك فهراء من ناحية الواقع ومجموعة خيانات وجنايات لا احاديث صدق وكلمات حق ٠

ولا قيمه للعناوين الفارغة من قال الشعبى او الزهرى او البخارى او العسقلانى كما لاقيمة لدعاية الجريدة والمجلة وشاشة التلفزيون فان الرد يفين من سابق ولاحق امّا اناس عبثت بهم الأوهام حتى احالتهم الى مجموعة خرافيين لا وزن لهم فى سوق المنطق او مأجورون ساقطون قد تسفّلت بهم الروحيّات الى ا بعد حدّ يتصور ٠

وامّا زفيف هذا الغثاء من العامّة فهو مع الباطل والوهم والخرافة اكثر منه مع الحقيقة لان تذوّقهم للوهم اقرب لهم من تذوّقهم للواقع فتجمّعهم على شئ وتشتتهم عنه ليس بملاك اصلا ،وسنخ الله والرسول لا يكون الّا فى العلماء الجذريّين المقدسين المعصومين ولا يتحقق هذا الوصف الّا بتنصيص من الله ورسوله قطعا ولبّ هذا الكلام يعترف به مخالفونا فى جانب مفهومى لا تطبيقى فقد قال الشوكانى فى تفسيره لهذه الآية واولوا الأمر هم الائمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعيه لا ولاية طاغوتية الّا انهم فى مقام التطبيق يطبقونه على معاوية بن ابى سفيان قاتل البررة ومؤئل الفجرة والعابث بكرامة اولياء الله وعلى يزيد ابنه وقس على ذلك ممّن طبّقوا عليه عنوان الأمام والسلطان والقاضى والوالى ٠

فى حال ان كافة هؤلاء بشهادة الخارج الذى لا شبهه تعتريه طواغيت سفّاكون فتاكون افّاكون لعبوا فى كل ادوارهم بمقدرات الناس لعب الصبيان بالأكر وساعدهم على كافة جناياتهم هؤلاء المأجورون الساقطون من مدعيى الفقه والحديث والتصوف والتزهّد حتى جاء الاسلام والمسلمون اضحوكة لكل احد يسخر منه فى كل اشيائه والأطالة

فى هذا الباب يعدّ هذرا فلنكفكف من اطراف القلم والمداد ٠

ومعنى فأن تنازعتم فى شئ فردّوه الى الله والرسول انكم اذا لم تفهموا حكم الحادثة تواجهونها فخذوا ذلك من ظواهر القرآن ان كان فيها حكم تلك الحادثة ومن واضح السنة وصحيحها ان كان فيها ذلك وان لم يكن فألى ماتقتضيه القواعد العلمية الكلية المأخوذة من الكتاب نفسه والسنة المحقّقه نفسها والّا فبالاحتياط مالم يوجب العسر والحرج والّا فيسقط التكليف بذلك هذا الذى ذكرناه فرضكم ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ولكم عقيدة راسخة به فانكم ان فعلتم ذلك كان خيرا لكم واحسن تأويلا للقضية التى تدهمكم وتحرجكم حلّا ٠

* (ألم تر الى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما انزل اليك وماأنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالا بعيدا :واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله و الى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا) *

الطاغوت فاعول من الطغيان للمبالغة فى التجاوز عن الحد ويطلق على الساحر والكاهن والصنم وكل فاقد الصلاحية لأن يعبد او يتمسك به او يترافع اليه ــ بعموم هذه المعانى ــ أمر الله المكلفين ان يكفروا به ولذلك قال تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها ٠

وللسرّ نفسه ساق سبحانه قوله الم تر مساق الأستفهام الأنكاري بأنه كيف يمكن ان يدعى الانسان الأيمان بما انزل على نبىّ الاسلام وماانزل

من قبله من كتاب سماوىّ ومع ذلك اذا عرضت له خصومة يرفعها امّا الى كاهن او منحرف او فاقد لصلاحية القضاء شرعا وقد أمر ان يكفر بالطاغوت الذى فسّر بأحد هذه المعانى .

فقد ورد فى اسباب نزول هذه الآية ان برزة الأسلمى كان كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر اليه ناس من المسلمين، وقيل ان الجلّاس بن الصامت قبل توبته ومعقب بن قشيّر ورافع بن زيد كانوا يدّعون الاسلام فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم الى رسول اللّه فدعوهم الى الكهّان حكام الجاهلية .

وقيل ان الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له كعب بن الأشرف وكانوا اذا دعوا الى ماانزل اللّه و الى الرسول ليحكم بينهم قالوا بل نحاكمكم الى كعب فنزلت الآية ثم قال سبحانه ولا بدع اذا انحرفوا عن الترافع الى اللّه ورسوله بعد أن انساقوا مع الشيطان الذى أضلّهم ضلالا بعيدا .

والضلال مصدر من معنى يضلّهم لا من لفظه لأن مصدر أضلّ قياسا هو الأضلال وبعد الضلال هو الأغراق فيه ثم جعل تعالى مائزا واضحا بين المسلم الحق والمنافق بقوله واذا قيل لهم اى للمتخاصمين تعالوا فى خصومتكم الى ماانزل اللّه من نظم ومقرّرات و الى الرسول نفسه ليكون هو الحكم الصدق بينكم رأيت المنافقين يصدّون عنك يارسول الاسلام صدودا ــ جئ بالمصدر لتأكيد معنى فعله ــ ولا يرضون بالترافع اليك لأنّ فى ذلك تأييدا لك ومهمّتهم دائما الحطّ من كرامتك واضعاف امرك .

* (فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم ثم
جاؤك يحلفون بالله ان أردنا الّا احسانا وتوفيقا
: اولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض
عنهم وعظهم وقل لهم فى انفسهم قولا بليغا) *

كيف هنا استفهام للاستغراب والتعجب بمعنى كيف يكون هؤلاء المنافقون فى رفع خصوماتهم الى غيرك جفاء لك واستخفافا بشأنك لو صادف ان اصيبوا بحادثة فاستقرّ فى نفوسهم ان هذه الأصابة نتيجة لتلوّيهم عليك فخافوا من تواتر امثالها عليهم فجاؤك معتذرين عن رجوعهم الى غيرك مقسمين بالله لتبرير عملهم انّنا فى رجوعنا الى غيرك لحلّ خصوماتنا لم نحاول لك دكّا وعنك اعراضا وانما حاولنا الأحسان اليك بتركنا الخصومة عندك لان من لازم الخصومة معمولا رفع الصوت فى الكلام وتعدّى بعض على بعض فى الخصام واردنا ان ننزّه محضرك عن ذلك مضافا الى اننا فى رجوعنا الى غيرك لم نرد القضاء الشرعى بيننا وانما اردنا حصول نوع من الصلح والتوفيق وهما لا يحتاجان الى قضاء بل عقلاء العوام قد يتوسطون فى اصلاح ذات البين فى المرافعات والخصومات الكائنة بين اثنين او فريقين ٠

فأبان سبحانه لنبيّه ان اعتذار هؤلاء لوجاؤك به ليس بصحيح ولا واقع له وواقعهم انّهم منافقون والله يعلم مافى قلوبهم فأعرض عنهم كأنك لا تعلم بدسائسهم وعظهم ان كانت العظة تنجع فيهم واعتزل بهم عن الغير وقل لهم فيما بينك وبينهم قولا تبلغ به قرارة نفوسهم حتى لا يظنّوا بك انك لا تعرفهم وحتى تكون منهم على حذر ويكونوا منك على وجل ٠

* (وما ارسلنا من رسول الّا ليطاع بأذن الله ولـو
انّهم اذ ظلموا انفسهم جاؤك فاستغفروا اللّـه
واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّابا رحيمـا) *

ثم قرّر سبحانه فى هذه الآية مايدفع احتمال ما يتأتّى من قـول المنافقين ان اردنا الّا احسانا وتوفيقا بأن معنى الرسالة ليس هو صرف ابلاغ ما عن الله سبحانه بل يضاف الى ذلك ان الرسول حاكم شرعـى لتطبيق الرسالة عملا فى الخارج فالرجوع الى غيره انكار لرسالته ومـا ارسلنا من رسول الّا لأن يكون مطاعا فيمن ارسل اليهم بأذن اللّـه اى بتوفيق العباد لنيل هذه المكرمة وهى طاعة الله بطاعة الرسول ولو انّ هؤلاء المنافقين كانوا صادقين فيما يقولون ان اردنا الّا احسانا وتوفيقا واجلالا لمحضرك من ان يجرى فيه ما لا يلائم اذ ظلموا انفسهم برجوعهم الى غيرك فى خصوماتهم جاؤك واعترفوا بذنبهم وطلبوا المغفرة من اللّـه وتقاضوا منك ان تستغفر لهم لوجدوا الله توّابا عليهم رحيما بهم فـان الكرّة على الطاعة عند الله تمحو الغرّة عنها ولكنهم ماكانوا واقعيين بـل منافقين لم يؤمنوا بك فلم يجيئوك مستغفرين وطالبين منك ان تستغفـر لهم .

وانما قال تعالى واستغفر لهم الرسول التفاتا من الخطاب الـى الغيبة تجليلا للرسالة بسبب ذكرها بلفظها حيث قال (واستغفر لهـم الرسـول) .

* (فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم
ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا ممّا قضيت
ويسلّموا تسليما) *

تفيد هذه الآية البليغة ان كل تلك الأعتذارات الصادرة منهم بأننا ما اردنا الّا احسانا وتوفيقا لا تدفع غائلة مافى نفوسهم ولا تصيّرهم مسلمين حقيقيين وانّما هى ظواهر مطلّاة لاقيمة لها فضلا عمّا فيها من اضرار جوهرية فأنّهم لا يكونون مؤمنين حقا حتّى لا يعرفوا قاضيا سواك فى جميع ما ينوبهم وحتّى يأخذوا بقضاءك بقلوب ثلجة لا تتدافع بها الوساوس بل يعتقدون من صميم قلوبهم أنّما قضيت به هو الحقّ الذى ماعنه محيص لان ذلك هو لازم الاعتراف بكونك رسولا من ناحية الله لا تنطق عن الهوى معصوما فى جميع حركاتك وسكناتك .

وتفيد الآية بلحنها ان الأيمان ليس بالعقيدة وحدها بل لا بد من ان يكون هناك عمل فلا يكفى فى اسلام المسلم اعتقاده بوجوب الصلاة مع تركها ولا بحرمة المسكرات مع تناولها وهلم دواليك فى كلّ ما يجب فعله ويلزم تركه شرعا .

* (ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم مافعلوه الّا قليل منهم ولو انّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا واشدّ تثبيتا: واذا لآتيناهم من لدنّا اجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما) *

ضمير الغيبة الجمعى فى عليهم يرجع لأولئك الذين سبق التحدث عن ظاهرة اسلامهم وانها ظاهرة لا تشفّ عن ثبات دين بل هى بسيطة جدّا لا تثمر ما يثمر الايمان الواقعى والدليل على ذلك انهم لوكانوا مؤمنين حقا وامرناهم ان يقتل بعضهم بعضا او ان يخرجوا من ديارهم ويهجرونها الى غيرها حيث يأمرهم المولى لفعلوا ذلك وان احرجهم وشق عليهم لكنّ هؤلاء المتحدث عنهم لا يفعلون مثله اذ لم يفعلوا ماهو أقلّ منه مؤنة وهو الترافع الى النبىّ فى الخصومة حذرا من كلّ واحد منهم ان يكون هو المحكوم فلا ينال مقصده .

امّا الترافع الى غيره ممّن تؤثر عليه الشفاعة وتأخذ منه الرشوة مأخذها فلا يأبى منه لانه بأصراره على ما يريد لا يفوته ما يحاول :قوله الا قليل منه : يريد بهذه الأقليّة المؤمنين الاثبات الذين رسخ فيهم الايمان بكلّ ما يريده الله والرسول ،ولو ان اهل ظاهرة الاسلام فعلوا ما يرشدهم الله والرسول اليه بأوامره ونواهيه لكان خيرا فى دينهم ودنياهم امّا فى دينهم فلأنّ أجر الطاعة عند الله سبحانه والله لا يخلف ماوعد عبده وامّا فى دنياهم فلأن الله والرسول لا يريدان الّا ما يسعد به العبد لنفسه ، ولكان فعلهم لما يوعظون به اشدّ تثبيتا لما يتظاهرون به من عقيدة واذا لآتيناهم من لدنّا يوم القيامة اجرا عظيما ولهديناهم فى هذه الدنيا

صراطا مستقيما فيزداد ايمانهم فوق ما هو عندهم .

* (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا : ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) *

الصدّيق مبالغة فى الصدق ومعناه ملازمته له دائما فى كل شىء والشهداء جمع شهيد وهو امّا بمعنى انه يكون من الشهداء يوم القيامة وتقبل شهادته كما تقبل شهادة الانبياء او بمعنى مفعول اى مشهود له بالجنّة لقتله فى سبيل الله والصالح هو الانسان الملازم للصلاح المتجافى عن الفساد والانحراف ولا شكّ انه لا رفاقة احسن من مرافقة الانبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين السعداء وانتصب رفيقا امّا على التمييز وامّا على الحالية وانّما جىء به مفردا ولم يقل رفقاء لان المنظور انه حسن كل واحد من اولئك رفيقا ، ذلك اشارة الى الحشر مع النبيّين وتابعيهم وخبره هو الفضل من الله على عبده المطيع له ولرسوله وكفى بالله عليما بالمطيع من العاصى .

* (يا ايّها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعا : وان منكم لمن ليبطئنّ فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم اللّه على اذ لم اكن معهم شهيدا : ولئن اصابكم فضل من اللّه ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) *

اخذ الحذر هو التوجه دائما الى ما يحيط بالأنسان او بالأمّة من نوايا السوء بالاستعداد لدفع المهاجم او قمعه قبل أن يهجم والمنظور بذلك هو الأستعداد بالسلاح والقوّة والتأهب للزحف والثبات جمع ثبة وهى الفرقة وانتصبت بالكسرة لأنها ممّا جمع بألف وتاء مزيدتين على الحالية بمعنى متفرقين فرقة تكون فى جانب وفرقة اخرى تكون فى جانب آخر وجميعا منصوبة على الحالية ايضا بمعنى مجموعين فى جبهة واحدة . وبطأ بالتشديد بمعنى ثبّط ومفاد هذه الآيات ياايّها الذين آمنوا لا تنكمشوا الى انفسكم ولا تزهدوا بالحوادث تكون فى الكمين لكم فان الراصدين لكم بالشرّ كثيرون قد لا تشخصونهم وقد يكونون ممّن يتظاهر لكم بالمحبة والموافقة ولا بدّ ان تكونوا فى كلّ حال متأهبين حاضرين لقمع اعدائكم او دفعهم فانفروا اليهم ان اقتضت المصلحة فرقة فرقة وان قضت عليكم بالخروج مجتمعين جبهة واحدة فافعلوا .

وانّ ممّن يتظاهر لكم بالدين وينضمّ الى جماعتكم بأظهاره للأسلام ولكنه من المنافقين ليدخل فى خلالكم مثبطا وموهنا فأن اصابتكم فى جهتكم التى خرجتم اليها مصيبة ولم يقدّر لكم النجاح قال هذا المنافق المتستر قد أنعم اللّه علىّ بأننى لم اكن فى جماعة هؤلاء الخارجين

الذين اعوزهم التوفيق فانكسروا ٠

وشهيدا بمعنى شاهدا للمعركة حتى تنوشنى مصائبها كما ناشت هؤلاء ولئن اصابكم فضل من الله ووفقّتم للانتصار على اعدائكم وغنمتم مـا كان معهم ليقولن ـ حتى كأنه لم تكن بينكم وبينه رابطة دين واحد وحمية واحدة ولم يكن مشمولا لحوزتكم ، ياليتنى كنت مع جماعتهم حتى افوز بمـا فازوا به من العنوان المعنوى والأستفادة المادّيّة كما يقول الأجانـب هذه المقالة عندما يشاهدون الغالب البعيد عنهم هوية وجنسية وموقفه من المغلوب ، واللامان فى لمن وليبطئنّ للتأكيد ٠

* (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيـاة
الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل
او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما : وما لكـم لا
تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال
والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا اخرجنا من
هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك
وليّا واجعل لنا من لدنك نصيرا) *

مفاد هذه الآية مؤكد لما سلف فى قوله ياأيّها الذين آمنوا خـذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعا وشرى الحياة الدنيا بالآخرة معناه استبدل الآخرة بالدنيا. فباع الدنيا واشترى الآخرة ، فان قيل ليس كلّ مقاتل تزهق نفسه فقد اشترك كثير من الأفراد فى عشرات الحروب وسلموا فكيف يطلق عليه انه باع دنياه للآخرة قلنا صحيح ذلك ولكن الخروج الى القتال حتى لو سلم من كل موهن فأن فيه من اوّله الى آخره تألما للنفس وعدم راحة وفقد استقرار والأنسان الطالب للدنيا لا يعطى على نفســه

منفذا للأذية ويحاول لها كل ارتياح ويبعد عنها حتى شبح التألم ولذلك اطلق سبحانه على مزاول الحروب انه بائع لدنياه ٠

وأبان تعالى ان المقاتل فى سبيل الله لا يعدم احدى الحسنيين امّا الشهادة فى سبيل الحق لنفسه اوغلبه لعدوّه و فى كلتا الحالتين هو مثاب مأجور ، ومالكم لا تقاتلون استفهام استعجاب واستغراب بمعنى اىّ شىء يقعد بكم عن المقاتلة فى سبيل الله وطرق الخير وهى احياء المعالى واماتة الرذائل والمظالم وهذا امر تؤيده العقول وتحثّ الناس على تحقيقه ٠

ومالكم ايّها الاقوياء الاشدّاء لا تقاتلون فى سنبيل المؤمنين المستضعفين الذين استذلّهم الكفّار لقلّتهم وهم المؤمنون الباقون فى مكة بعد هجرة النبىّ منها الى المدينة وقبل فتحها من رجال ونساء واطفال يعانون المشاق من مضايقة المشركين لهم ولا يزالون يتقاضون بلسان الدعاء من ربّهم ربنا اخرجنا من هذه القرية وهى مكة الظالم اهلها بتعديهم علينا بلا شبهة حقّ لهم فى اعناقنا سوى اختلافنا معهم فى العقيدة واختلاف العقيدة لا يجوز ان يكون مثار تهجّم الّا اذا اقتضى خللا فى النظام وفسادا فى طقوس الحياة ولم يكن فى البين من هذا شىء والأسلام انّما جرّد قواه على المشركين ليصيّرهم مسلمين لم يكن بداعى الهيمنة عليهم ولكن ليطرد عن ساحة الناس تلك الموبقات التى كانت حاكمة فيهم من ظلم الأقوياء للضعفاء واستعباد المتنفذين لفاقدى الوسيلة وشنّ الغارات على حساب الغنيمة واهتضام حقوق المرءة وما الى ذلك ٠

واجعل لنا من لدنك وليّا اى منسوبا اليك فى قدسه وطهارته وعلمه وعصمته يلى امورنا ونكون مترسمين لخطواته وتحت رايته وهكذا

اجعل لنا ناصرا ينصرنا على اعدائك وهو من جانبك لتأخذه الرأفة بالمظلوم العاجز ويحمله الغضب فى الحق لدك الظالم المتهجم ٠

* (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين
كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء
الشيطان انّ كيد الشيطان كان ضعيفا) *

مفاد الآية ان الحياة ما بين اهلها دائما هى دار هياج وازعاج ومقاومة كما هو محسوس للجميع ولكن كم من فرق بين هياج وهياج فربّ هياج فضلا عمّا فيه من تبعة للجسم بالأضناء وعدم الراحة والألم بل والأتلاف احيانا لا يكون الّا سبّة على الأنسان وذلك الهياج هو الهياج المبعوث عن دواعى الشرّ كأرادة اهتضام حقوق الآخرين والتعدّى عليهم وربّ هياج وان كان مثل الأول فى تبعاته الجسمية الّا انه مرموق بدواعيه كأقامة النظام واستتباب الأمن وقطع ايدى الفسدة واعلاء كلمة الحق واقرار العدل بين الناس فاذا كان لابدّ من قتال فى مضامير الحياة فلاشكّ ان القتال الشريف اوفق بالأنسان من القتال السخيف ٠

ومن هنا قال تعالى الذين آمنوا بالدين الصحيح انما يقاتلون لأحياء سبيل الله وهى طرق الخيرات والمبرّات والذين كفروا بالمبدأ الحق وتعاليمه انما يقاتلون فى سبيل الباطل و الانحراف ولا شك ان المبادىء السخيفة مغلوبة متى واجهت قوة الحق بمواقفه الصامدة فقاتلوا يااولياء الرحمن اولياء الشيطان الذى هو رمز كل خطيئة ان كيد الشيطان كان ضعيفا لأنه لا رصيد له فى المغنى وانما رصيده الجهل لا اكثر والجهل لا يشفّ عن مبدأ لأنّه عدم والعدم لا شىء ٠

* (ألم تر الى الذين قيل لهم كفّوا ايديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلمّا كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشدّ خشية وقالوا ربّنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرّتنا الى اجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتّقى ولا تظلمون فتيلا) *

نزلت هذه الآية فى جملة من المسلمين كانوا يشكون الى رسول الله الهوان والذلة بعد اسلامهم وكانوا قبل ذلك يجدون انفسهم اعزّاء فيستدعون من الرسول الأذن فى مقاتلة المشركين ولمّا كان الرسول لم لم يؤذن له بالمناجزة قال لهم كفّوا ايديكم بالفعل عن شهر السلاح واكتفوا من طقوس الدين بأقامة الصلاة والزكاة ونظائر ذلك من الأعمال وهاهم اولاء لمّا كتب عليهم القتال وأمروا بالجهاد اذا فريق منهم يستثقلون ذلك كثيرا حذرا على انفسهم من القتل وانّما اشتهوه سابقا لبعدهم عنه فلمّا قاربوه هابوه كما قال الشاعر :

يحبّ المديح ابو عامر ويرهب من صولة المادح

ومعنى خشيتهم من الناس خوفهم منهم ان يقتلوهم متى بارزوهم كخشيتهم من الله حينما يقدّر عليهم الموت بل اشدّ خشية لان الموت حتف الأنف ليست له فى الأغلب مقدمات تشعر بتحتمه بخلاف مبارزة الأقران فانّها تشعر بذلك اكثر ،وكأن التكاليف كلّها كانت هيّنه عليهم ماسوى الجهاد لما يرون فيه من خوف الموت وهم يحبّون الحياة ولذلك قالوا ربّنا لم كتبت علينا القتال وكلّفتنا بالجهاد فهلّا اخرّتنا احياءً حتى نموت موتا طبيعيا فأجابهم ربّ العزّة بأن الحياة التى تخافون عليها من

القتل ليس فيها الّا المتاع القليل المشوب بالآلام والآخرة لمن يتوفــق لنيلها خير من هذه الحياة المملوءة بالمنغصّات لأنها نعيم محض ولكن لا ينالها الّا المتّقون وسيوفّى الله المتقى حقّه ولا يظلم أدنى شئ ولــو كان قليلا لا يعبأ به كالفتيل من الوسخ الذى يخرج من بين الأصابع ٠

* (اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بـــروج
مشيّدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عنـــد
الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل
كلّ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكـــادون
يفقهون حديثا) *

أعرب سبحانه فى هذه الآية لهؤلاء المتخوفين من الموت لأجـــل القتال بأنّ الموت المقدّر يلحق الأنسان سواء كان بادى المقاتل امكان فى برج مشيّد محصّن لا تنفذ فيه اعظم العيارات النارية فلا من دخـــل حومة الميدان قضى عليه ولا من تحجّب بالحجّاب وغلقت عليه الأبـــواب عاش وهذا مطلب مشهود للحاسّة فلا تخافوا الموت ودافعوا عن انفسكم واموالكم ونواميسكم وحيثياتكم بكل نشاط ٠

ثم أبان القول عن نكتة اخرى ردّ بها على اليهود والمنافقيـــــن الذين كانوا يرجفون برسول الله ويقولون لم نر من مساعيه خيرا لنـــــا وللجميع امّا زروعنا ان تحسّنت وضروعنـا اذا درّت وما لنا اذا كثر فذلـك من الله وكل سوء يدخل علينا من خوف وموت وتخريب ديار ونهب اموال وفقد أعزّة فهو بسبب محمّد ودعوته وقيامه بها ومنـاوأته الناس بذلــك فكلّف الله نبيّه بأن يجيبهم ان ما يفرحهم وما يحزنهم ما يحسن عندهـم وما يسوئهم كل ذلك من الله سبحانه فان كافة ما يلاقيه الأنسان فـــى

ادوار الأكوان باستثناء اجرامه وآثامه التى يخلقها بفعله واقدامه مقدّر عليه كائن له فكما أنّ الخصب من اللّه كذلك الجدب وكما ان الرخاء من اللّه كذلك الشدّة وهذا مطلب ينوش الملحد والموّحد ولا خصوصية له بالمسلم او المشرك او المنافق او الكتابىّ فما لهؤلاء الجهلاء لا يكادون يفقهون حديثا يسمعونه او يسوقونه ٠

* (ما اصابك من حسنة فمن اللّه وما أصابك من سيئة فمن نفسك وارسلناك للناس رسولا وكفى باللّه شهيدا : من يطع الرسول فقد اطاع اللّه ومن تولّى فما ارسلناك عليهم حفيظا : ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذى تقول واللّه يكتب ما يبيّتون فأعرض عنهم وتوكل على اللّه وكفى باللّه وكيلا) *

السيئة هنا غير السيئة المذكورة فى الآية السابقة فان المراد بها آنفا كما ذكرنا هو ما يقدّر على الأنسان من مصيبة ترد عليه لا من تسبيبه والمراد بها هنا ما يكتسبه الأنسان ويجرّه على نفسه كمن يشرب المسكر فيسكر والسمّ فيهلك او يتضرر ومن يسرق فيقطع او يضرب وما الى ذلك فأن كسب الأنسان غير مقدّرات القضاء ٠

والألف واللام فى للناس تفيد العموم اذ ليس المنظور بها هنا الجنس ولا محدّد للأفراد المرسل اليهم ،وكفى باللّه شاهدا وناظرا لسيرك مع المجتمع وسيره معك ،وبما ان الرسول ليس له من الأمر شىء وانما ينطق عن الوحى فطاعته فيما يأمر وينهى طاعة للّه ومن يعرض عنك فلا تعبأ به فما ارسلناك حافظا للناس ٠

وقد نسخ هذا المفاد بالآيات الدالة على جهاد المشركين والملحدين وان من يتولى عن الدين الحقّ معرضا يجب ارجاعه اليه وسلكه فى زمرة المؤمنين به ، ويقول لك جماعة المسلمين بمافيهم من منافق ومؤمن صريح طاعة لك فيما امرت ونهيت فأذا انفصلوا من عندك زوى طائفة من هؤلاء فى نفوسهم وانطووا على غير الذى قلت لهم واجابوك بالطاعة له غافلين عن انّ الله يعلم ماتكنّه قلوبهم وان ماينوونه قبل أن يفعلوه منظور بعين الله مكتوب فى علمه فجامل هؤلاء المنافقين ماامكنت المجاملة وتوكل على الله فى مشاريعك التى نوظّفها عليك ولا تُعِر هؤلاء بالا وكفى بالله ثقة لمن يتكل عليه ويستمدّ منه العون والمساعدة .

* (أفلا يتدبرون القرآن ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) *

هذه الآيه سيقت مساق الأستنكار على المنابذين للاسلام والمنافقين فيه وضعفاء الدين فاستدلّ الله عليهم بأن الذى يتدبر احكام القرآن وادب القرآن واخلاقه ومايقصّه عن الأمم الخالية ويخبر به عن غيب قبل وقوعه فيحصل كما أخبر وهكذا يتدبر فصاحته وبلاغته ونزاهته عن المستقذر من الألفاظ والمعانى وفخامة تراكيبه وايجازه الوافى بالمقاصد على طول سوره وآيه يحكم على نفسه بلزوم الأيمان بسماويّته لانه لوكان كلام بشر لما استوعب هذه الجوانب كلّها بلا خلل يكون فيه ولا وهن يعتريه ولا اختلاف فى ترسلّه فأوّله كآخره ووسطه كطرفيه نعم هذا التدبر له اهل مختصون وليس بوسع العامّة تشخيص ذلك اذ ليسوا من اهله فاللائمة على عدم تدبره انما تتناول فريقا خاصا من اهل الكتاب والمنافقين وهم اهل الدربة والفضيلة .

و فى هذه الآية حجة على الاخباريين الذين يمنعون عن فهم القرآن من غير تفسير النبىّ او الأئمة له فان الآية تنصّ على ان المراد بقوله تعالى أفلا يتدبرون القرآن هم غير المعتنقين للأسلام لان المسلمين لا يتخالجهم شك بأن القرآن قد يكون من صنع محمّد بل هم جازمون بأنه من الله وحده وانّما صحّت اللائمة على غير المعتنقين لان تدبّر القرآن كان بوسعهم وبمقدورهم فألووا عنه جانبا لا لأنهم لم يفهموا من ذلك شيئا بل لاعراضهم عنه قبل التحقق فيه وانسياقهم مع سوء الظنّ الموافق للهوى .

* (واذا جائهم امر من الأمن او الخوف أذاعوا به
ولو ردّوه الى الرسول و الى أولى الأمر منهم
لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل اللّه
عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الّا قليلا) *

الأشارة بهذه الآية الى ضعفة المسلمين وبسطائهم الذين تلوك السنتهم كل رطب ويابس بلا امعان نظر وتدبروانه هل ينفع او انّ فيه ضررا فضلا عن عدم النفع فقال تعالى واذا وصل الى اسماعهم فتح اصابه المسلمون او مغلوبية اصيبوا بها أفشوا تلك الأخبار بلا تأمل وربّما يكون فى افشائها ضرر على جامعة المسلمين فأنّ امثال هذه المطالب يجب ان توزن قبل أن تذاع حتى لا يحصل من طريقها ضرر ولو ان هؤلاء المتسرعين سكتوا عن ابداء اىّ شىء يطرق اسماعهم حتى يكون نفس النبىّ هو المذيع له او ولاته الذين ينصبهم على الأصقاع وعلى المدينة نفسها حال غيابه عنها فانّ صلاحيتهم لذلك مستمدة من الذى ولّاهم وهو الرسول وهذا هو معنى قوله ولو ردّوه الى الرسول و الى أولى الأمر

منهم لعلمه الذين يستنبطونه ٠

ومعنى الأستنباط هنا هو رؤية المصلحة فى بثّه او ستره ،ثم ابلغ تعالى ابلاغا عامّا لكل من تشرّف بالاسلام ودان له بأنه لولا موفقية اللّه لكم ورحمته عليكم لاتبع الاكثرون منكم خطوات الشيطان والمراد بذلك التجاهل بالحقيقة والأعراض عنها والأقبال على ايحاآت الوهم والخيال ولم يكن يؤمن الّا قليل منكم اولئك الذين لا يقدمون على شىء الّا بعد التدقيق فيه والتحقّق منه واذا آمنوا به ثبت ايمانهم ولم يتزلزل ٠

* (فقاتل فى سبيل الله لا تكلّف الاّ نفسك و حرّض
المؤمنين عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا
والله اشدّ بأسا و اشدّ تنكيلا) *

سبق فى الآيات السابقة قوله فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة و من يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما : وهو امر بالجهاد للمؤمنين ولا شكّ ان فى طليعتهم نبيّهم و هذه الآية خصصته بالذكر لمعنى خاص وهو انك يانبىّ الأمةان كنت مسؤلا فبالتبليغ و الحثّ و لمّ المؤمنين و دعوتهم الى الخروج معك حيثما يأمرك الله فلو تخلف عنك من لست قادرا على ادخاله فى حوزتك لما كنت مسؤلا عنه و فى مثل المقام لا تكلّف الاّ نفسك .

و تكلّف مبنى للمجهول نائب فاعله ضمير الخطاب و نفسك منصوب على انه مفعول ثانى لتكلّف و التحريض هو الحث و البعث وعسى للترّجى ساقها الله مساق المتكلمين غيره طردا للقاعدة الكلامية لا على موجب علمه والاّ فهو يعلم ان بأس الذين كفروا يهيمن على بأس المؤمنين او يكون تحت الشعاع و كفّ عنه تركه و البأس هو القوّة والتنكيل هو الايقاع بالطرف بما يكون عبرة للغير .

قيل فى سبب نزول هذه الآية ان ابا سفيان لمّا رجع بقريش الى مكة بعد وقعة احد واعد رسول الله موسم بدر الصغرى فلمّا وصل الوعد وهو ذو القعدة لأنه الوقت المعلوم للموسم المذكور ابلغ النبىّ بالخروج الى ميعادهم فتشاقلوا و كرهوا ذلك كراهة شديدة فأنزل الله هذه الآية فحرّضهم كما امره الله فلم يجيبوا فخرج (ص) فى سبعين راكباحتى اتى الموسم ببدر فكفاهم الله بأس العدّو بتخلف ابى سفيان عنه وانصرف

رسول الله بمن معه سالمين .

* (من يشفع شفاعةً حسنةً يكن له نصيب منها و من يشفع شفاعةً سيئةً يكن له كفل منها و كان الله على كل شيء مقيتا) *

يقال كان فلان يمشي وحده فشفعه فلان فالشفع هو ثاني الفرد و شفع فلان لفلان اذا ايّده و قوّى جانبه : أبان سبحانه في هذه الآيةً ان المؤمن انما يجوز له ان يشفع اذا كان هدف المشفوع له حسنا ومرامه مشروعا فان شفاعته في مثل هذا المجال تفيده ثوابا و تنيله حسنا وامّا اذا كان هدفه سيّئا و مرامه غير مشروع كان الشفيع شريك جرم للمشفوع له و ناله نصيب من جزاء المجرم فالآيةً تنصّ على ان المؤمن يجب ان يراعى ايمانه قبل مراعاةً الصداقة او الاستفادةً الماديّة او رجاء الناس منه فأن اجاز له الأيمان أن يسلك ما يريد منه الغير فعل و حصّل اجرا و ان لم يجزه كفّ ولو كان الذي رجاه صديقا او رحما او كانت في شفاعته منفعةً دنيويةً له و يقال أقاته يقيته اذا اعطاه القوت فحفظ وجوده ولازم ذلك القدرةً فمعنى و كان الله على كل شيء مقيتا انه كان مقتدرا و تصحيح انتساب ذيل الآيةً لصدرها هو انّ الله قادر على ان يؤجر الشفيع في الحسن و ان يعذّبه على شفاعته في الأمر السّيء .

* (و اذا حييّتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها اوردّوها
ان الله كان على كل شئ حسيبا) *

التحية هى السلام و اصلها الدعاء للطرف بالحياة و السلامــــة و البقاء فيقال حيّا فلان فلانا اذا اراد له البقاء و دعا له بالحياة أفادت هذه الآية تعليما اخلاقيا وهو ان الأنسان اذا حيّاه آخر بتحية فقـال له السلام عليك او صبّحك الله بالخير مثلا و جب على المحيى ان يحيّى من ابتدأه بالأحسن حتى يكون قد كافئه على ابتدائه فيقول له السـلام عليك و رحمة الله و صبّحك الله بالخير و البركه .

و حدّ الأقل فى الوجوب ردّها بمقدارها كأن تجيبه بقولك السـلام عليك و صبّحك الله بالخير وردّ التحية واجب فى الشرع يعصى الأنسان بتركه تعمّدا و الأبتداء به مستحب واصل مشروعيّته لتقريب القلـــوب و ايجاد المحبّة بين الناس .

ثم انه تعالى أبان حفظه لما يصدر عن عباده من الابتداء بالتحية و التجافى عن ردّها او ردّها هى بنفسها او بالأحسن منها بأن كـلّ ذلك مضبوط عنده يثيب او يعاقب عليه حسبما يقتضيه المورد .

* (اللّه لا اله الاّ هو ليجمعنكم الى يوم القيامــة
لا ريب فيه و من أصدق من اللّه حديثا) *

من لازم خالق العالم صانع كافة المخلوقات الذى اسمه اللّــه ان يكون لا اله الاّ هو و لمّا كانت كافة افعاله حكيمة و من الحكمة ان يصل المجرم الى ما يقتضيه جرمه و اثمه من نكال و ان يصل المحسن الى مـــا يستدعيه احسانه من اثابة كان انشاؤه للنشأة الثانية ضروريا لتأميــن الهدف المذكور لذلك كان يوم القيامة لا ريب فى تحققه خصوصا وان اللّه اشاد بذكره فى كتبه السماوية و على لسان رسله غير مرّة و من اصدق من اللّه حديثا اذا حدّث ·

* (فما لكم فى المنافقين فئتين و اللّه اركسهم بمــا
كسبوا أتريدون ان تهدوا من أضلّ اللّه و مــن
يضلل اللّه فلن تجد له سبيلا) *

يقال أركسه اذا دفع به فى تخوم الشىء و الفئة الفريق و ما هنــا للاستفهام الأنكارى و محلّها الابتداء و لكم جار و مجرور خبر و فئتيــن حال بمعنى أيّة شبهة دخلت عليكم فى المنافقين الثابت نفاقهم حتــى صرتم فى حقهم فئتين و فريقين فريق اثبت نفاقهم و استحلّ قتالهــم و فريق توقف فى نفاقهم فلم يستحل قتالهم ·

قيل فى سبب نزول الآية ان رسول اللّه خرج الى احد فرجع نــاس ممّن كانوا خرجوا معه فكان اصحاب رسول اللّه فيهم فرقتين فرقة تقــول نقتلهم و فرقة تقول لا فاستنكر اللّه على المسلمين انشقاقهم فى حــقّ هؤلاء و حقّق لهم انهم منافقون مظلموا البواطن خبيثون و انه تعالــى

اركسهم بسبب كفرهم و عنادهم أفتستطيعون انتم ياجماعة المسلمين ان تهدوهم بالكلام و حسن الظن بهم و اللّه اذا اضلّ انسانا لانصرافه عنه و تمرده عليه و خبثه معه فلن تجد له سبيلا يسلك به الى الهداية الاّ اذا نزع يده من كل تلك الخبائث و تاب و صلح باطنه ·

* (و دوّا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا فى سبيل اللّه فأن تولّوا فخذوهم و اقتلوهم حيث وجدتموهم و لاتتخذوا منهم ولّيا و لا نصيرا) *

يعنى ان اولئك الذين انقسمتم فيهم قسمين وهم فى الواقع اخباث كفرة مظلموا البواطن يودون ان تكونوا مثلهم حتى يستريحوا من مشقّة النفاق و تزّمته لانهم يعودون بعد كفركم آمنين من كل احد فلا تتخذوا ايّها المسلمون من هؤلاء المنافقين صديقا و لاحبيبا حتى يهاجروا من ديار الشرك و يباعدوا المشركين و ينزلوا معكم فى دار واحدة و يقوموا بجميع ما تقومون به من طقوس اسلامية ·

فأن استدعيتموهم لذلك فأبوا اجابتكم الى ما اردتم منهم فهناك تعرفون انهم اخباث لاواقعية لهم عند ما ينضمون احيانا اليكم فخذوهم حين تتمكنون منهم و اقتلوهم اينما يكونون و لاتتخذوا منهم صديقا و لا تستنصروا بهم فى مآزمكم فانهم يساعدون اعدائكم عليكم ·

* (الأالذين يصلون الى قوم بينكم و بينهم ميثاق
اوجاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم او يقاتلوا
قومهم و لو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم
فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم و ألقوا اليكم السلم فما
جعل الله لكم عليهم سبيلا) *

الأستثناء ـ فى قوله ـ الآ الذين ـ من قوله ـ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم اى فقط احترموا الأقوام الذين يلوذون بمن لهم معكم عهد و ميثاق فأنهم بدخولهم فى حريم معاهديكم يكونون مثلهم فى الحرمة .

و هكذا لا تقاتلوا الذين تجدونهم تضيق صدورهم من مقاتلتكم و يكرهون مبارزتكم كما يكرهون ان ينضّوا الى جبهتكم فى قتال قومهم فهم اناس يحبّون العافية من كل قبيل : ثم ابان سبحانه عن نقطة امتحانية فقال ولو شاء الله لسلّطهم عليكم امتحانا لكم هل يجدكم صابرين على الذلة فى سبيل الله و الأيمان به اولا صبر لكم : ثم عقّب ماسلف فقال فأن اعتزلوكم هوءلاء الذين حصرت صدورهم فلم يقاتلوكم و القوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا فى المقاتلة .

و جملة حصرت صدورهم حالية بمعنى جاؤكم و الحال ان صدورهم ضيّقة من مقاتلتكم و مقاتلة اقوامهم : و مفاد هذه الآيات: وهو ترك مناجزة من دخل فى عهد معاهديكم او أبدى السلم فليس عليكم ولا لكم مع بقائه على الشرك : منسوخ بقوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولاعهد الآ لكتابىّ يقوم بشرائط المعاهدة و الذمة .

* (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم كلّما ردّوا الى الفتنة أركسوا فيها فأن لم يعتزلوكم و يلقوا اليكم السلم و يكفّوا ايديهم فخذوهم و اقتلوهم حيث ثقفتموهم واولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) *

تفيد الآية ان هذا الفريق الذى تتحدث عنه غير ما سلف القول فيه فقد قيل فى مورد نزول هذه الآية ان عيينة بن حصن الفزارى اجدبت بلاده فجاء الى رسول الله و وادعه على ان يقيم ببطن نخل ولا يتعرض له وكان منافقا ملعونا وكان يسمّيه رسول الله الأحمق المطاع فى قومه .

و تعنى الآية انكم ايّها المسلمون وفى طليعتكم نبيّكم ستجدون من المنافقين اقواما يريدون أن يأمنوكم على انفسهم و اموالهم و لذلك يتظاهرون لكم بالاسلام كما يريدون أن يأمنوا قومهم المشركين و لهذا اذا ذهبوا اليهم اظهروا لهم الشرك و عملوا به من كل قلوبهم هؤلاء هم الذين كلّما ردّوا الى الفتنة و المراد بالفتنة الشرك لان الفتنة اختبار و كذلك الشرك و الاسلام كلاهما اختبار للأنسان اركسوا فيها بمعنى اعرقوا فيها الى جذورها فان لم يعتزلوا قومهم فى حربكم و لم يلقوا اليكم السلم بل تجاهروا لكم بالعداء و لم يكفّوا ايديهم عنكم فخذوهم بقواكم و اقتلوهم اينما وجدتموهم و اولئكم جعلنا لكم عليهم حجة واضحة بمواقفتهم لكم و قيامهم ضدّكم و السلطان ما يتسلط به الأنسان على خصمه و المبين هو الواضح .

* (و ما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا الاّ خطئا و من قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة و دية مسلّمة الى اهله الاّ أن يصّدّقوا فان كان من قوم عدّولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة و ان كان من قوم بينكم و بينهم ميثاق فدية مسلّمة الى اهله و تحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله و كان الله عليما حكيما) *

النفى فيما كان لمؤمن ان يقتل بمعنى النهى و التحريم اى لا يجوز للمؤمن ان يقتل انسانا مؤمنا و الأستثناء فى قوله الآخطئا منقطع وليس معناه انه يجوز قتله فى حال الخطأ فأنه لا تكليف مع النسيان و الغفلة و الخطأ فهو مسلوب من كلّ حكم تكليفى و ان ترتب عليه الحكم الوضعى وهو الحكم عليه بالدية و التكفير .

و الخطأ اسم مصدر من أخطأ و قياسه اخطاء كأكرم اكراما منصوب على الحالية بمعنى الآحال كونه مخطئا و التحرير هو الأعتاق للرق و الرقبة و ان كانت اسما خاصا لبعض الأعضاء من المملوك الا انّ الحياة بالنسبة الى البدن لما كانت تنعدم بانعدام هذا العضو اطلق اسم العضو على المجموع منه و من غيره من اعضاء الجسم تسمية للكل باسم جزئه و المؤمنة هى المسلمة فلا تجزى الرقبة الكافرة و الوصف بالأيمان مشعر بالبلوغ ولازمه ان لا يجزى تحرير غير البالغ الاّ ان المتولد بين مؤمنين او مؤمن و غير مؤمن لمّا كان ملحقا بهما او بالأشرف منهما وهو المؤمن يصدق عليه وصف الأيمان ولو تبعاً و على القاعدة يجوز اعتاقه

فى الكفارة .

و دية الخطأ كسائر الديات فيها تفاصيل محلّ ذكرها الفروع الفقهية وهى مأة من الأبل او الف دينار ذهب او عشرة آلاف درهم فضّة او ماعادل ذلك و تلزم عاقلة القاتل واهل المقتول يقتسمون الدية على ميزان الأرث الاّ ان يعفوا عنها فيسقطوا حقوقهم عن القاتل وعاقلته و هذا هو المعبّر عنه بقوله الاّ ان يصّدّقوا فجعل سبحانه العفو عنها بمنزلة التصدق بها من اهل المقتول على عاقلة القاتل .

و ملاك قتل الخطأ ان لا يكون للقاتل قصد للشخص المقتول ولا لقتله كأن يرمى طائرا و تصادف الرمية انسانا و قتل العمد هو أن يكون قاصدا للشخص نفسه بفعل قاتل كأن يرمى الأنسان مباشرة فيقتله و هناك قتل يقال له شبيه عمد وهو ان يكون الشخص مقصودا بالفعل و لكن الفعل ليس ممّا يقتل غالبا كأن يضربه بيده ضربة ضعيفة لاعلى مقتل فيموت المضروب .

ثم خرج سبحانه من عنوان قتل المؤمن خطئا الى عنوانين آخرين احدهما ان يقتل الانسان المؤمن مؤمنا لا يعرفه بالأيمان لكونه فى غمار الكفرة و هذا هو المعنىّ بقوله فان كان من قوم عدّ ولكم وهو مؤمن ففى هذا العنوان تسقط الدية وعلى القاتل الكفّارة .

و ثانيهما ان يقتل الانسان المؤمن معاهدا و معناه انه ليس بمؤمن و لكن بينه او بين قومه و بين المسلمين معاهدة وعقد ذمام فمثل هذا المقتول يودى و ديته يرثها اهله وعلى القاتل الكفّارة تحرير رقبة مؤمنة فان لم توجد الرقبة او لم يوجد ثمنها فصيام شهرين متتابعين و يتحقق التتابع بصيام شهر و شىء من الشهر الآخر ولو يوما واحدا فأن لم يستطع فأطعام ستين مسكينا ولم يذكر ذلك فى الكتاب لكن

السنّه صرّحت به و يفهم من الآية ان كفارة قتل الخطأ مرتبة لا مخيّرة ٠

و توبة مصدر منصوب على انه مفعول لأجله بمعنى انه انما يفعل ذلك من اعطاء الدية والتكفير تحصيلا للتوبة من الله عليه و كان اللّه عليما بفعل القاتل من كونه خطئا او عمدا او عليما بالأحكام اللازمة الترتب على موضوعاتها حكيما فى تقنين قوانينه ٠

و يقال فى خلاصة الآية ان المتصف بالأيمان لتحصنه بالدين و التقوى لا يرتكب كبيرة القتل من انسان مثله فأن كل واحد منهما يجلّ عن ذلك ويتنزه و ليس معنى ذلك ان غير المؤمن له ان يقتل المؤمن او غير المؤمن بل معناه انه لقلة دينه يتأتى منه ذلك و امّا قتل العمد فأحكامه تأتى ٠

* (و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنّم خالـــدا فيها و غضب اللّه عليه و لعنه و اعدّ له عذابـــا عظيمـــا) *

بيّنا فيما سبق ميزان العمد و هذه الآية تعرّضت لحكم قتل المؤمن عمدا ولا بد ان يؤخذ فيها قيد مع التوجه الى ايمانه و كون القتل عدوانا و القتل العمدىّ لا دية فيه بالأصالة و انّما فيه القود الاّ ان يتنازل ولىّ المقتول عن القصاص الى الدية او العفو و نصّت السنّة على انّ عليـــه كفارة الجمع و يظهر من الآية تخليده فى العذاب مطلقا و يشكل ذلـــك مع التوبة بل مع عدمها فان المستفاد من آية ان اللّه لا يغفر أن يشـــرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء ان التخليد فى العذاب حكم الملحـــد باللّه فقط و أنّ كل من دونه يجوز ان يقع مغفورا له من اللّه تعالى وعلى ذلك انعقدت الظاهرة الأسلامية و ان كان فى البين اقوال أخر لشتات فرق فى المسلمين الاّ انها ليست معيارا للدين بما هو و معنى لعنـــه طرده عن ساحة عزّه ٠

* (يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل اللّه
فتبيّنوا ولا تقولوا لم ألقى اليكم السلام لست
مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند اللّه
مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ اللّه عليكم
فتبيّنوا ان اللّه كان بما تعملون خبيرا) *

و فى هذه الآية الزم اللّه المؤمنين بالتثبّت و التأكد من حال أىّ انسان يقدمون عليه بالمبارزة و المناجزة و استحلال الدم و المال و انه لا يجوز لهم ان يبدروا الى مجهول الحال حتى تثبت هويته لديهم انه حربىّ او مؤمن او ذو ذمّة فقد جاء فى مورد نزول الآية ان اسامة بن زيد و اصحابه بعثهم النبىّ فى سرية فلقوا رجلا قد انحاز بغنم له الى جبل و كان قد أسلم فقال لهم السلام عليكم لا اله الاّ اللّه محمد رسول اللّه فبدر اليه اسامة فقتله و استاقوا غنمه و قيل فى موردها اشباه ذلك ٠

و مفاد الآية ايّها المؤمنون اذا سرتم فى الأرض لأىّ داع كان (وان كان المذكور فى الآية سبيل اللّه) وهو الجهاد الاّ ان خصوص المورد لا يخصّص فتبيّنوا من حال من تريدون أن تقدموا على دمه او ماله فاذا كان مؤمنا او صاحب عهد لم يجز لكم ان تزاحموه و لا تقولوا لمن تظاهر بالأيمان ان ايمانك قشرى تريد ان تحمى به نفسك فى هذه الفرصة السانحة لنا عليك تبتغون فى تكذيب دعواه عرض الحياة الدنيا وهو مامعه من مال بل يجب عليكم ان تماشوا ظاهرته و مهما كان واقعه فان رزق اللّه غير محدود بأموال هؤلاء المتظاهرين المشكوك واقعهم لديكم ٠

و قوله كذلك كنتم من قبل : يحتمل صورا من المعانى (اولاها)

ان هذه الاعمال التسرعية بل الوحشية كانت شيمتكم قبل الاسلام فكل قوّى منكم كان يقهر الضعيف لا لشيء سوى استغلاله و الاسلام جاء لمحاربة هذه الظاهرة المرذولة (ثانيها) انكم قبل الاسلام كنتم تتذرعون بما يؤمنّكم فتنتسبون لمن ترونهم اعزاء في ذلك المحيط حتى تحتفظوا بما لديكم او بأعماركم (ثالثها) انكم قبل انتشار الاسلام وعزّته كنتم تخفون ايمانكم في مظانّ الخوف من التجاهر به و تتجاهرون به في مظانّ قوّته و حكومته فلعلكم تواجهون من مشتبهي الحال من هو نظير لكم فيما سبق من ايامكم يتظاهر بالايمان في مقام الأمن و يخفيه في مقام خوف التظاهر به : و قوله فتبيّنوا الثانية تأكيد لتبيّنوا الأولى ان اللّه كان بما تعملون من خير و شر خبيرا مطلعا لا يشذّ عن علمه شيء من اعمالكم ولا من غيرها .

* (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر
و المجاهدون فى سبيل اللّه بأموالهم وانفسهم
فضّل اللّه المجاهدين بأموالهم و انفسهم على
القاعدين درجة و كلّا وعد اللّه الحسنى وفضّل
اللّه المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما
درجات منه و مغفرة و رحمة و كان اللّه غفورا رحيما

وجوب الجهاد بالأصل كفائىّ اذا قام به من به الكفاية لتحقيق هذا المقصود سقط عن الباقين و اذا اعرض الجميع عنه أثموا و القاعد عن الجهاد سنخان معذور وهو من يكون مريضا او مقعدا او اعمى و نظير ذلك من الأعذار المؤقتة او الثابتة و غير معذور امّا المعذور فالتكليف ساقط عنه بالمرّة و ليس محلّا له .

و امّا غير المعذور فيكون تارة غير مأثوم بقعوده فيما لو خرج من به الكفاية و اخرى يكون مأثوما وهو الذى لا تحصل الكفاية بدونه و لكنه يتخاذل وهذا المأثوم لا تتناوله الآية بلسانها الحاضر و يظهر منها قياسان بالنسبة الى القاعدة فتارة يفضّل المجاهد بماله و نفسه على القاعد درجة و تارة يفضل المجاهد بماله و نفسه على القاعد درجات ولا بدّ من توجيه هذين القياسين .

و لا اقرب من ان يقال ان الذى يفضّل بجهاده على القاعد درجة هو المجاهد فى مقابل القاعد من اولى الضرر فأن هذا القاعد لأجل ما فيه من موانع تقعد به عن انجاز همّته فى الجهاد لم يقعد الّا مقهورا ولولا موانعه لالتحق بأخوانه المجاهدين و مع ذلك فالذى خرج الى سوح القتال له تفوّق عليه لأنه باشر المشاقّ و القاعد لم يباشرها و ان

كان معذورا و الذى يفضل بجهاده على القاعد درجات هو المجاهد فى مقابل القاعد من غير اولى الضرر فان الفاصلة بينهما شاسعة كما هو ظاهر .

قوله وكلّا وعد الله الحسنى : معناه و كلّا من المجاهد و القاعد من اولى الضرر وعده بالحسنى و العاقبة المحمودة اذا كان واجدا للشرط وهو الطاعة لله فى تكاليفه .

و كل من انتصاب درجات و مغفرة و رحمة يكون على البدل من قوله اجرا عظيما و يجوز فى راء غير ـ اولى الضرر ـ التحريك بالكسر على الوصفية للمؤمنين و بالضم على الوصفية لقوله القاعدون و بالفتح على الاستثناء .

* (انّ الذين توّفاهم الملائكةّ ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن ارض اللّه واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم و ساءت مصيرا : الّا المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا : فاؤلئك عسى اللّه ان يعفو عنهم و كان اللّه عفوّا غفورا) *

توّفاهم اصلها تتوفاهم حذفت احدى التائين تخفيفا و ظالمى منصوبة على الحالية اى حال كونهم ظالمين لأنفسهم و ظلمهم لأنفسهم يكون بقدرتهم على الهجرة من بلاد الشرك التى تضايقهم على ظهورهم بفعل الواجب و ترك الحرام فلم يفعلوا و استقروا مع المشركين فى دار واحدة مغلوبين لهم ليس باستطاعتهم ان يؤدوا فرائض اللّه و ليس بمقدورهم أن يتجافوا عمّا عليه المشركون من طقوس عباديةّ ٠

ولا شكّ ان هذا ظلم للنفس المؤمنةّ و انما يكون ذلك عذرا مع عدم القدرة على الأنفصال و لهذا تقول الملائكةّ لهم عند محاسبتهم اىّ مؤمنين كنتم فى دار الدنيا وليس معكم من اعمالهم شيء فيقولون فى جوابهم نحن معذورون لأننا كنّا مستضعفين بالنسبةّ الى المشركين مغلوبين لقوّتهم مقهورين لقدرتهم تحت اكنافهم و فى وسط ديارهم فتقول لهم الملائكةّ ألم تكن ارض اللّه واسعةً فتهاجروا فيها من ديار الخوف الى ديار الأمن فهنا يسكت هؤلاء عن الجواب لأنهم يرون انفسهم محكومةً امام قول الملائكةّ ٠

ثم حكم سبحانه على امثال هؤلاء بأنّ مآلهم ومأواهم جهنّم وليست

جهنّم بمصير يرتضى لسوئه ثم استثنى من جملة اولئك الذين مأواهم جهنم المستضعفين الواقعين من الرجال و النساء و الغلمان الذين لم يشتدّ اسرهم حيث يفقدون الحيلة و الوسيلة فى الانتقال من ديارهم الى ديار غيرها كما عبّر سبحانه بقوله لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فاؤلئك عسى الله ان يعفو عنهم و كان الله عفوّا غفورا : وقد يتصور هنا اشكالان :

(الأول) ان الولدان ليسوا بمكلّفين لعدم بلوغهم فكيف ذكروا فى مصاف البالغين ٠

(والثانى) انه مع عدم استطاعة الجيلة و الوسيلة كيف يقول سبحانه عسى الله أن يعفو عنهم فأنه لا مجال لكلمة عسى بل هم معفوّ عنهم باليقين و الجواب عنهما معا واحد وهو التأكد فى وجوب الهجرة من ديار الشرك الى دار الأيمان حتى كأنّ غير المكلّف بذلك يعتبر شبيه مكلف تحوم عليه شبهة الأثم فى البقاء ٠

* (و من يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما
كثيرا وسعة و من يخرج من بيته مهاجرا الى
الله و رسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على
الله و كان الله غفورا رحيما) *

الرغام هو الأرض و منه استحباب ارغام الأنف حال السجود اى الصاقه بها فالمراد بالمراغم هنا المكان و المذهب يعنى يجد فى الأرض امكنة كثيرة و مذاهب متسعة و مضطربا غير محدود و الهدف من الآية تسهيل الهجرة على اولئك العقيمين فى دار الشرك المزاحمين على دينهم و انفسهم من جانب المشركين و ان من يخرج من دارالشرك قاصدا بخروجه رضاء الله عنه و اقامة شعائره علنا يجد فى الأرض متسعا فان النقاط التى يعبد فيها الله وفيرة فأىّ مكان اختاره من هذه الأماكن ساغ له و حسب مهاجرا ٠

فلو انّ مكلفا خرج من بيته مهاجرا الى الله و رسوله ثم مات فى خروجه امّا بلا سبب او بسبب حسب مهاجرا و كتب له ما للمهاجرين من الأجر و كان الله غفورا له عمّا سلف منه رحيما له ٠

اثر عن ابن عباس انه قال خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجرا فقال لقومه احملونى فأخرجونى من ارض الشرك الى رسول الله(ص) فمات قبل ان يصل الى النبىّ فنزل فيه و من يخرج من بيته مهاجرا ـ الخ ـ

* (و اذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جنـاح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذيـــن كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدّوا مبينا) *

الضرب فى الأرض هو السير فيها و الجناح هو الأثم و قصر الصلاة الحذف منها و الفتنة كلّما يدخل على الانسان لأجل اختباره وهى هنـا الأذية وغير الملائم و هذه الآية تحتمل وجهين من المعنى .

(الأول) ان السفر يبيح قصر الصلاة و الحذف من طولهـــــا فالرباعية مثلا تكون ثنائية و اطلاق السفر يشمل ما كان مسافة شرعيـــة ثمانية فراسخ ولو ملفقة و مالم يكن و سلب الجناح معناه اباحة القصـــر لا الألزام به و الحال ان السنة و بخاصة عند الأمامية الزمت به بشرائـط خاصة : و القصر فى الآية لا يفهم منه حدّ خاص فى الحذف فلا يـدرى كم يحذف المسافر من صلاته اذا صلّى و السنّة شخصّت ذلك فـــى الرباعيات خاصة و ان المحذوف منها نصفها فيسلّم المسافر على ركعتين امّا الثلاثية وهى صلاة المغرب و الثنائية كصلاة الصبح فلا حذف فيهما .

و قيد ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ليس معناه ان قصر الصلاة فى السفر يجب ان يكون مع الخوف من العدّو و بدونه لا يباح القصر من الصلاة فان صلاة الخوف لها حكم آخر و صلاة المسافر بما هى صـــلاة مسافر موضوع برأسه بل معناه أن الأسفار فى الازمنة المعاصرة للقـــرآن كلّها كانت ذات خوف لشيوع الغارات و كثرة اللصوص و قطّاع الطـــرق و المنتهزين لضعف المسافر فالقيد سيق مساق الغالب فليست فيه شرطية.

(الثانى) ان الآية تشير الى صلاة الخوف فقط ولا ربط لهـــــا بالمسافر بما هو مسافر و باعتبار ان الأنسان فى قرارة بيته آمن فـــى

الغالب عبّر تعالى فى الآية بقوله و اذا ضربتم فى الأرض فلا يكون الخوف الاّ فى الخروج عن المواطن فاذا حصل الخوف للانسان من عدوّ يريده او قاطع طريق و نحو ذلك جاز له قصر الصلاة فتكون الآية بيانا لصلاة الخوف بما هى صلاة خوف غير مراعى فيها الأنفراد و الجماعة و تكون الآية اللاحقة مبيّنة لصلاة الخوف جماعة .

* (و اذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك و ليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم و لتأت طائفة اخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك و ليأخذوا حذرهم و اسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم و امتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر اوكنتم مرضى أن تضعوا اسلحتكم و خذوا حذركم ان الله اعدّ للكافرين عذابا مهينا) *

الخطاب فى قوله و اذا كنت فيهم للنبىّ (ص) يعنى اذا كنت فى جملة هؤلاء الضاربين فى الأرض الخائفين من فتنة الذين كفروا وحان وقت الصلاة فأقمت لهم الصلاة جماعة فلينقسم من معك طائفتين طائفة تقوم تجاه العدّو راصدة لمقاصده و طائفة تأتّم بك : وحتى هؤلاء المأمومون يأخذون معهم اسلحتهم حال الصلاة حذرا من ان يهاجموا و لا تستطيع الطائفة القائمة تجاه العدّوان تردّ كيده بمجردها فاذا فرغوا من سجود ركعتهم الثانية و تشهّدوا و سلّموا فليقوموا الى مراكز اخوانهم الذين كانوا راصدين لعدّوهم و لتأت الطائفة التى لم تصلّ

فليقتدوا بك و ليصلّوا معك تمام صلاتهم و ليأخذوا حذرهم كما كانت الطائفة الأولى كذلك و ليحملوا معهم اسلحتهم كسلفهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون انتم المصلّى منكم و الراصد لهم عن اسلحتكم و امتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدةً ليكتسحوكم و صورة هذه الصلاة ان الأمام يكبّر تكبيرة الأحرام بالطائفة الأولى فتصلّى معه بنيةِ الجماعة ركعةً واحدةً ثم ينفردون عنه فى الثانية فيأتون بها لأنفسهم و الأمام يطيل فى ركعته الثانية حتّى تتمّ الطائفة الأولى صلاتها وتأتى الثانية فتأتم به وهو فى ركعته الثانية فاذا اتمّ سجود ركعته هذه قام المأمومون الى ركعتهم الثانية فأتموّها و امامهم يطيل تشهده حتى يلحقوا به فيسلّم بهم ٠

ثم ابان لهم سبحانه انه لاحرج ولا تكليف عليكم بأخذ السلاح ان كان بكم اذى من مطر بأن صادف ان السماء تمطر و انتم مضايقون بأداء الصلاة و حمل السلاح يحرجكم مع هطول المطر عليكم او كنتم مرضى يوهن بكم ثقل السلاح أن تضعوا اسلحتكم لكن مع اخذكم للحذر بأن تكونوا راصدين لمقاصد اعدائكم و سلاحكم بالقرب منكم انّ اللّه اعدّ للكافرين جزاء كفرهم و خبث ضمائرهم عذابا اليما ٠

و جاء فى الأثر ان هذه الآيه نزلت و النبىّ بعسفان و المشركون بضجنان فتواقفوا فصلّى النبىّ (ص) و اصحابه صلاةَ الظهر بتمام الركوع و السجود فهمّ المشركون بأن يغيروا عليهم فقال بعضهم ان لهم صلاةً اخرى احبّ اليهم من هذه يعنون صلاةَ العصر فأنزل اللّه عليه هذه الآيةَ فصلّى بهم العصر صلاةَ الخوف ٠

* (فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما و قعودا
وعلى جنوبكم فأذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ان
الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) *

ظاهر الآية يفيد هذا المعنى و هو انّكم ايّها الضاربون في الأرض الخائفون من الذين كفروا اذا قضيتم صلاة الخوف فاستمرّوا على ذكر الله في حالات قيامكم و قعودكم و اضطجاعكم على جنوبكم لينصركم على اعدائكم و يحفظكم من كيدهم فاذا زال عنكم الخوف و امنتم فأقيموا صلواتكم على الحالة المعتادة بلا أن يكون فيها قصر و واظبوا على صلاتكم في كافة الحالات ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا له حدود و آجال معيّنة فأقيموها عند حدودها .

* (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون
فأنهم يألمون كما تألمون و ترجون من اللّه
مالا يرجون و كان اللّه عليما حكيما) *

فى هذه الآية حثّ على مكافحة العدوّ الكافر و مقاومته مفادها ان تواتر الحروب عليكم و مديد وقفاتكم مع الخصوم الألدّاء لا يضعفكم فأنكم ان تجدوا من ذلك الما و مشقّة فان خصمكم مثلكم يجد الما ومشقّة و هناك داع قوىّ يحفزبكم الى الاستمرار و تحمّل المشاق ليس موجودا عندهم فانكم لاعتقادكم باللّه و المعاد عليه ترجون منه الأجر الجزيل و الثواب الوفير امّا هم فلألحادهم بعالم الغيب و ما وراء الطبيعة لا رجاء لهم بمثل ذلك فقط انما يرومون فى كفاحكم شهرة الدنيا متى انتصروا عليكم امّا انتم ففضلا عن تحصيلكم لمزية الأنتصار متى ثبتّم لهم ترجون نشأة اخرى فيها من البقاء ماليس فى الدنيا و من النعيم مالا تعرفه الدنيا ايضا و كان اللّه عليما بالمصالح حكيما فى تثبيتها .

* (انّا انزلنا اليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين
الناس بما اراك اللّه و لا تكن للخائنين خصيما :
و استغفر اللّه ان اللّه كان غفورا رحيما) *

لهذه الآية ومابعدها شأن نزول نذكره اولا ليكون رصيدا للكلام على هذه الآية و مابعدها فقد اخرج جماعة من المحدثين عن قتادة بن النعمان و كان قتادة بدريا قال كان اهل بيت منّا يقال لهم بنو أبيرق بشر و بشير و مبشر و كان بشير رجلا منافقا يقول الشعر يهجو به اصحاب رسول اللّه (ص) ثم ينحله بعض العرب فاذا سمع اصحاب رسول اللّه ذلك الشعر قالوا و اللّه مايقول هذا الشعر الاّ هذا الخبيث فقال بشر

او كلّما قال الرجال قصيدة أثموا فقالوا ابن الأبيرق قالها

قال و كانوا اهل بيت حاجة فى الاسلام فنقب بشير على علّية رفاعة ابن زيد عمّى و اخذ له طعاما و سيفا و درعا فشكا الىّ ذلك عمّى فتجسسنا فى الدار و سألنا اهلها عن ذلك فقال بنوأبيرق و اللّه ما صاحبكم الاّ لبيد بن سهل رجل منّا له صلاح و اسلام فلمّا سمع ذلك لبيد اخترط سيفه و اتى بنى أبيرق و قال انا اسرق فواللّه ليخالطنّكم هذا السيف او لتبيننّ هذه السرقة قالوا اليك عنّا ايّها الرجل فواللّه ما انت بصاحبها فسألنا فى الدار حتى لم نشك انهم اصحابها فقال لى عمّى يا ابن اخى لو اتيت رسول اللّه فذكرت له ذلك قال قتادة فأتيت رسول اللّه فقلت ان اهل بيت منّا اهل جفاء عمدوا الى عمّى رفاعة بن زيد فنقبوا علّية له و اخذوا سلاحه و طعامه فليردّوا علينا سلاحنا و امّا الطعام فلا حاجة لنا فيه فقال رسول اللّه سأنظر فى ذلك ٠

فلما سمع بنو ابيرق ذلك اتوا رجلا منهم يقال له اسيد بن عروة

فكلموه فى ذلك فجمع اليه ناسا من اهل الدار فأتوا رسول الله فقالوا ان قتادة بن النعمان وعمّه عمدوا الى اهل بيت منّا اهل اسلام وصلاح و رموهم بالسرقة من غير بيّنة و لا ثبت قال قتادة فأتيت رسول الله فكلمته فقال عمدت الى اهل بيت ذكر لهم اسلام و صلاح و رميتهم بالسرقة على غير بيّنة و لا ثبت قال قتادة ياليتنى متّ و لم اكن كلمت رسول الله فأتانى عمّى رفاعة فقال لى يا ابن اخى ماصنعت فأخبرته بما قال لى رسول الله فقال الله هو المستعان ·

فلم نلبث حتى نزل القرآن (الآية المصدّر بها البحث) فبلغ بشيرا ما نزل فيه من القرآن فهرب الى مكة و ارتدّ كافرا و نزل على سلافة بنت سعد و كانت امرءة من الأوس نكحت فى بنى عبد الدار فهجاها حسّان بقوله :

فقد انزلته بنت سعد و اصبحت ينازعها جلد استها وتنازعه
ظننتم بأن يخفى الذى قد صنعتم وفينا نبىّ عنده الوحى واضعه

فحملت سلافة رحله على رأسها و ألقته بالأبطح و قالت ماكنت تأتينى بخير أهديت الىّ شعر حسّان ·

و قيل ان بنى أبيرق طرحوا ذلك على يهودّى فجاء اليهودى الى رسول الله و جاء بنو أبيرق اليه و كلّموه ان يجادل عنهم فهمّ رسول الله أن يفعل و ان يعاقب اليهودى فنزلت الآية ·

و قيل نزلت فى رجل من الأنصار استودع درعا فجحد صاحبها فخوّنه رجال من اصحاب النبىّ(ص) فغضب له قومه فقالوا يانبىّ اللّه خوّن صاحبنا وهو مسلم أمين فعذره النبىّ وهو يرى انه برىء مكذوب عليه فأنزل الله الآية ·

و مفادها انّا انزلنا اليك الكتاب وهو القرآن بالحقّ يعنى بما هو

ثابت فى صفحة الواقع لا شكّ فيه ولا شبهة تعتريه و الغاية من انزال الكتاب اليك بالحقّ هو ان تحكم بين الناس فى خصومة و غيرها بما اراك الله واوقفك عليه من الحكم حتى تكون احكامك مسدّدة و قضاؤك لا تموج فيه ولا تكن للخائنين اى من اجلهم خصيما تدافع عنهم و تنزّه ساحتهم و حاشا النبىّ من ذلك فأنه (ص) ان كلّم قتادة بقوله عمدت الى اهل بيت لهم اسلام و صلاح ترميهم بالقبيح من غير بيّنة و لا ثبت فلفقدان قتادة للبيّنة و لتزكية بنى أبيرق من ناحية مسلمين كثيرين فالنبىّ عمل على مايوحى به الظاهر وهو الميزان فى القضاء : وقوله تعالى و استغفر الله ليس معناه انه كان مذنبا ليدفع بالاستغفار دنبه بل لدفع مخالفة الواقع الذى لم يكن مكلفا به قبل ارائته ان الله كان لسيئآت عباده الصادرة عنهم لاعن تعمّد و التى تعقبتها التوبة رحيما بهم يريد لهم السعادة و لا يحاول لهم الشقاء .

* (و لاتجادل عن الذين يختانون انفسهم ان الله لا يحبّ من كان خوّانا اثيما : يستخفون مـــن الناس و لا يستخفون من الله وهو معهـــم اذ يبيّتون مالا يرضى من القول و كان الله بمـــا يعملون محيطا : ها انتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يـــوم القيامة أم من يكون عليهم و كيلا) *

هذه الآيات كلّها مربوطة بالقصص السابقة فى اصل نزولها ولكـــن موردها لا يخصّصها بذلك بل عناوينها العامة تمشى مع كل مورد يكـــون بملاك ذلك : و المجادلة هى المناظرة و ابداء الحجج لأجل تثبيـــت مطلوب ما تركز فى نظر المجادل كونه حقّا يعنى و لا تدافع عن الذيـــن يختانون انفسهم فى واقع الأمر و يتظاهرون بمظاهر الأمين العفيـــف و طبعا انما يكون للنهى محلّ فيما لو كان المدافع واقفا على حقّ القضية و لبّها لا اذا كان على رسله من صحة الظواهر وامانتها و الخـــوّان مبالغة فى الخيانه امّا لتكرّرها منه او لصدور خيانة عظيمة عنه فالمبالغـــة كما تصّح فى مقام التكرار تصّح فى مقام اشتداد الأمر وضخامته و الأثيـــم مرتكب الأثم و فاعله ٠

يستخفون ـ اى هؤلاء الذين يختانون انفسهم فى الواقع ـ مـــن الناس ملاحظة على شرفهم بينهم و لا يستخفون من الله فى حيـــن انّ الله معهم تجاهروا بالشيء ام اخفوه وهو اقدر على انزال العقوبة بـــهم من الناس لقصورهم فى الأعم الأغلب عن ذلك وعدم قصوره هو تعالـــى اذ لا محدّد لقدرته ٠

اذ يبيّتون اى يجتمعون فى الليل فيما بينهم و يتعاقدون على ما يحاولون اظهاره او اخفائه : مالا يرضى من القول كاتهام بنى أبيرق للبيد بن سهل او كاتهامهم لليهودى : و كان الله بما يعملون فى الخفاء محيطا واقفا عليه اذلا تخفى عليه خافية : ها انتم هؤلاء جادلتم عنهم ها للتنبيه و انتم خطاب للذين جادلوا عن بنى أبيرق من قراباتهم و محبيهم فى الحياة الدنيا لتحفظوا شرفهم بين الناس فهل تستطيعون أن تجادلوا عنهم الله العالم بخفايا الأمور يوم القيامة فتدفعوا عنهم العذاب ام من يكون عليهم و كيلا يتصدّى للذب عنهم و تبرءة ساحتهم و الاستفهام فى كلا مقاميه فمن يجادل ام من يكون عليهم و كيلا للأنكار ٠

* (و من يعمل سوء او يظلم نفسه ثم يستغفر اللّـه يجد اللّه غفورا رحيما : و من يكسب اثما فأنّما يكسبه على نفسه و كان اللّه عليما حكيما : و من يكسب خطيئة او اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا و اثما مبينا) *

هذه الآيات مصدر سياقها ما سبق من القصة و ملاكها اشمل من ذلك و مفادها ان كلّ مكلّف يعمل سوء بمعنى ما يستاء له وهو الفعل القبيح يسوء الغير او يظلم نفسه بأن لا يصلى او لا يصوم او لايهاجر من بلاد الشرك الى بلاد الاسلام ثم يتراجع و يتوب و يستغفر اللّه يجد اللّه غفورا له رحيما به اى يجرّ اثما وهو الجرم و الذنب فأنما يجرّه على نفسه فأن ضمان الجرم على فاعله و كان اللّه عليما بما يصلحكم و لذلك يأمركم به و بما يضركم و لذلك ينهاكم عنه حكيما فى تقرير احكامه و من يرتكب خطيئة اصلها من الخطأ ضد الصواب لا من الخطأ بمعنى الجهل وعدم العمد او اثما و الخطيئة و الأثم بالمعنى اللغوى العام واحد و انما جئ بهما متعددين للتفنن فى التعبير ثم يرم به بريئا لم يرتكب جرما نظير بنى أبيرق الذين سرقوا و وجّهوا السرقة الى لبيد بن سهل او الى اليهودى على القول الآخر فقد احتمل بهتانا وهو الكذب مع المواجهة ولا شكّ ان ذلك اثم واضح .

* (و لولا فضل الله عليك و رحمته لهمّت طائفة منهم
أن يضلّوك و ما يضلّون الاّ انفسهم و ما يضرّونك
من شيء و انزل الله عليك الكتاب و الحكمة و
علّمك ما لم تكن تعلم و كان فضل الله عليك عظيما) *

معنى ذلك لولا أنّ الله اوقفك على واقع قضية بنى أبيرق و بيّن لك انّهم هم اللصوص لا لبيد بن سهل و لا اليهوديّ لهمّت طائفة منهم اى من المسلمين بحسب ما يظهر عليهم أن يضلّوك عن الواقع و يبرّؤا ساحة بنى أبيرق و يبطلوا على رفاعة بن زيد حقّه و ما يضلّون فى الحقيقة الاّ انفسهم لأنهم بتعمية المطلب فى الظاهر لا يستطيعون ان يعمّوه على الله سبحانه و ما يضرّونك لو برّأت ساحة بنى أبيرق لانك حاكم بالظاهر الذى هو وظيفة القضاة و لست مكلفا بالواقع قبل ابانته لك و لكنّ الله انزل عليك الوحى و الحكمة وهى الوقوف على قرار الشيء وعلّمك من الواقع مالم تكن تعلمه و كان فضل الله عليك بتسديدك و تأييد خطاك عظيما ٠

* (لا خير فى كثير من نجواهم الاّ من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس و من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللّه فسوف نؤتيه اجرا عظيما) *

ابان سبحانه ان التناجى و جلسات السّر لاخير فيها اذا لم يتعاط المتناجون فيها امور الخير بأن يشير بعضهم على بعض بالصدقة و قضاء حاجات المضطرين و تنفيس كربات المكروبين و سائر فعل المعروف من تنديم بعض على مشاقّته لآخر و مقاطعة بعض لبعض فان من يفعل فى تناجيه شيئا من ذلك طلبا لرضوان اللّه فان اللّه لا ينسى له اجره : و جاء فى الأثر مرفوعا الى امير المؤمنين عليه السلام انه قال انّ اللّه فرض عليكم زكوة جاهكم كما فرض عليكم زكوة ما ملكت ايديكم .

* (و من يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن لــــه
الهدى و يتبّع غير سبيل المؤمنين نوّله ما تولّى
و نصله جهنّم و ساءت مصيرا) *

المشاقّة وقوع كل من الطرفين او الأطراف فى شقّ غير الآخر و لازم ذلك العداء و البغض و مشاقة الرسول معناها الأنتباذ عنه و المجافاة له قيل نزلت الآية فى ذلك الأبيرقى الذى هرب الى مكة بعد ما ثبتت عليه السرقة فأنه كفر و ارتدّ و لحق بالمشركين ثم نقب حائطا فوقع عليه الحائط فقتله و بيان الهدى اتضاح نبوة نبى الاسلام له و سبيل المؤمنين هو الدين الذى تلقّوه جيلا بعد جيل عن مصدر التشريع فالاستدلال بذلك على ان اجماع الأمة حجة ليس بصحيح على اطلاقه و الصحيح منه ما كان متواصلا يدا بيد حتّى يتصل بالحجة و الاّ فصرف اجتماعهم بما هو لا قيمة له و معنى نوّله ما تولّى نكله الى ما اختار لنفسه وعاقبته اتصاله و ملازمته لجهنّم و بئس المصير جهنّم ٠

* (انّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون
ذلك لمن يشاء و من يشرك بالله فقد ضلّ
ضلالا بعيدا) *

تقدّمت هذه الآية وجيء بمكرّرها للتأكيد من مفادها وجاء في سبب نزولها عن بعض الآثار أن شيخا من الأعراب جاء الى رسول الله (ص) فقال يارسول الله انى شيخ منهمك في الذنوب والخطايا الاّ انّى لم أشرك بالله شيئا مذ عرفته و آمنت به و لم اتخذ من دونه وليّا و لم أوقع المعاصي جرءة على الله ولا مكابرة له و انى لنادم وتائب و مستغفر فما حالى عند الله فأنزلت هذه الآية و الضلال البعيد هو الذى يتلف معه صاحبه ٠

* (ان يدعون من دونه الاّ اناثا و ان يدعون الا شيطانا مريدا : لعنه الله و قال لأتخذنّ من عبادك نصيبا مفروضا : ولأضلنّهم ولأمنّينهم ولآمرنّهم فليبتكنّ آذان الأنعام و لآمرنّهم فليغيّرن خلق الله و من يتخذ الشيطان وليّا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا : يعدهم و يمنّيهم و ما يعدهم الشيطان الاّ غرورا : اولئك مأواهم جهنّم و لا يجدون عنها محيصا) *

ان فى قوله ان يدعون نافية بمعنى ما يعنى ان المشركين لايدعون من دون الله خالق الكائنات صانع الكون الاّ او ثانا مؤنثة و تأنيثها باعتبار اساميها كاللاّت و العزّى و مناة و اساف و نائلة و فى الحقيقة انما يدعون من دون الله من أغواهم و سوّل لهم و هو الشيطان المتمرد على ربّه المطرود عن ساحة عزّه منذ ابى السجود لآدم وعصى امر الله فيه و قد كان الشيطان قال لله متوعدا لأتخذنّ من عبادك اى ممّن خلقت من ذرارى آدم سهما اغويهم و أضلّهم و يتابعوننى على اغوائى لهم و اضلالى ايّاهم و المفروض هنا هو المحقق الثابت : ولأضلنّهم اى عن طريق الحقّ ولأغرنّهم بالأمانى ولأسولنّ لهم ماينحرفون معه ولآمرنّهم بأطاعة الأوثان ولأزيننّها فى اعينهم حتى اجعلهم ينحرفون لها و يذبحون و يسمون لها من انعامهم بقطع آذانها فانّ البتك هو القطع ولأدعونّهم الى تغيير خلقة الله وهو تغيير مجارى الفطرة الى ماينافضها و يضادها و من جملة ذلك ان يتشبه الذكور بالأناث و الاناث بالذكور . و كل تحريف عن مجارى الخلقة بحسب مافطر عليه المخلوق فهو

تغيير لخلقة الله ثم قال سبحانه و من يتخذ الشيطان وليّا من دون الله الذى خلقه و رزقه و هداه فقد خسر خسرانا مبينا لأنه اعراض عن جانب المنعم الى جهة عدوّه مضافا الى انّ الله يعد بالصدق و الحقّ و الشيطان يعد ويمّنى بالأباطيل و ما يوجب الأرتكاس فى الذنوب و البوار فاؤلئك الذين يترسمون خطوات الشيطان و ينجرفون معه الى كل مباءة مهلكة لا مأوى ولا مصير لهم الآ جهنّم لأنّها دار المنحرفين و لا يجدون عن هذا المصير مخلصا يلتجأون اليه ٠

* (و الذين آمنوا و عملوا الصالحات سندخلهم
جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها
أبدا وعد الله حقّا و من اصدق من الله قيلا) *

هذه الآيه تقابل ما سبقها و السابق وعيد و هذا وعد فقال سبحانه و الذين زرعوا فى قلوبهم بذرة الأيمان حتى تمكنت منها ثم دعاهم ايمانهم الى العمل الصالح المرغوب لله و لعباده المؤمنين فاؤلئك سنجازيهم بأقصى ما يمكن مجازاة الأنسان بالراحة و النعمة وطرد كل مزاحم و جلب كل نافع فى ظرف الخلود الأبدى و وعد مصدر منصوب على البدلية من فعله كأنه قال وعد الله بذلك وعدا حقّا و حقّا منصوب على المصدرية ايضا باعتباره مؤكدا لوعد لان وعد الله لاكسائر الوعود ممّا يتّهم بعدم التحقق بل هو ثابت و الحقّ معناه هو الثابت و من اصدق من الله فى قوله ــ ليس هناك احد ــ الآ المتخلق بأخلاقه المتجافى عن استدعاآت منافعه المادّية ٠

* (ليس بأمانيّكم ولا امانىّ اهل الكتاب من
يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دون الله وليّا
ولا نصيرا : و من يعمل من الصالحات من ذكر
او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة
ولا يظلمون نقيرا) *

الأمانى هى احاديث النفس و تسويلاتها و الخطاب للمسلمين و مفاده انه لا يجوز لكم أن تغترّوا بأسلامكم فتقولوا منّا خاتم النبيين و نحن آخر الأمم و كتابنا القرآن يقضى على ماسواه من كتب السماء كمالا يجوز لأهل الكتاب ان يدّلوا بأنّهم أسباط الأنبياء بل المعيار فى شرفكم و شرفهم و انحطاطكم و انحطاطهم عند الله هو العمل فمن يعمل سوء يجز به ولا ينفعه كونه مسلما او كونه سبط نبىّ ولا يجد له من دون الله وليّا يحميه على الله او نصيرا ينصره عليه تعالى و من يعمل من الصالحات ذكرا كان ام انثى بشرط ان يكون رصيد عمله الأيمان بالله و بما اوجب الايمان به فاؤلئك جزائهم دخول الجنّة و استقرارهم فيها ولا يظلمون ممّا عملوا من الصالحات اقلّ مايتصور فى القلّة و قيل ان النقير النكتة الصغيرة فى ظهر النواة و الهدف من التعبير به الكناية عن القلّة .

* (و من احسن د ينا ممّن اسلم وجهه للّه وهـــو محسن و اتبع ملّة ابراهيم حنيفا واتخذ اللّـــه ابراهيم خليلا : و للّه ما فى السموات و ما فـى الأرض و كان اللّه بكل شىء محيطا) *

ثم اعطانا فى هذه الآية ملاكا للايمان الصحيح فقال و من احسن د ينا ممّن اسلم و جهه للّه اى اعطى كلّ وجوده للّه سبحانه فكان قياده تكليفا و تكوينا بيد اللّه هذا من وجهة العقيدة و امّا من وجهة العمل فكان محسنا يفعل كل فعل حسن كان بمقدوره و جعل برامجه للفعل العبادى دين ابراهيم الذى صدع به محمّد و تممّه مائلا عن كل باطل زامّا بنفسه عن كلّ انحراف ثم اراد ان يبيّن و يعرّف ابراهيم لمن لا يعرفه فقال و اتخذ اللّه ابراهيم خليلا له .

و لازم هذه المخالّة كون ابراهيم متخلقا بأخلاق اللّه : وجاء فى سبب اتصاف ابراهيم بالخلّة مع ان كل نبىّ للّه خليل له ان ابراهيم كان يضيف الناس و يطعم المساكين و ان الناس اصابهم جدب فارتحل ابراهيم الى خليل له بمصر يلتمس منه طعاما لأهله فلم يصب ذلك عنده فلما قرب من اهله و كان بمفازة ذات رمل لينّة ملأغرائره من ذلك الرمل لئلا يغمّ اهله برجوعه اليهم من غير ميره فحوّل اللّه مافى غرائره دقيقا فلمّا وصل الى اهله دخل البيت و نام استحياء منهم ففتحوا الغرائر و عجنوا من الدقيق و خبزوا وقدّموا اليه طعاما طيبا فسألهم من اين خبزتم قالوا من الدقيق الذى جئت به من عند خليلك المصرى فقال امّا انه من خليلى و ليس بمصرىّ فسمّاه اللّه خليلا .

و للّه مافى السموات و مافى الأرض من كل ماهبّ و دبّ و ركد وكان

الله بكل شيء من اشياء الكون محيطا لانه خلقه و دبّره ولانه مجرّد لا تحجبه مادة عن مادة ٠

* (و يستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهنّ و ما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهنّ و ترغبون ان تنكحوهنّ و المستضعفين من الولدان و أن تقوموا لليتامى بالقسط و ماتفعلوا من خير فانّ الله كان به عليما) *

كاف الخطاب للنبيّ وقوله فى النساء لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره فى شأن النساء و ما يخصهنّ من الأرث وعدمه و جواز اكل مهورهنّ وعدمه و منعهنّ عن الزواج وعدمه وما الى ذلك ممّا له حكم فى الشريعة ٠

قل الله يفتيكم فيهنّ اى يبيّن لكم الفتوى اللازمة فى حقهنّ فجملة الله يفتيكم فيهنّ جملة ابتدائية و ما فى قوله و مايتلى عليكم موصولة بمعنى الذى و يتلى عليكم فى الكتاب صلته و خبره محذوف مدلول عليه بما سبق اى و الذى يتلى عليكم فى الكتاب يفتيكم به ايضا ٠

و المراد بالذى يتلى فى الكتاب شتات الموضوعات التى قدّر الله السؤال عنها بمثل قوله يسألونك او يستفتونك و قوله فى يتامى النساء يجوز ان يكون من باب اضافة الصفة الى الموصوف بمعنى النساء اليتامى كما يجوز ان يكون بمعنى الأولاد اليتامى للنساء و يجوز ان يراد بقوله لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ انكم لا تؤتونهن ميراثهنّ لان الجاهلية ما كانت تورّث امرءة كما لا تورّث من لا يحمل السلاح وليست فيه صلاحية الكفاح

لصغره .

او انكم لا تؤتونهنّ ما يستحققن من مهور امثالهن لأنهنّ يتامى تحت كنفكم و قوله و ترغبون ان تنكحوهنّ يجوز فيه معنيان ايضا معنى و ترغبون فى نكاحهن و معنى و ترغبون عن نكاحهنّ و المعنى الأول لازمه انه لا يجوز لكم ان تستبيحوهنّ بالصداق القليل اتكالا على كفالتكم لهن وعلى يتمهنّ وهنّ لو خيرتموهنّ لما رضين بذلك و المعنى الثانى لازمه انه لا يجوز لكم منعهنّ عن النكاح لتحبسوهنّ حتى يمتن فتأخذوا ما ورثن عن اهلهنّ .

و المنظور بالمستضعفين من الولدان الاولاد الضعاف عن حمل السلاح و مقاومة الكفاح و معناه انه يجب عليكم ان تعطوهم ميراثهم ولا يجوز لكم ان تستضعفوهم فتحتقروهم ولا تؤدّوا اليهم حقّهم و المراد بقوله و أن تقوموا لليتامى بالقسط انه يجب عليكم ان تحفظوهم و تقوموا على اموالهم قيام انسان امين على ما تحت يده .

و اجوبة هذه الأسئلة حسبما اشرنا اليه تقدمت فى شتات الآيات السالفات من وجوب ايتاء الجميع حقوقهم من الأرث و انه لا يجوز نكاح اليتيمات بدون مهور امثالهن اذا لم يرضين بالأدون و انّه لا يجوز منع اية امرءة عن النكاح و لا قسرها على التزوج بها و ان الولدان مستضعفين كانوا ام لا يجب ايتاؤهم حقّهم من الأرث و ان حفظ مال اليتيم واجب و اكله بغير حق ظلم .

ثم عقّب ذلك بقوله وما تفعلوا من خير يرضاه الله و ان كان من زمرة التكاليف الواجبة عليكم فأنّ الله كان به عليما و عليه بالجزاء الحسن مكافئا .

* (و ان امرءة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا و الصلح خير و أحضرت الأنفس الشحّ وان تحسنوا و تتقوّا فأن اللّه كان بما تعملون خبيرا) *

النشوز فى الزوج او الزوجة الأرتفاع عن الطاعة و عن القيام بالواجب الزوجى و الأعراض هو عدم التوجه و قرء يصّالحا بتشديد الصاد على ان يكون اصله يتصالحا و مصدره التفاعل و يكون قوله صلحا اسم مصدر على كلا القراءتين فان مصدر اصلح هو الأفعال مثل اكرم اكراما و الشحّ هو الحرص .

بيّن اللّه آنفا حكم نشوز الزوجة و الآية الفعلية تعرضت لحكم نشوز الزوج وهو ارتفاعه عن حقوق الزوجة كلّها او بعضها بأن لا يقاربها او لا يقسم لها ليلة كما ورد فى مورد نزولها ان بنت محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج و كانت قد اسنت و كانت عنده امرءة شابّة سواها فأراد تطليقها و خيّرها ان هى احبّت البقاء ان لا تريد منه ما يقسمه للثانية فقالت اصبر على الاثرة فنطقت الآية بأنه لا اثم عليهما ان اصطلحا على لون يرتضيانه و الصلح خير من الطلاق خصوصا لمن كبر سنّها وفنى شبابها :

و أحضر مبنى للمجهول معناه ان الطبيعة البشرية تحضر للأنفس الشحّ و الحرص حتى المرئة المسنّة تحرص على مساواتها مع الشابة و معارضتها لها وقد لا يكون ذلك باختيارها الاّ اذا راضت نفسها و اقنعتها بالمعقول ثم خاطب سبحانه الأزواج بأنكم مهما احسنتم لمن عافت انفسكم واتقيتم اللّه فى ذلك فان اللّه كان بما تعملون من الخير

معهنّ خبيرا يحفظه لكم .

* (و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة و ان تصلحوا و تتقوّا فانّ اللّه كان غفورا رحيما : و ان يتفرقا يغن اللّه كلاّ من سعته و كان اللّه واسعا حكيما) *

مفاد هذه الآية تابع للآية السابقة و خلاصته ان الأنسان اذا مال قلبه جذريا نحو شيء و استمر داعى الميلان موجودا فى الطرف فمن الصعب العسير ابعاده عنه كما انّه من المتعذر التفكيك بينه و بين لوازمه فالرجل اذا مال قلبه الى امرءة فبمقدار ما يميل لها يبعد عن الأخرى و تلك الأخرى على حساب انّ لها من زوجها مثل ما للقبيلتها تريد هذا الاستحقاق و هو عاجز عنه و لذلك قال تعالى ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم لأن الحرص تصنّعى و الميل الى المحبوب طبيعى فكيف يوازى التصنّعى الطبيّعى و لكن هناك شيء الفت اللّه انظارهم له فقال من البيّن ان العدل بين النساء غير مستطاع لكم و لكن هناك امر مقدور لكم هيّن عليكم وهو انّ تعربوا لتلك اللاتى يرين انفسهنّ مهجورات باختيار واحد من امرين امّا اسقاط حقّهن من المقاربة و قسم الليالى و امّا الطلاق ولا يجوز لكم ان تهملوا امرهنّ فتدعوهنّ كالمعلقات لا ذوات ازواج ولا مطلقات .

و ان تصلحوا بينكم بأسقاط بعض الحقوق من الطرفين و تتقوّا اللّه فى الباقى فانّ اللّه كان غفورا لكم ايّها الرجال عن ميلكم القلبى لبعض نسائكم دون بعض لانه امر خارج عن الاختيار كما روى عن النبى (ص)

انه قال اللهّم هذه قسمتى فيما املك فلا تلمنى فى ما تملك ولا املـــك رحيما بكم و بكافة خلقه ما استحقوا الرحمة و ان لم يمكن الصلح لاشتطاط ما بينهما و اختار الفرقة فانّ الله سيغنى الطرفين من سعته فلا يكـون بعض محتاجا الى بعض و كان الله واسعا فى مادة العطاء لا يعسـر عليه شئ حكيما فيما يقنّن من قانون .

* (و لله ما فى السموات وما فــى الأرض ولقد وصينا
الذين اوتوا الكتاب من قبلكم و ايّاكم أن اتقــوا
الله و ان تكفروا فانّ لله ما فى السموات و مافى
الأرض و كان الله غنيّا حميدا : ولله ما فـــى
السموات و ما فى الأرض و كفى بالله و كيلا) *

لله بالمالكية الحقيقية جميع الكائنات التى لا تخلو من مكان امّا فـى السماء او فى الأرض لأنّه خالقها و باعثها من العدم الى الوجود وهذه المقدمة رصيد لقوله ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم مـــن كليميّين و مسيحيين و غيرهم كما و صّيناكم انتم ايّها المسلمون بالأيمـان بالله و الخوف من سطواته التى لا تردّ و امّا اذا اخترتم الكفر و الألحـاد بالله فانّ الله غنىّ عنكم على كل حالاتكم موحدين كنتم ام ملحدين وذلك لانّ لله مافى السموات و الأرض فلا ينقصه شئ لو توليتم لان تولّيكـــم ظاهرى قشرى و الله يتصرف بكم تكوينا كيف يشاء كما يتصرف بالجوامــد الهوامد .

نعم الله تعالى فى عالم التكليف يحمد المؤمن المطيع لانقياده و صفاء ضميره و شكره لأنعم مولاه عليه و أكدّ سبحانه بتأكيد ثالث بان لـه جميع مافى السموات و ما فى الارض فلا يغترنّ انسان بتمرّده او بحولـه

الظاهرى فانه كما اسلفنا محكوم لقدرة الله على كلّ حال انتخبها لنفسه و الله سبحانه نصب نفسه و كيلا على عباده كما نعبّرعن ذلك بالوكيل التسخيرى الاّ ان هناك بونا بعيدا بين الوكيلين فان الوكيل التسخيرى يخاف منه على موكله و وكالة الله على عباده لا يخاف منها بالمرّة لأنها تراعى الأصلح فى حق العبد اذ لا تحيّز فى الله سبحانه .

* (ان يشأ يذهبكم ايّها الناس و يأت بآخرين
وكان الله على ذلك قديرا : من كان يريد
ثواب الدنيا والآخرة فعند اللّه ثواب الدنيا
و الآخرة و كان الله سميعا بصيرا) *

ثم انه سبحانه أبان جهة غناه عن البشر الموجود بأنه قادر على اماتة هذا النوع اماتة جماعيه و الأستعاضة عنهم بنوع آخر و هذا النوع من القدرة مفقود عند المقتدرين فان اعظم المستولين يمكن فى حقهم تصوير ابادة رعاياهم متى كرهوهم من صميم قلوبهم و لكنهم لا يمكنهم ان ينشاؤا لأنفسهم امما غيرهم على وفق مايرضون فمن هنا صح للّه وحده ان يقول وكان الله على ذلك قديرا ، ثم ازرى تعالى بالمنافقين والمؤلفة قلوبهم الذين ينضوون تحت راية الأيمان لأجل الأستفادة من غنائم الحرب بان انضوائكم تحت راية المسلمين ان كان لأجل المنافع الدنيوية فهناك مايكفل لكم خير النشأتين الدنيا و الآخرة وهو ايمانكم باللّه تعالى و اعتناقكم للأسلام حقيقة فأنّ هذا الرصيد الذى لا يحتاج فى اثباته الى مؤنة لوضوحه و دلالة نفسه على نفسه انه حقّ وصدق يكفل لكم ثواب الدنيا و منافعها كما يكفل لكم ثواب الآخرة و فوائدها العظيمة فعلام تميلون الى الأدنى و تتركون الأعلا وكان الله سميعا لما تتناجون به ايّها المنافقون بصيرا بدفائن قلوبكم .

* (ياايّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء
لله ولو على انفسكم او الوالدين و الأقربين ان
يكن غنيّا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا
الهوى ان تعدلوا و ان تلووا و تعرضوا فأن الله كان
بما تعملون خبيرا) *

قوّام صيغة مبالغة فى القيام و القسط هو العدل و اللام فى لله لام تعليل بمعنى لأجل الله و طلبا لمرضاته و الهوى هو الميل النفسى ولوى لسانه بالكلام اذا لم يؤده كما هو .

تفيد الآية لزوم ملازمة المؤمن للعدل و الأنصاف و احقاق الحق فى كل موطن فى الشهادة وغيرها و الشهداء جمع شهيد مؤدى الشهادة و انتصب شهداء على انّه خبر بعد خبر لكان و وجوب اداء الشهادة بما يلزم به العدل يتناول الشهادة على النفس و يسمّى اقرارا امّا الشهادة للنفس فهى دعوى تحتاج الى شهادة خارجية كما يتناول الشهادة على الغير و للغير .

و قوله او الوالدين و الأقربين عطف على قوله ولو على انفسكم فأنّهم بمنزلة النفس فى الشهادة عليها لان الأنسان تجرّه عصبية الرحم فلا يشهد على رحمه و قريبه لكن هذا التصوير مع فرض العدالة فى الشاهد لامجال له .

و اسم ان يكن محذوف تقديره المشهود له او عليه غنيّا او فقيرا بمعنى ان المشهود له حتى لو كان غنيّا غير محتاج لا يبرّر لكم غناه التهاون فى حقّه فان العدل لا تبعيض فيه و المشهود عليه حتى لوكان فقيرا لا يجوز لكم ان تبطلوا الحق لأجل فقره .

و قوله فالله اولى بهما جواب الشرط لقوله ان يكن غنيّا او فقيرا و معناه ان المشهود له و عليه مع غناه او فقره لا ربط لكم به اذ ليس باستطاعتكم اغناء الفقير او افقار الغنى و انما ذلك الى الله و الله اولى بهما منكم فلا تتبّعوا اهوائكم و ميولكم مخافة اتباعكم للعدل الذى يخالفها فقوله ان تعدلوا ينسبك بمصدر يكون مضافا اليه لمضاف محذوف هو ما قدرناه من قولنا مخافة ٠

و ليّ اللسان هو الخروج به عن الأعتدال و الصراحة و معناه ان الأنسان اذا لوى لسانه عن الصراحة بمضمون الشهادة كما تحمّلها فأنّه آثم و هكذا اذا أعرض عن ادائها فهو آثم ٠

فان الله كان بما تعملون من حق و باطل و اداء لما تحمّلتم من الشهادة وعدم اداء خبيرا لا تخفى عليه خافية ،وخلاصة الآية ان العدالة الأجتماعية لا يمكن تحققها فى الأجتماع من طريق انسان واحد او اثنين او ماهو فى مقربة من ذلك لان الأنسان الصالح حتى لو ثنيت له الوسادة لا يستطيع ان يمارس شؤن المجتمع كلها بخاصة نفسه لعجزه الطبيعى عن ذلك بل يحتاج الى معاونة الأكثرية من الناس حتى يبقى القليل ضايقا لا يجد له مساغا من بين هؤلاء امّا اذا تخلّفت الأكثرية عن ذلك شمل الظلم كل احد ولا يغترنّ القوى فى دور ببقاء الدور له كما هو مشاهد محسوس ٠

* (ياايّها الذين آمنوا آمِنوا بالله و رسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله و الكتاب الذى انزل من قبل ومن يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالا بعيدا) *

آمنواالأولى خبر و آمنوا الثانية امر و الألف و اللام فى الكتاب المذكور اوّلا للعهد اى القرآن وهى فى الكتاب المذكور ثانيا للجنس لان المراد به ما انزله الله على من سبق نبىّ الأسلام من الأنبياء السابقون عليه كثيرون وكتبهم ايضا كثيرة :

و يجوز ان يراد بالذين آمنوا المنافقون الذين يتظاهرون بالأيمان فيكون معنى آمنوا بالله ورسوله كونوا واقعيين فى ايمانكم لا سطحيين فان من لاواقع لأيمانه ليس بمتدين اصلا ·

كما يجوز ان يراد بهم المؤمنون الواقعيون و يكون الأمر لهم بالأيمان بمعنى الأستمرار عليه و الثبات معه ومن لازم الكفر بالله الكفر بما يمتّ اليه من ملائكة و كتب ورسل و معاد بخلاف الكفر بواحد من هذه الأمور فانه لا يلازم من طريق المنطق الكفر بالله و اِن لازَمه من طريق الشرع و الضلال البعيد هو الأنحراف المتمادى الشقة عن الواقع·

* (انّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا : بشّر المنافقين بأن لهم عذابا اليما : الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزّة فان العزّة للّه جميعا) *

قيل ان المراد بالذين آمنوا اوّلا ثم كفروا ثانيا ثم آمنوا ثالثا ثم كفروا رابعا ثم ازدادوا كفرا خامسا هم اليهود. آمنوا بموسى اولا وكفروا به اذ عبدوا العجل ثم عادوا الى الأيمان به ثم كفروا بعيسى لما جائهم ثم ازدادوا كفرا بمحمّد ، و قيل ان المراد بهم المنافقون المعاصرون لنبى الأسلام فأنهم اظهروا الأيمان به بادئا عندما انتصر على قريش ثم كفروا عندما انكسر منهم فى وقعة احد ثم لمّا توالت انتصاراته عليهم عاودوا اظهار الأيمان به ثم اخذوا يحالفون اعدائه ثم ازدادوا كفرا به عندما مات و ماتوا على الكفر فان امثال هؤلاء لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم حال حياتهم و استمرارهم على الكفر سبيل الرشاد لأنهم ليسوا حاضرين لذلك ولا مستعدين له و اطلاق البشارة على العذاب تهكّم .

ثم عرّف المنافقين بأنهم الذين يتخذون الكافرين اولياء لهم و يعرضون عن المؤمنين ثم يستفهم سبحانه استفهاما انكاريا بقوله ايبتغون عند الكافرين العزة و الظفر فان العزّة بيد اللّه يعزّ من يشاء و يذلّ من يشاء فكم اطاح بشامخ و كم شمخ بسافل .

* (و قد نزّل علیکم فی الکتاب ان اذا سمعتم آیات
الله یکفر بها و یستهزأ بها فلا تقعدوا معهم
حتی یخوضوا فی حدیث غیره انّکم اذا مثلهم انّ
الله جامع المنافقین و الکافرین فی جهنّم جمیعا) *

قیل الأشارة بقوله وقد نزّل علیکم فی الکتاب ..الخ الی قوله اذا رأیت الذین یخوضون فی آیاتنا فأعرض عنهم حتی یخوضوا فی حدیث غیره و تشیر الآیة الی حرمة مجالسة الکافر وهو یبدی کفره و استنقاصه للأیمان و اهله و باتحاد الملاك تشیر الی حرمة الأشتراك فی مجلس یعصی الله فیه امّا بغیبة او نمیمة او مایغری بالجهل ویحید بالأنسان عن طریق الفضیلة وان المؤمن اذا اشترك فی امثال تلك و هذه المجالس کان مثل الکفرة فی کفرهم و نظیر الفسقة فی فسقهم و انه لامانع من مجالسة الکفرة اذا لم یتحدثوا عن الکفر و هکذا الفسقة بل کان الحدیث حدیث تجارة و نحوه .

و ان المسلم الذی یستمع الی هجو اخوانه المؤمنین من الکفرة و المنافقین و هکذا ذو الصلاح یستمع الی غیبة اخیه المؤمن او النمیمة علیه او هجوه سیحشر مع المنافقین و الکافرین فی جهنم لأنه مثلهم فی رضاه بعملهم و الأشتراك معهم فی مجالسهم و محادثاتهم .

* (الذين يتربصون بكم فأن كان لكم فتح من اللّه قالوا الم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين فاللّه يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلا) *

هذه الآية من وصف المنافقين لعنهم اللّه حيثما يكونون ومعنى التربص هو تهيأة انفسهم لمحاولة الأمور ومجاريها حتى يسلكوا مع كل سبيل ما يليق به لأنفسهم و يرونه مؤمّنا لرغباتهم فأن كان للمؤمنين فتح و نصر على الكافرين اظهروا التملق للمؤمنين بصورة بيان واقع و ذلك انكم تظنون بنا النفاق وعدم الصدق و الأخلاص فى الدين اما تروننا كيف خطونا خطوتكم ودافعنا دفاعكم حتى انتصرتم و انتصرنا على عدوكم وعدونا و ان دارت الدائرة على المسلمين وكانت بنفع الكافرين انتهزوا الدور وقالوا للكفرة الم نهيمن عليكم بأخافتنا للمسلمين منكم و ارعابنا لهم من قوّتكم و شدّة بأسكم و شكيمتكم فنحن الذين خذلنا المسلمين حتى انتصرتم عليهم فالنصر الذى احرزتموه فى الواقع لنا و نحن سببه الأوثق و بهذا منعناكم من المؤمنين فلم يغلبركم ولو اننا شجعناهم و ضعفنا امركم عندهم لما انتصرتم و لكانت الغلبة لهم عليكم .

ثم ابان سبحانه انّ هذه القضايا المحبوكة بحسب الظاهر والتى كل منها لها لسان و منطق لا يقضى فيها بين المنافقين و المسلمين الا اللّه العالم بالسرائر و موقع ذلك القضاء هو يوم القيامة .

ثم ابان عزّوجلّ وجهة اخرى بأن منطق الكافر حتى فى عالم الدنيا مغلوب عند التحقيق لانه فاقد للحجة و الحجة دائما للمؤمنين على

الكافرين و ان انتصر الكافرمادياً فى بعض الأحيان على المؤمن

* (انّ المنافقين يخادعون اللّه وهو خادعهم و اذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون اللّه الاّ قليلا : مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء و من يضلل اللّه فلن تجد له سبيلا) *

المنافق لاعقيدة له باللّه كالمرائى لأنّ الطرفين لو كانت لهم عقيدة بموجود يعتقدون فيه علم الغيب و انه يعلم من السرّ مايعلمه من العلانية لما دلّسوا لكنّ اللّه نزّل مخادعتهم للمسلمين و لنبىّ الأسلام بمنزلة مخادعتهم له و امّا مخادعة اللّه لهم فهو غضّ النظر عنهم فى هذه النشأة و فضحهم يوم القيامة و هتك اسرارهم بين اهل المحشر .

و انّما يقومون الى الصلاة كسالى لأنّهم لا يعتقدون بها و انّما يفعلونها تستّرا من المسلمين لحفظ ظواهرهم و فعل الشىء عن غير عقيدة به لا يكون عن نشاط قطعا .

يراؤن الناس يعطونهم ظاهر رؤية حسنة ولا يذكرون اللّه الاّ قليلا اى فى المواطن التى يضطرّون فيها الى ذكر اللّه لأنّ مجاملة الفرصة السانحة يرونها لازمة و التذبذب هو الأضطراب وعدم الأستقرار على لون واحد و هكذا حال المنافقين فأنهم فى تشعّب ظواهرهم عن بواطنهم ليسوا بكفرة خالصين لأن الكافر مصحر بكفره وعقيدته الكفر ايضا و ليسوا بمؤمنين خالصين لان المؤمن كما يصلى فى الجلوة يصلّى فى الخلوة وكما يتظاهر بالايمان يكنّه فى نفسه ايضا .

و ضلال المنافق ضلال عمدى لاعن جهل و بساطة و لذلك قال فى

حقّهم تعالى ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا و معنى اضلال الله له صرف لطفه عنه وعدم توجهه له و اذا انقطع توجّه الله عن عبد استحالت عليه الهداية لان الهداية مربوطة بالمعنويات التى لا تحصل للأنسان الاّ بالتوجه الى ماوراء الطبيعة و ليس وراء الطبيعة غير الله ٠

* (ياايّها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين اتريدون ان تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا :ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) *

ضرورى ان الأنسان اذا اخلص المحبة لأنسان ابغض اعدائه و احبّ اوليائه لان هذه الأرتباطات طبيعية ومن هنا خاطب اللّه المؤمنين بحرمة اتخاذ الكافرين اولياء بحقيقة هذه الكلمة نعم مجاملتهم الظاهرية حيث تدعوا الأوضاع الصحيحة الى ذلك لا مانع منها وقد تزيد هذه الحرمة شدّة فيما لو اتخذ الكافر وليّا واقعيا و انصرف عن المؤمنين بالمرّة فأنّ مثل هذا الأنسان لا دين له و لذلك خاطبهم سبحانه بقوله اتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطانا بالحجّة و اقامة الدليل بما تفتضحون به فالمراد بالسلطان هنا سلطان المنطق لا سلطان التكوين فأنّ الله سلطان على كل كائن رضى و خضع بالقول لسلطانه ام ابى و تمرّد بحسب ما يظهر عليه ٠

و جاء بعلة ثانية للمؤمنين بعدم جواز اتخاذهم للكافرين اولياء بأن المنافقين وهم الكافرون فى لبّ الواقع فى اسفل طبقات جهنم مكافئة لهم على خبثهم العميق وعدائهم العريق حيث لا يجدون ناصرا ينتصر لهم او مساعدا يعضدهم ٠

* (الاّ الذين تابوا و اصلحوا و اعتصموا بالله واخلصوا
دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين
اجرا عظيما : ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم
و آمنتم و كان الله شاكرا عليما) *

الأستثناء بقوله الاّ الذين تابوا من قوله ان المنافقين يعني ان الأنسان قد ينافق وقد يفسق وقد ينحرف ويصدر عنه كل شئ وهو في حينه مذموم قطعا الاّ انّ له طريق نجاة بتوبته و اصلاحه ما فسد من امره و ترميمه لما خرّبه على نفسه و رجوعه الى الله من صميم قلبه و اعتصامه بالله وحده و اخلاصه لدينه الذى كان يدين به فاذا سلك هذا الطريق و استمر عليه فحشره يكون مع المؤمنين وماذا يؤتى الله المؤمنين غدا قال يؤتيهم اجرا عظيما فالثواب الذى يصفه سبحانه بالعظمة جسيم جدّا .

ثم انه سبحانه ابان جهة قبوله للتوبة وغسلها للدرن السابق بأن الله لاحاجة له بعذابكم ايها المنافقون اذا تبتم و شكرتم انعم الله عليكم و آمنتم به و بقوانينه و شرائعه مضافا الى ان الله مع غناه عن كل شئ شاكر لعبده القائم بوظيفته عليم بما صدر منه من قليل و كثير في سرّ و في علانية .

* (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الاّ من ظلم
وكان الله سميعا عليما :ان تبدوا خيرا او تخفوه
او تعفوعن سوء فأنّ الله كان عفوّا قديرا) *

الأستثناء بقوله الاّ من ظلم منقطع شبيه متصل و توضيح اتصاله بهذا اللون انّ الله لا يجيز لأحد ان يجهر بقول سوء كغيبة و سوق كلام مجّ خفيف الاّ لمظلوم ظلمه انسان فهو بجهره بقول السوء فيه يريد ابداء ظلامته بان يقول فلان اكل حقّي او غصبني مالي او تعدى عليّ او شتمني و نظير ذلك فأنه جائز وهو من موارد جواز غيبة المسلم ولو لم يكن فاسقا متجاهرا بفسقه وكان الله سميعا لما يقوله هذا الجاهر عليما بمقاصده و خباياه هل انّها عن داع مشروع او بداعي حسد و عداء و رقابة و نظير ذلك .

ثم اردف ذلك بما هو من ملاكه فقال ان تبدوا خيرا من قول اوعمل او تخفوه عن الناس او تعفوا عن سوء و تصفحوا فأنكم تأسيتم بالله في مقام العفوعن المسيء و انتظرتم جزاء الله لكم عن فعل الخير الذي فعلتموه لأجل الله و لأجل الضمير فان الله قديرعلى مكافئتكم باكثر ممّا تأملون .

* (انّ الذين يكفرون بالله و رسله ويريدون ان يفرّقوا بين الله و رسله و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض و يريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا : اولئك هم الكافرون حقّا و اعتدنا للكافرين عذابا مهينا : والذين آمنوا بالله و رسله و لم يفرّقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم اجورهم و كان الله غفورا رحيما) *

الكفر بالله يكون على نحوين مرّة بالألحاد به و النكران له و اخرى بالأعتقاد به عقيدة فاسدة كجعل شريك له و تجسيمه و انه يلد او يولد و نظير ذلك .

و الكفر بالله هنا من المقولة الثانية لا المقولة الأولى لان سياق الآية ينافيه بمعناه الأول امّا الكفر بالرسل وهو انكارهم مع الأعتقاد بالله فممكن لغير المتعمقين في معنى الواجب وما يلزمه من طريق تبسّط العقول و اعتباراتها الصحيحة و معنى يريدون ان يفرقوا بين الله و رسله يشير الى ما افدناه قريبا من الاعتراف بالله وحده و الأنكار للرسالة امّا مطلقا او لبعض الرسالات الثابتة دون بعض و انما اطلق على ذلك معنى الكفر لان الاعتراف بالله من لازمه الاعتراف ببراهينه التي يقيمها على صدق انبيائه و انكار ذلك فيه نوع من الاستلزام لنكرانه هو تعالى بالمرّة

و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض يحتمل ان يراد به نؤمن بالله وحده و نكفر بالمدّعين للرسالة او نؤمن ببعض الأنبياء و نكفر ببعضهم ولا نراهم واقعيين و يريدون بأيمانهم بالبعض و كفرهم بالبعض ان

يتخذوا سبيلا بين الاعتراف بالله و نفى من ادّعى النبوّة او بين الأعتراف ببعض الأنبياء و الكفر بالبعض الآخر منهم .

اولئك الذين يحملون هذه الروح التى تفكك بين حلقات السلسلة الواحدة هم الكافرون حقّا لأنّ ايمانهم بالبعض ممّا يستدعيهم للأيمان بالبعض الآخر فالتفكيك بين ابعاض الحقيقة نوع من الكفر القائم على الجهل بالموازين العلمية .

و توعّد سبحانه كل كافر ومن جملة الكفرة من اشار اليهم بأنه هيّأ لهم عذابا يهينهم حتى فى نظر انفسهم فضلا عن نظر الأغيار ، امّا الذين قادهم الأيمان بالله الى الأيمان برسله جميعا ولم يفرقوا بين احد منهم فيؤمنوا ببعض و يكفروا ببعض فأولئك سوف يؤتيهم مايستحقون من اجر الأيمان و العمل على طبقه وكان الله غفورا لما يبدر منهم من سيئآت تتعقبها التوبة رحيما بهم عطوفا عليهم لأنهم عباده .

* (يسألك اهل الكتاب ان تنزّل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جائتهم البيّنات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا) *

المراد بأهل الكتاب هنا هم اليهود بسبب السياق ولا شكّ ان القرآن واقعا وعند كل من له عقيدة به نازل من السماء وانما سأل اليهود ان ينزّل عليهم محمّد كتابا من السماء للتشكك منهم فى سماويته فأرادوا منه لأجل تثبيت الأيمان به فى قلوبهم ان يروه بأعينهم كيف يصعد امامهم الى السماء بجسده و ينزل و بيده كتاب مكتوب حتى لاتبقى فى انفسهم ظنة منه وطبعا ماسألوه منه فيه نوع من الأعجاز وانما لم يجابوا اليه لأن فعل المعجز ليس الى رغبة المكلّف بل ارادته وفعله مربوطان بالله سبحانه حسبما يراه من المصلحة و الحكمة فأنّ العامى قد يريد السخائف بلون المعجز و ليس لزوما على الله ان يجيبه الى ما اراد بل عليه ان يفعل من المعجزات ما يتوافق مع المصلحة و الحكمة و القرآن من هذا القبيل ٠

و دليل اعجازه تحدّيه فهلا تحدّاه اليهود حتى يبطلوا دعوة النبيّ المستند اليه المعتزّ به و لذلك قال سبحانه فى مقام التسلية و التخفيف عن عاطفة النبى ما مفاده ان القوم ان يسألوك ان تعرج بجسدك الى السماء و تنزل عليهم على منظر منهم و بيدك كتاب من السماء يشهد بنبوتك و صدقك و لزوم الأخذ بمضامينه فلا عليك من هذا السؤال فانه للتعنّت منهم و هذا قرآنك سماوى من اعلا طراز و قد

تحد يتهم به فلم يأتوا بشيء فى معارضته و ان لهؤلاء القوم سوابق سخيفة مع نبيّهم موسى فأنه لمّا اخذ السبعين المختارين من قومه معه الى ميقات ربّه و انزلنا عليه و بمشهد منهم الواح التوراة طمعوا فيما لا طماعية فيه فقالوا ارنا الله عيانا نراه بأحداقنا كما رأينا الألواح و كما نراك مواجهة فأنزلنا عليهم نارا من السماء احرقتهم و بشفاعه و تضرّع من موسى اعدنا لهم حياتهم و هؤلاء هم لم يكتفوا بالآيات العظيمة التى رأوها بأحداقهم من عصا موسى ويده البيضاء و آخرها قبل عبادتهم العجل انفراق البحر لهم بتلك الصورة المدهشة و التهام البحر لفرعون وجنوده حتى اذا مروا بعجل و وجدوا فى الجهلة من يعبده لووا رؤسهم عن كل ما سلف و اشتركوا مع هؤلاء الأنعام فى عبادته .

و لمّا تابوا فى قصّة مضى القول فيها سابقا عفونا عنهم و آتينا موسى من الآيات البيّنات و الحجج القواطع ما به سلطانه على كلّ مخاصم و مع ذلك وجد من اعنات هؤلاء ماوجد فتأس بسلفك موسى ولا تغتّم ممّا يعرض لك من هؤلاء

* (و رفعنا فوقهم الطور بميثاقهم و قلنا لهم ادخلوا الباب سجّدا و قلنا لهم لا تعدوا فى السبت و أخذنا منهم ميثاقا غليظا) *

هذه الآية من تمام سابقتها فى استطراد وقائع اليهود مع موسى و تلوّيهم عليه و معارضتهم له فى حال ان المجارى التى ارادوها قد امنّت لهم كما طلبوا ، و الطور اسم الجبل الذى كلّم اللّه عليه موسى و انزل عليه التوراة فيه فلمّا انزلت التوراة على بنى اسرائيل بطلب منهم بعد اغراق فرعون و جنوده و نجاح الامور بنفعهم و عرض الواحها على السبعين النقباء الذين كانوا معه فى الطور ابوا العمل بها و ارادوا فيها حذفا و زيادة هناك امر اللّه ان يظلّل بالطور و يرفع على رؤسهم فأن وفوا بما اعطوا من الميثاق سابقا رفع عنهم العذاب والاّ أسقط عليهم مجازاة لتمرّدهم و تذبذبهم و تعنّتهم المقيت .

و هذا ما اشار اليه بقوله ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم اى بسبب توثقنا منهم قبل انزال التوراة بالعمل بمضامينها متى انزلت ، ومن بعض تعنّتات هؤلاء القوم ان موسى و هارون لمّا اختارهما اللّه اليه بالوفاة تكلّف تسيير بنى اسرائيل الى الأرض المقدسة يوشع بن نون و كان اللّه سبحانه الزمهم عند دخولهم لبيت المقدس او لأريحاء ان يسجدوا على مدخل القرية شكرا للّه الذى اعادهم الى اوطانهم سالمين منتصرين و ان يدعوا اللّه فى حطّ ذنوبهم عنهم فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم و قالوا بدل لفظة حطّة حنطة حمراء بمعنى اننا من بعد التيه و سآمتنا من المنّ و السلوى انما تهمّنا الحنطة الحمراء نأكلها لاحطّ الذنوب عنّا .

كما انّ من بعض تعنتاتهم صيدهم الحيتان فى يوم السبت و قد نهوا عن ذلك و أخذ منهم ميثاق غليظ به وهو كناية عن التأكيد فى التحريم و تشديده اختبارا لطاعتهم من معصيتهم وقد سلف القول عن هذه النكات فى سورة البقرة ٠

* (فبما نقضهم ميثاقهم و كفرهم بآيات الله و قتلهم الأنبياء بغير حقّ و قولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الاّ قليلا : و بكفرهم و قولهم على مريم بهتانا عظيما و قولهم انّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه و لكن شبّه لهم و ان الذين اختلفوا فيه لفى شكّ منه مالهم به من علم الاّ اتباع الظنّ وما قتلوه يقينا : بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما) *

ما ـ فى قوله ،فبما ـ زائدة للتأكيد و اصل الكلام فبنقضهم والمراد بالميثاق عموم المواثيق التى اعطوها او اخذت منهم فى عالم التكليف فان بنى اسرائيل من لدن موسى ما وفوا بميثاق اخذ منهم تكليفا او اعطوه من تلقاء انفسهم و المنظور بكفرهم بآيات الله تمرّدهم عليها وعدم توجههم لها نظير عبادتهم للعجل عقب انفراق البحر لهم و سلوكهم فيه كسلوكهم فى جواد الأرض و قتلهم للأنبياء نظير ماارتكبوه من قتل يحيى و زكريا و قولهم لمن يلحّ عليهم بالتأنيب و التفنيد على معاصيهم و تلوّيهم على اوامر الله و رسله ان قلوبنا مغلّفة لا تفقه ولذلك تكثر منّا الأنحرافات فكذّبهم الله فى هذه الدعوى و قال بل هم اناس

متمردون اخباث يعرضون عن الحق و الحقيقة تعمدا و تقصدا .

و لأجل اعراضهم الجدّى عن الله اعرض الله عنهم فانطبع على قلوبهم بما حجب ورود الحق اليها و انطباعه فيها فلا يؤمنون للواقع الآ فترة قليلة ثم يعرضون عنه او فلا يؤمن للواقع من افرادهم الآ القليل سواء فى السابق ام فى اللاحق كالأفراد الذين آمنوا بنبىّ الأسلام منهم .

و المراد بقوله وبكفرهم هو كفرهم المتنوع سواء كان بأصل بعض المبادء الثابتة من السماء ككفرهم بالله بنسبة الولد له او بعبادة العجل مع الدينونة له بالربوبية و كفرهم بالمسيح بن مريم و بمحمد بن عبد اللّه و نظير ذلك من انواع الجحود للواقع، وقولهم فى حق مريم و حملها البهتان العظيم الذى يشق سماعه فان الذى اتهموها به هو يوسف النجّار وكان من الصالحين المعروفين بذلك وهى ذاتها من المقدسات المعروفات بالعفّة و القداسة .

و قولهم انّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله و جائهم الذم لهذا القول من نواحى (منها) تمجّدهم بقتل الأنبياء ولا اعظم موبقة من ذلك(ومنها) كذبهم فى هذا القول وعدم تحققهم من مفاده لأنهم بعد حدوث الحادثة كما سيجئ شكوّا فى وقوع القتل على عيسى (ومنها) وصفهم عيسى بانه رسول الله استهزاء بمعنى انّ ادعائه للرسالة تزوير و كذب و يجوز ان يكون قول رسول الله مقولا لله فقط و الذى هو مقولهم (المسيح عيسى بن مريم) لا اكثر .

ثم انّ الله زيّف مدّعاهم بأنهم قتلوه و صلبوه بعد قتله فقال وماقتلوه هو بنفسه وما صلبوه و لكن قتلوا وصلبوا من كان يحمل شبه عيسى و ان الذين اختلفوا فيه اى فى الأقدام على قتله وعدم الأقدام

عليه او اختلفوا فى هوّيته انه كان هو الربّ او ابن الربّ او بعيث الربّ لفى شكّ من قتله اذ لم يتحقق لديهم انّه المقتول واقعا لألتباس الأمر عليهم بعد وقوع الواقعة مالهم بقتله الواقعى من علم نعم انّما يملكون التخرّص فى ذلك .

قوله وما قتلوه يقينا يجوز فى معناه ان يكون بعنوان الرّد على ظنّهم بقتله او شكّهم فيه بأنهم لم يقتلوه قطعا و انه حىّ سالم جزما كما يجوز ان يكون بمعنى انهم لم يتيقنوا من قتله و انّما هو الظنّ به و قوله تعالى بل رفعه اللّه اليه ردّ حتمى لكل من اشتبه امر عيسى عليه و كان اللّه عزيزا لا يغالب حكيما يوقع الأمور فى مواقعها .

جاء فى الأثر ان اليهود تجمّعوا و تعاقدوا على قتل عيسى فبعث اللّه تعالى جبرئيل ليمنعه منهم و يعينه عليهم فأدخله جبرئيل فى خوخة البيت و لها روزنة فى سقفها فرفعه الى السماء و ارسل اليهود واحدا منهم ليدخل عليه البيت فيقتله فدخل و لم ير احدا فألقى اللّه عليه شبه عيسى فلمّا ايس من وجود احد فى البيت خرج على اصحابه فظنوه عيسى خرج فارّا من صاحبهم فقتلوه و انتظروا خروج صاحبهم فلم يكن شىء فدخلوا فلم يجدوا احدا فارتابوا و قالوا ان كان المقتول عيسى فأين صاحبنا و ان كان المقتول صاحبنا فأين عيسى .

و الجمع بين قوله تعالى لفى شكّ منه و قوله مالهم به من علم الاّ اتباع الظن حيث عبّر سبحانه اوّلا بالشكّ و ثانيا بالظن ــ ذلك ــ لأنهم شكّوا بادئا و بعد ترويهم غاية ما حصل لهم الظن بقتله و للتالى لم يحصل لهم علم بقتله و استثناء الظن من العلم استثناء انقطاع اذ ليس من جنسه الاّ اذا توسعنا فأطلقنا العلم على ما هو اعمّ من الظن .

وعلى الأنقطاع يكون المعنى مالهم به علم و انّما اعتمدوا فى قتله

اتباع الظن و يتعلق قوله فبما نقضهم بمحذوف يستفاد من مجرى الحديث عنهم و تقديره لعنّاهم بسبب نقضهم ميثاقهم الى آخر المعطوفات ٠

* (و ان من اهل الكتاب الاّ ليؤمنّن به قبل موته و يوم القيامة يكون عليهم شهيدا) *

اقرب الوجوه ممّا قيل فى هذه الآية ان الضمير فى به و موته يرجع للمسيح ابن مريم و يكون مفاد الآية وما من اهل الكتاب احد الاّ ليؤمنن بالمسيح قبل موت المسيح و المسيح كما ورد فى مستفيض الروايات ينزله الله الى الأرض وقت خروج المهدى آخر الزمان و يصير الناس كلّهم على ملّة واحدة هى الأسلام و المسيح نفسه يصلى خلف المهدى، وجاء فى الأثر عن ابى حمزة الثمالى عن شهر بن حوشب قال قال الحجاج بن يوسف آية من كتاب الله قد اعيتنى فهما وهى قوله وان من اهل الكتاب الاّ ليؤمننّ به قبل موته الآية و الله انّى لآمر باليهودى والنصرانى فتضرب عنقه ثم ارمقه بعينى فما اراه يحرّك شفتيه بشىء حتى يحمل فقلت اصلح الله الأمير ليس على ما اولّت قال فكيف هو قلت ان عيسى ابن مريم ينزل قبل يوم القيامة الى الأرض ولا يبقى اهل ملّة من يهود و نصارى و غيرهم الاّ و يؤمن به قبل موت عيسى و يصلى خلف المهدى قال ويحك انّى لك هذا قال قلت حدثنى به الباقر محمد بن على بن الحسين بن على قال جئت بها و الله من عين صافية ٠

و المراد بقوله يكون عليهم شهيدا ان عيسى يشهد على اهل الكتاب بايمان من آمن به و تكذيب من كذب به فى دور رسالته ٠

* (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات
احلّت لهم و بصدّهم عن سبيل الله كثيرا :
و اخذهم الربا وقد نهوا عنه و اكلهم اموال
الناس بالباطل و اعتدنا للكافرين منهم عذابا
اليما) *

ومفاد ذلك ان اليهود بظلمهم الواسع و ارتكابهم للمعاصي الكثيرة بما تقدّم نموذج منه سبّبوا على انفسهم توسيع دائرة الحرام عليهم و تضييق منطقة الحلال و الطيّبات التى كانت حلالا لهم ثمّ حرّمت عليهم هى ما اشير اليه بقوله تعالى و على الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر ومن البقر و الغنم حرّمنا عليهم شحومهما الاّ ماحملت ظهورهما او الحوايا او مااختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم و انّا لصادقون (الآية ١٤٥ من سورة الأنعام) و بقوله تعالى و بصدّهم عن سبيل الله ٠٠الخ اشار الى عدة اخرى من معاصيهم و مظالمهم ومعنى صدّهم عن سبيل الله اغوائهم للناس عن الحق الى الباطل الذى يستذوقونه و انّهم كانوا ربويّين تسوقهم الأطماع الماديّة الى ملابسة هذا العمل المنفور شرعا و وجدانا و انهم كانوا لا يتحاشون فى سبيل اقتناص المادة اكل السحت من الرشا فى مقام القضاء و تحويرهم كتاب الله بما كانوا يكتبونه بأيديهم و ينسبونه للسماء من اجل دواعى خاصة تستدّر لهم المال الى غير ذلك من مظان اكل مال الناس بالباطل ٠

ثم تهدّدهم سبحانه بأنّه هيأ للكافرين منهم عذابا مؤلما موجعا لتتبدّل افراحهم فى الدنيا اتراحا قاسية فى الآخرة ،ويتعلق قوله فبظلم من الذين هادوا بقوله حرّمنا عليهم وقد يكون متعلّق وبصدّهم

هو ذلك و يحتمل غيره ممّا يناسب كتقدير لعناهم او اعتدنا لهم عذابا اليما ·

وقوله و اعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما وان اختصّ بالكافر الاّ انه لا يفهم منه ان غير الكافر منهم ولو كان فاسقا لاعذاب عليه اذ لاحصر فى العباره و السياقات السابقة و اللاحقة قاضية بتعذيب الفاسق منهم كالكافر وان تفاوت الفريقان فى كمّ العذاب و كيفه ·

* (لكن الراسخون فى العلم منهم و المؤمنون
يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك
و المقيمين الصلاة و المؤتون الزكاة و المؤمنون
بالله و اليوم الآخر اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما) *

الراسخ فى الشيء الثابت فيه و المقيمين الصلاة عطف على الراسخون وكان من حقّه ان يرفع على التبعية و لكن نصب على المدح بتقدير وامدح المقيمين الصلاة فكانت هذه الجملة شبه اعتراضية ، و النصب على المدح وارد فى كلام العرب وانشد سيبويه و غيره على ذلك قول الجاهلى :

لا يبعدن قومى الذين هم سمّ العداة و آفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيّبون معاقد الأزر

و الأستدراك بلكن ممّا سلف من استنقاص اليهود وذمّهم بشتى الصفات المرذولة يعنى ان فى اليهود اناسا راسخين فى العلم افاضل لم يدوسوا علمهم تحت ارجلهم نظير اولئك الذين آمنوا بنبىّ الأسلام كعبد الله بن سلام و لذلك آمنوا بك كما آمن بك المؤمنون وبما انزل اليك من القرآن وما انزل من قبلك من كتب السماء فأنّهم يرون ان

المحور واحد وهو الله و الكتب السماوية الحقّة كلها من عنده ،وانّما خصّ سبحانه اقامة الصلاة بمزيد من العناية لأهميّتها فى نظره بالنسبة الى غيرها من الفرائض و الأشارة بأولئك للفريقين من الراسخين فى العلم من اليهود ومن المؤمنين بنبىّ الأسلام وما انزل اليه والى من قبله .

* (انّا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح و النبيّين
من بعده و أوحينا الى ابراهيم و اسماعيل
و اسحاق و يعقوب و الأسباط و عيسى و ايوب
و يونس و هارون و سليمان و آتينا داود زبورا) *

الزبور فعول بمعنى مفعول والمزبور هو المخطوط و المكتوب و الأسباط جمع سبط وهو الحفيد وكل من تفرّع من يعقوب فهو سبطه ومن جملتهم المذكورون بنصّ اساميهم و انّما خصّهم بالذكر دون من سواهم لاحتمال مزيد التشريف لهم و الترتيب فى الذكر لا ربط له بترتيب الواقع فان داود قبل سليمان فى سلسلة الترتب و هكذا هارون قبل عيسى الى غير ذلك .

اراد سبحانه بهذه الآية وبتاليها ان يبيّن له صفحة عن الواقع الماضى ليعطيه علما به وليوقفه على جملة من حلقات سلسلة الأنبياء وان الهدف منهم الوساطة بين الله وبين عباده لأجل تعليمهم و اخراجهم من الجهل الى الفضل و اقامة الحجّة عليهم .

* (و رسلا قد قصصناهم عليك من قبل و رسلا لم
نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليما : رسلا
مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله
حجّة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) *

انتصب رسلا على انه مفعول لفعل محذوف متصيّد من الكلام تقديره و ارسلنا رسلا آخرين غير من استطردنا اسمائهم قد قصصنا ذكرهم عليك فى غير هذا الموضع من القرآن ٠

قوله من قبل ، اى قبل هذه السورة من السور القرآنية السابقة النزول عليها من مكيّة و مدنيّة ، وارسلنا ايضا رسلا لم نقصصهم عليك فى القرآن كما ورد فى جملة من الآثار ان مجموعة الأنبياء تبلغ مأة الف و اربعة وعشرين الف نبىّ ولم نغفل اسمائهم استهانة بهم حاشا و لكن فى ذكرهم طول لا يتناسب مع اهداف القرآن واختصاره ٠

و باعتبار ان موسى عليه السلام لم يذكر فى الآية الآنفة باسمه الصريح وهو من اعاظم الأنبياء و الرسل ذكره بعنوان خاص شامخ فقال وكلّم الله موسى تكليما اى هو نبى كلّمه الله مباشرة فى بعض ادوار نبوّته اعلاء لشأنه ، قوله رسلا مبشرين و منذرين حال من رسلا السابقة بمعنى ارسلنا رسلا مقصوصين عليك و غير مقصوصين حال كونهم رسلا مبشرين بالنجاة و النعيم لمن اطاع و منذرين بالهلاك و الجحيم لمن عصى و انحرف ، و اللام فى لئلا تعليلية ابانت جهة الأرسال وانّه عن اىّ داع كان فقال لئلا يكون للناس على الله حجّة حينما يقول لهم فى الحساب لم ضللتم وعن اىّ داع انحرفتم فيقولون لا هادى لنا ولا مرشد والأنسان بمفرده ومجرده لا يستطيع الهداية الى ماتريده انت ياربّنا ، وكان الله

عزيزا يعنى يحتزّ بنفسه عن الأيقاع بهم من دون اقامة حجّة حكيما في ارساله للرسل هم وما يتناسب من ذهنيات وصلاحيات اجيالهم ٠

* (لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه .

و الملائكة يشهدون و كفى بالله شهيدا) *

ورد في الآثر ان جماعة من اليهود دخلوا على رسول الله فقال لهم انى و الله اعلم انكم تعلمون انى رسول الله قالوا ما نعلم ذلك فأنزل الله لكن يشهد الله و مضمون ما جاء فى هذا الأثر سبق في آيات عديدة من تكذيب اهل الكتاب لنبيّ الأسلام و الحال انهم عالمون بنبوّته من طريق ماانزل اليهم فى كتبهم ،وشهادة الله بصحة القرآن ونزوله على نبيّه قائمة باعجاز القرآن نفسه فانه شاهد متكلم على انه كتاب سماوى و ليس من خلقة بشر و تحدّيه بذلك من اعظم الشواهد ٠

و معنى انزله بعلمه انزله بما يعلم من الواقع و ليس من احد يعلم بالواقع كما يعلمه الله ،وهكذا يشهد ملائكة الله بصدق وصحة ماانزله اليك لأنهم وسطاء فى ذلك بين الله وعباده الأنبياء منهم وغير الأنبياء فهم اطلع من كل احد بهذا المشهود به وكفى الله شاهدا لانه اصدق الصادقين ٠

* (انّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه قد ضلّوا ضلالا بعيدا : ان الذين كفروا و ظلموا لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا : الاّ طريق جهنّم خالدين فيها ابدا وكان ذلك على اللّه يسيرا) *

ان الذين كفروا بكل ما يرجع لما وراء الطبيعة او كفروا بشىء من اصول ذلك كالنبوّة او بعض عمدها وصدّوا الأغيار بالأغواء عن سبيل اللّه وحقّروا الدين فى نظرهم وزهدّوه فى ابصارهم وقالوا لا ينفع الأنسان فى قليل ولا كثير وانما ذلك تسويلات فمثل هذا الرقم من المخلوق قد ضلّوا عن الواقع ضلالا بعيدا اى متجاوزا عن كافة الحدود .

ان الذين كفروا فى انفسهم وظلموا غيرهم بسدّ السبيل المستقيم فى وجهه وماتوا على هذه الروح لم يكن اللّه ليغفر لهم لانه لا مغفرة لمشرك او كافر ولا ليهديهم طريقا بعد ان هدى الناس قاطبة بالرسالات العامّة و الخاصة الى كافّة اجيال البشرية و الجاحد المتمرد المتعنّت اللاوى لوجهه و لقلبه ليس محلاّ للأقبال عليه .

و استثناء طريق جهنّم من قوله ليهديهم طريقا استثناء نقيض من نقيض لان الطريق المستثنى منه يراد منه طريق الخير وامّا طريق الشرّ فلاتحتاج الى هداية لأنها طريق الأنفس الجاهلة بحكم طبيعة الجهل و الخلود يدلّ على الأبدية وانّما جىء معه بلفظ ابدا تأكيدا له و تثبيتا لمفاده بان امثال هؤلاء العتاة لا مخلص لهم من العذاب وهو جزاؤهم الملازم لهم كما لازموا الكفر طوال حياتهم وكل انواع العذاب كأنواع النعيم سهلة التحقق من جانب اللّه لأنه اقدر القادرين .

* (ياايّها الناس قد جائكم الرسول بالحقّ من ربكم فآمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان للّه مافى السموات و الأرض وكان اللّه عليما حكيما) *

بالحقّ معناه بما هو ثابت فى لوح الواقع حيث لا مرية فيه ولا شكّ يعتريه خلافا لما يجئ به الأفراد من طريق عقولهم و آرائهم فأن فيه من الخطأ الشئ الكثير و الذى جاء به هذا الرسول هو من اللّه سبحانه لا من كيسه فانه بما هو بشر كالسائرين وان بلغ فى تهذيب نفسه مابلغ فآمنوا ايّها الناس باللّه و بالرسول وبما جاء به من عنده يكن ايمانكم خيرا لكم فى الدين والدنيا فى النشأة الأولى و الأخرى وجهة كونه خيرا ان المؤمن يكون جامعا لكافة الصفات المثمرة من الجدّ و الأخلاص و الصدق والوفاء والشجاعة والثبات و العلم والعزّ و المفاداة وكلّ من يكون كذلك يكون من السعداء حقيقة وان تكفروا وتلحدوا باللّه فلا يخيّل لكم انكم تنقصونه او تحطّون من قدره فأن للّه جميع مافى السموات و الأرض وكان اللّه عليما بكل شئ يكون منكم حكيما فى كل اقواله و افعاله ٠

* (ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على
الله الاّ الحقّ انّما المسيح عيسى بن مريم رسول
الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله
ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انّما الله
اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له مافى
السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا) *

الغلوّ هو سوم الشيء غاليا متجاوزا الى فوق بالنسبة الى ما يستحقه سواء فى ذلك الماديات و المعنويات وسياق الآية مشعر بأن المراد بأهل الكتاب هم النصارى وانما نهاهم عن الغلوّ فى دينهم لأنهم خرجوا بعقيدتهم فى المسيح عن الموازين المعقولة فلم يقتصروا على كونه نبيا وسيطا بين الله وعباده كموسى و ابراهيم ونوح فتارة عبّروا عنه بأنه الربّ واخرى بأنه ابن الله وثالثة تطوّر بهم الوضع فاعتبروا الله وجودا واحدا متشكلا من ثلاثة اجزاء الأب و الأبن و مريم ولا شك ان مثل هذه الوحدة وحدة صورية لا قيمه لها والحقيقة تتبع الأجزاء العُمد القائمة بهذه الهويّة القابعة بهيأة الواحد و لذلك امرهم ان لا يقولوا على الله الاّ الحق يعنى الثابت فى صفحة الواقع من كون واجب الوجود يجب ان يكون مجردا عن المادّة بسيطا لا شائبة للتركيب فيه ومثل هذا الوجود يستحيل فى حقه تصوّر التركب او الماديّة اللازمة لكونه والدا او مولودا انّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله لا انه ولده ولا انه هو الربّ ولا انه من العناصر الموجده لهوية الربّ ولفظ المسيح مرفوع بالأبتداء وعيسى بدل منه وابن مريم وصفه وخبر المبتدأ قوله رسول الله وكلمته معطوف على رسول الله وروح منه كذلك .

ومعنى كونه كلمة الله انه محصول قوله تعالى كن اللفظ المُعرِب عن الارادة الجدّية لكونه و وجوده ومعنى القاها الى مريم ان ظرف هذه الكلمة و المحلّ الذى يتجسد معناها فيه هى امّه مريم ومعنى كونه روحا منه انه روح كسائر الأرواح بجامع مخلوقيتها لله وميزته انه لم يحصل بالتوالد الطبيعى فكان كنفثة خاصة من الله فآمنوا ايها النصارى بالله كما هو حقه و آمنوا برسله باعتبارهم رسلا و وسطاء بين الله و عباده لا انهم آلهة ولا تقولوا الله ثلاثة انتهوا عن هذه المقالة الخاطئة يكن خيرا لكم انّما الله اله واحد بالوحدة الحقيقية لا التركيبية يجلّ و ينزّه عن ان يكون له ولد او والد او مزيج مركب انما هو واجب الوجود خالق الكائنات بأسرها له كل مافى السموات وكلّ مافى الأرض وكفى به وكيلا لمخلوقاته يتحرّى لهم الأصلح و الأنجح .

* (لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا للّه ولا
الملائكة المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته
و يستكبر فسيحشرهم اليه جميعا : فأما الذين
آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم اجورهم و يزيدهم
من فضله وامّا الذين استنكفوا و استكبروا
فيعذّبهم عذابا اليما ولا يجدون لهم من دون
اللّه وليّا ولا نصيرا) *

الأستنكاف هو الأنفة وسمّى المسيح بهذا اللفظ لأنّه مسح من الدنايا و العيوب و الذنوب والحشر هو الجمع ومورد نزول الآية قيل فيه ان نصارى نجران قالوا لنبىّ الأسلام لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال واىّ شىء قلت فيه قالوا تقول انه عبد اللّه ورسوله فأجاب القرآن عن ذلك بأن المسيح الذى هو مخلوق لله لا يأنف ان يكون عبد اللّه فان المخلوق بمادته ومعناه مملوك لخالقه وكذلك لا يأنف الملائكة المقربون عند اللّه لعبادتهم وطاعتهم ان يكونوا عبيدا لله فأن المخلوق عبد كما اسلفناه ٠

ويبدو من الآية ان الملائكة افضل من الأنبياء لان مثل هذا التعبير يترقى فيه من الأدنى الى الأعلا الاّ ان هذا الأنصراف بدوىّ ويصحّ المعنى بدونه ومن يستنكف عن عبادة اللّه ويستكبر فسيحشرهم اليه و الضمير فى اليه يرجع الى المكان الأختصاصى به تعالى وهو عالم النشأة الثانية المتمحضة له كما قال مالك يوم الدين ٠

ولفظ هم يشمل الخلق كلّهم لا المستنكفين فقط ولذلك فى مقام التفضيل قال فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم اجورهم يعنى

يعطيهم ما تستحقه اعمالهم ويضيف الى ذلك تفضلا منه ما يشاء من اجر وثواب وامّا الذين أنفوا وتكبروا واعتزو بأنفسهم فى حال انّها لا شئ فى انفسها فضلا عن قياسها الى خالقها فيعذبهم عذابا اليفا ولا يجدون لهم من دون الله اىّ كائن ومهما عظم وليّا يقف دونهم وينصرهم فان الكائنات كلها لا تملك ايّة عظمة امام الله سبحانه ·

* (ياايّها الناس قد جائكم برهان من ربّكم و انزلنا اليكم نورا مبينا : فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) *

الأشارة بالبرهان هنا الى نبى الأسلام وان كان كل نبىّ برهانا من الله لانه حجة على امته ولسان ناطق عن الله اليهم والنور المبين هو القرآن لانه يوضح للبشرية طرق سيرها فى انفسها وبالمجتمع الذى تعيش فيه فأما الذين آمنوا بالله ومن لازم ايمانهم به ايمانهم بنبىّ الأسلام لانه بعيثه و وسيطه واعتصموا به اى تمسّكوا وفوّضوا امورهم اليه وتوكلوا عليه فسيجازيهم الجزاء الأوفى وهو ادخالهم فى رحمة منه وفضل يسبغه عليهم ويزيدهم هدى الى سلوك طرق الرشاد فان الصراط المستقيم المنجى و المنجح لا يعرفه الاّ الله العالم بأسرار كل شئ وخفاياه ·

* (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ان امرؤ هلك وليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان ممّا ترك وان كانوا اخوة رجالا و نساء فللذكر مثل حظّ الأنثيين يبيّن لكم ان تضلّوا واللّه بكلّ شئ عليم) *

اسلفنا فى تفسير اوّل السورة ان الكلالة فى لسان القرآن انّما استعملت فى اخوة الميت لا فى غيرهم من ارحامه وان الكلالة على نوعين نوع منها ان كان ذو الكلالة واحدا ذكرا كان ام انثى فانه يرث السدس وان كان اكثر من ذلك فأنه يرث الثلث بلا تفاضل والنوع الآخر هو المذكور هنا وهو ان الكلالة ان كان اختا واحدة فلها نصف ما ترك وان كانت الأختان اثنتين فلهما ثلثا ما ترك بالسوية بينهما وان كان ذووا الكلالة مختلطين رجالا ونساء فيرثون بالتفاوت للذكر مثل حظ الأنثيين وتشخيص الكلالتين انّما هو الى السنة فقد عبّرت عن الكلالة الأولى بأنها كلالة الأم وعن الثانية وزعتّها الى نوعين كلالة الأب فقط وكلالة الأبوين وكلالة الأب وحده لا ترث مع كلالة الأبوين لأن الثانية اقرب الى الميّت واولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض نعم كلالة الأم ترث مع كلتا الكلالتين ونصيب الكلالات الثلاث ما ذكرناه ولا يجوز التعصيب هنا ولا فى غيره من موارد الأرث وان اشتبه الأمر على ابن الخطاب ففعل فأنّه ورّث البنت الواحدة للميت نصفا واخته نصفا زعما منه انّ اللّه فى القرآن ذكر للبنت الواحدة النصف فاذا اخذته بقى نصف آخر والمفروض ان له اختا و القرآن صرّح للاخت الواحدة بالنصف

فتعطى النصف الثانى وهو غلط من ناحيتين الناحية الأولى ان اللّـه قال ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلهما نصف ماترك فعلّق ميراث الأخت على عدم الولد للميّت و البنت ولد فلا ترث الأخت معهـا الناحية الثانية ان اللّه قال واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فـى كتاب اللّه و البنت اقرب للميّت من اخته بواضح الضرورة فتحجبها، يبيّـن اللّه لكم هذه الأحكام مخافة ان تضلّوا فى المواريث عن جادة الحـق والصواب واللّه بكل شيء من اشياء العالم عليم .

وبتمام تفسير سورتى آل عمران والنساء تمّ الجزء الثانى
من كتاب التفسير على يد مؤلفه محمّد بن محمّد
طـه الحويزى الكرمى ويبـدأ الجـزء
الثالث بتفسير سورة المائـدة
والحمد للّـه

فارسی-عربی
قم
خیابان چهار مردان
پاساژ صاحب الزمان

الصفحة	العنوان
١	سورة آل عمران ــ وفد نجران وما اقترن به
١٨	من هم المتقون
١٩	دلائل توحيده تعالى
٢١	الدين عند الله الاسلام فقط
٢٥	معنّى قتل الانبياء و المبلغين
٢٧	اسباب غرور الجهلة
٢٩	تهديد الله للعصاة
٣١	تصريف الامور بيد الله
٣٣	علم الله بالغيب و الشهادة
٣٦	اصطفاء الله سلاسل انبياءه
٣٩	تقبّل الله لمريم احسن القبول
٤١	استجابة الله لزكريا بيحيى
٤٥	تشاحّ الأحبار على كفالة مريم
٤٨	اعتناء الله بالمسيح
٥١	دسائس اليهود للمسيح
٥٥	مباهلة وفد نجران
٥٩	الدعوة الى عبادة الله وحده
٦٢	لم يكن ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا
٦٥	ارصاد اليهود لتحطيم الاسلام
٧٠	الانبياء بعيدون عن كل لوث
٧٤	الاسلام هو دين الله الذى لا يقبل غيره
٧٩	يتوب الله على من لتوبته مجال

الصفحة	العنوان
٨٢	كل الطعام كان حلاّ لبنى اسرائيل
٨٥	البيت و المقام
٩١	الدعوة الى الاجتماع وعدم التفرق
٩٤	الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر
٩٩	كنتم خير امّة اخرجت للناس
١٠٤	كل عمل مرهون بواقعه
١٠٧	مشكلة النفاق واخذ الحذر منها
١١١	طرف من وقعة بدر
١١٥	رحمة اللّه لا تغلب حكمته
١١٨	من صفات المتقين
١٢١	طرف من وقعة بدر و احد
١٢٦	الموت و الحياة بيد اللّه
١٣١	الكافر و المشرك مغلوبان
١٣٣	طرف من وقعة احد
١٤١	قبضة الامور بيد اللّه
١٤٧	المقتول فى سبيل اللّه حىّ
١٥١	حمراء الأسد
١٥٣	بدر الصغرى
١٥٧	الأرخاء للكفرة استدراج
١٦٠	البخل شرّ رذيلة
١٦٣	تجنّى اليهود على الانبياء
١٦٩	قدرة اللّه على كل شىء مقدور

الصفحة	العنوان
١٧٢	العمل بصالح الدين فريضة
١٧٤	الدنيا متاع الغرور
١٧٧	سورة النساء ، الدعوة الى تقوى الله
١٨٢	لزوم ايتاء الزوجات مهورهن
١٨٤	منع السفيه الا بقيّم
١٨٦	اختبار المراهقين
١٩٠	مراعاة الانسان نفسه و ذريته امرٌ لازم
١٩٧	نظام الارث من حدود الله
٢٠٠	المنع من ان تورث النساء كرها
٢٠٣	حرمة ازواج الآباء على الابناء
٢٠٤	المحرمات بالنسب
٢٠٥	المحرمات بالسبب
٢٠٨	جملة من احكام النكاح
٢١٥	حرمة اكل المال بالباطل
٢١٧	الكبائر
٢٢١	ضمان الجريرة
٢٢٣	النشوز و بعض من احكامه
٢٢٦	البخل و مضارّه
٢٢٨	الله ليس محلاً للظلم
٢٣٢	ذم الله لاهل الكتاب
٢٣٤	ذم الله لليهود
٢٣٧	اليهود و الجبت و الطاغوت

الصفحة	العنوان
٢٤٠	جزاء المؤمن و الكافر
٢٤٤	المحاكمة الى الطاغوت
٢٤٧	عظمة مقام الرسالة
٢٥١	لزوم اخذ الحذر من المنافق
٢٥٤	لزوم مبارزة الطاغوت
٢٥٧	الفارق بين الكسب و المقدّرات
٢٦١	بدر الصغرى
٢٦٣	التحية و ردّها
٢٦٦	آية منسوخة
٢٦٨	قتل الخطأ و احكامه
٢٧١	القتل العمدى
٢٧٤	لا يستوى القاعد و المجاهد
٢٧٨	المهاجر فى سبيل الله مأجور
٢٨٠	كيفية صلاة الخوف
٢٨٤	حادثة بنى ابيرق
٢٨٧	حرمة الدفاع عن الخونة
٢٨٩	معنى البهتان
٢٩٢	مشاقّة الرسول
٢٩٤	اغواء الشيطان لبنى آدم
٢٩٧	حنيفية ابراهيم و محمد
٣٠٠	نشوز الزوج
٣٠٦	لزوم الاستمرار بالايمان

الصفحة	العنوان
٣٠٩	لون من الوان النفاق
٣١٢	باب التوبة مفتوح
٣١٦	تعنّت اليهود امام نبىّ الاسلام
٣١٩	ذمّ الله لليهود
٣٢١	هجوم اليهود على محلّ المسيح
٣٢٤	فى اهل الكتاب من هو مؤمن
٣٢٦	التحدث عن جملة من انبياء الله
٣٢٨	الكافر المصرّ على كفره غريق فى جهنّم
٣٣٠	التوحيد و التثليث
٣٣٢	المسيح و الملائكة لا يستنكفون عن العبودية لله
٣٣٣	الانبياء براهين الله
٣٣٤	كلالة الأبوين او الأب

24 6954

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JULY - AUG 1994
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 057496984